إنديرا

قصة حياة إنديرا نهرو غاندي

«لن يجد الراغبون في التعرف على هذه المرأة المميزة أفضل من هذا الكتاب المحكم.»

ـ كاثرين هيوز



كاثرين فرانك

إنديرا

إنديرا

قصة حياة إنديرا نهرو غاندي

تأليف
كاثرين فرانك

ترجمة
كوثر محمود محمد

كلمات عربية

إنديرا
قصة حياة إنديرا نهرو غاندي

كاثرين فرانك

Indira
The Life of Indira Nehru Gandhi

Katherine Frank

الطبعة الأولى ١٤٣١هـ-٢٠١٠م
رقم إيداع ١١٣١٤/٢٠١٠

كلمات عربية للترجمة والنشر
إن كلمات عربية للترجمة والنشر غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه
مكتب رقم ٤، عقار رقم ٢١٩٠، زهراء مدينة نصر، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ‎+٢٠٢ ٢٢٧٢٧٤٣١‎ **فاكس:** ‎+٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥١‎
البريد الإليكتروني: kalimatarabia@kalimatarabia.com
الموقع الإليكتروني: http://www.kalimatarabia.com

فرانك، كاثرين
إنديرا: قصة حياة إنديرا نهرو غاندي / كاثرين فرانك . - القاهرة : كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠١٠.
٧٤٠ص، ١٤,٥×٢١,٠سم
تدمك: ٣ ٥٤ ٦٢٦٣ ٩٧٧ ٩٧٨
١- غاندي، إنديرا، ١٩١٧–١٩٨٤
٢- السياسيون الهنود
٣- الهند - تاريخ
أ- العنوان
٩٢٣,٢٥٤

المحتويات

كاثرين فرانك

وُلدت وتعلمت في الولايات المتحدة، وكتبت ثلاث سير شهيرة: سيرة حياة لوسي دوف جوردون Lucie Duff Gordon وإميلي برونتي Emily Brontë وماري كينجزلي Mary Kingsley. عملت كاثرين أستاذة في جامعات مختلفة بغرب أفريقيا والشرق الأوسط وبريطانيا. وخلال الست سنوات التي قضتها في البحث وكتابة سيرة إنديرا كانت تقيم غالبًا في الهند، وحاليًّا تعيش في إنجلترا.

اهداء

في ذكرى ستيفن رايلي

شكر وتقدير

استغرقت كتابة هذا الكتاب وإجراء الأبحاث المتعلقة به ست سنوات، وعليّ أن أشكر الكثيرين الذين ساعدوني خلال تلك المدة.

أشعر أنني مدينة بالفضل للمنظمات الآتية، وأمناء سجلاتها؛ إلى مكتبة ومتحف نهرو التذكاري Nehru Memorial Museum and Library والمركز القومي الهندي India International Centre وصندوق إنديرا غاندي التذكاري في دلهي Indira Gandhi Memorial Trust، وفي الله آباد متحف أناند بهافان Anand Bhawan وسواراج بهافان Swaraj Bhawan، وفي سانتينيكيتان سجلات جامعة فيسفا بهاراتي Visva-Bharati University، وفي لندن المكتبة البريطانية British Library ومكتبة فريندز هاوس Friends House Library ومكتبة لندن London Library ومكتبة جامعة الدراسات الشرقية والأفريقية School of Oriental and African Studies Library، وفي بريستول سجلات مدرسة بادمينتون badminton School، وسجلات كلية سمرفيل Somerville College في أكسفورد وسجلات جامعة أكسفورد Oxford University، وفي سويسرا مدرسة لابيلوز Institut La Pelouse (ببكس)، وسجلات مدينة ليسين Leysin، ومكتبة باينيكي Beinecke Library في جامعة ييل بالولايات المتحدة.

وإنني ممتنة لسونيا غاندي Sonia Gandhi لإدلائها بحديث معي والسماح لي بنشر المراسلات بين إنديرا نهرو غاندي وجواهرلال نهرو.

وقد قدمت الشخصيات التالية المساعدة لي وأدلت لي بمعلوماتها وآرائها وأبدت لي على الدوام الترحاب:

في الهند أشكر: ماني شانكار أيار Mani Shankar Aiyar، ويوشا بهاجات Usha Bhagat، والراحل نيخيل تشاكرافارتي Nikhil Chakra-vartty، ورينوكا تشاترجي Renuka Chatterjee، وإرا فاكيل شودهوري Ira Vakhil Chaudhuri، وروبيكا تشاولا Rupika Chawla، وبي إن تشوبرا P. N. Chopra، وسوزان كلافام Susan Clapham، وإيان كوبلاند Ian Copland، وراتو داستور Ratoo Dastoor في إن داتا V. N. Datta وبي إن هاكسار P. N. Haksar وجاجموهان Jagmohan والراحلة بوبول جاياكار Pupul Jayakar وسوبهادرا جوشي Subhadra Joshi وبروميلا كالهان Promilla Kalhan ومارتين كامبتشين Martin Kampchen وإندر كابورInder Kapur، وجي سي كابور J. C. Kapur. تي إن كاول T. N. Kaul. وأنسر كيداوي Anser Kidawi وجيرجا كومار Jirga Kumar ورافيندر كومار Ravinder Kumar وإندر مالهوترا Inder Malhotr وسانجانا مالهوترا Sanjana Malhotra وسورجيت مانسينج Surjit Mansingh ودكتور كيه بي ماثور K. P. Mathur، وبيتر ماير Peter Mayer وآر كيه ميهرا وتشاندراليكها ميهتا Chandralekha Mehta وهيرن مخيرجي Hiren Mukherjee وبي آر ناندا B. R. Nanda، وآرون نهرو Arun Nehru، وبي كيه نهرو B. K. Nehru وفوري نهرو Fori Nehru وفي واي نهرو V. Y. Nehru وياش بال Yash Pal وإتش واي شارادا براساد H. Y. Sharada Prasad وإن إتش راماتشاندران N. H. Ramachandran وسيدهارثا شانكار راي Siddhartha Shankar Ray وساوجاتا رويSaugata Roy ونايانترا ساهجال Nayantara Sahgal ودكتور فاتسالا سامانت Vatsala Samant وفاسانت ساث وجيتي سين Geeti Sen وأو بي شاه O. P. Shah، وجي بي شارما J. P. Sharma، وكيه ناتوار سينج K. Nat-war Singh وكاران سينج Karan Singh وفي بي سينج V. P. Singh وتاراكيشواري سينها Tarakeshwari Sinha وآر إن أوبادهياي R. N. Upadhyay ومادهو تاندان Madhu Tandan وبي دي تاندون P. D.

Tandon وأليس ثورنر Alice Thorner وأوما فاسوديف Uma Vasudev ودوجلاس فيرني Douglas Verney ودارما فيرا Dharma Vira وإن إن فوهرا N. N. Vohra وجيهانارا واسي Jehanara Wai ومحمد يونس Mohammed Yunus. أما في خارج الهند فأوجه الشكر إلى بولين آدامز Pauline Adams وموريس أندريه Maurice Andre وسيمون بيلي Simon Bailey وسيتا بالي Sita Bali وآن بيلمان Anne Bielman وروبرت برادنوك Robert Bradnock ومايكل بريتشر Michael Brecher والراحل آلان كامبل جونسون وماري سي كاراس Mary C. Carass وويليام دالريمبل William Dalrymple وآني كاثلين ديفيس Annie Kathleen Davies وبيرتيل فالك Bertil Falk وتريفور فيشلوك Trevor Fishlock ومايكل فوت Michael Foot وفرانسين فرانكل Francine Frankel وباتريك فرينش Patrick French وجون كينيث جالبريث John Kenneth Galbraith وفريدي جربر Freddy Gerber وتيري جيل Terry Gill وجون جريج John Grigg ونورفين هاين Norvin Hein وريتشارد هوبداي Richard Hobday والسيدة باميلا هيكس Lady Pamela Hicks وميرفن جونز Mervyn Jones وسوديبتا كافيراج Sudipta Kaviraji وجيمس مانور James Manor وفيد ميهتا Ved Mehta وجانيت مورجان Janet Morgan ودكتور جون مور جيلون John Moore-Gillon والراحلة دوروثي نورمان Dorothy Norman ولورد بول Lord Paul وآندرو روبينسون Andrew Robinson وسوزان روليير تشابوي Suzanne Rollier-Chapius وراهبات دير سانت موريس في مدرسة لابيلوز وبالأخص الأخت جاكلين Jacqueline والأخت هيلدجارد Hildegarde وجان سكارو Jan Scarrow وماري طومسون Marry Thompson والراحلة آن وايتمان Anee Whiteman وجيفري وارد Geoffrey Ward.

وأقدم امتناني لمجلس الفنون Arts Council على مساعدتي بجائزة سخية ولمؤسسة نوفيلد Nuffield على تقديمها منحة لي.

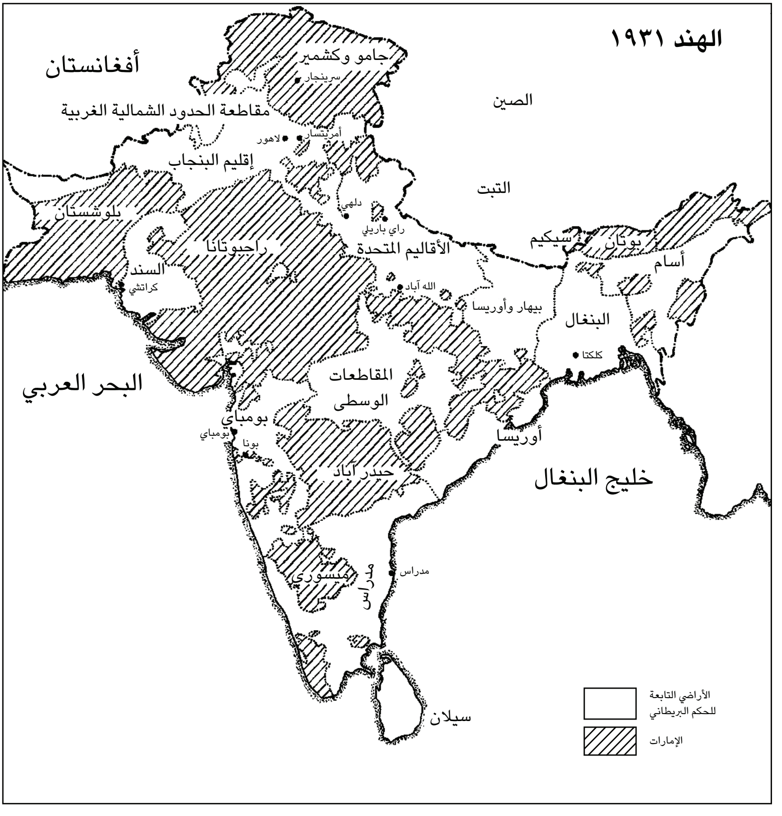
وأشكر كاثرين بارون Catherine Byron صديقتي وأول من ألجأ إليه من المحررين، التي قرأت مخطوط الكتاب في مختلف مراحله، ومايكل ديفيد أنتوني Michael David Anthony الذي قرأه لدى إتمامه وكلاهما

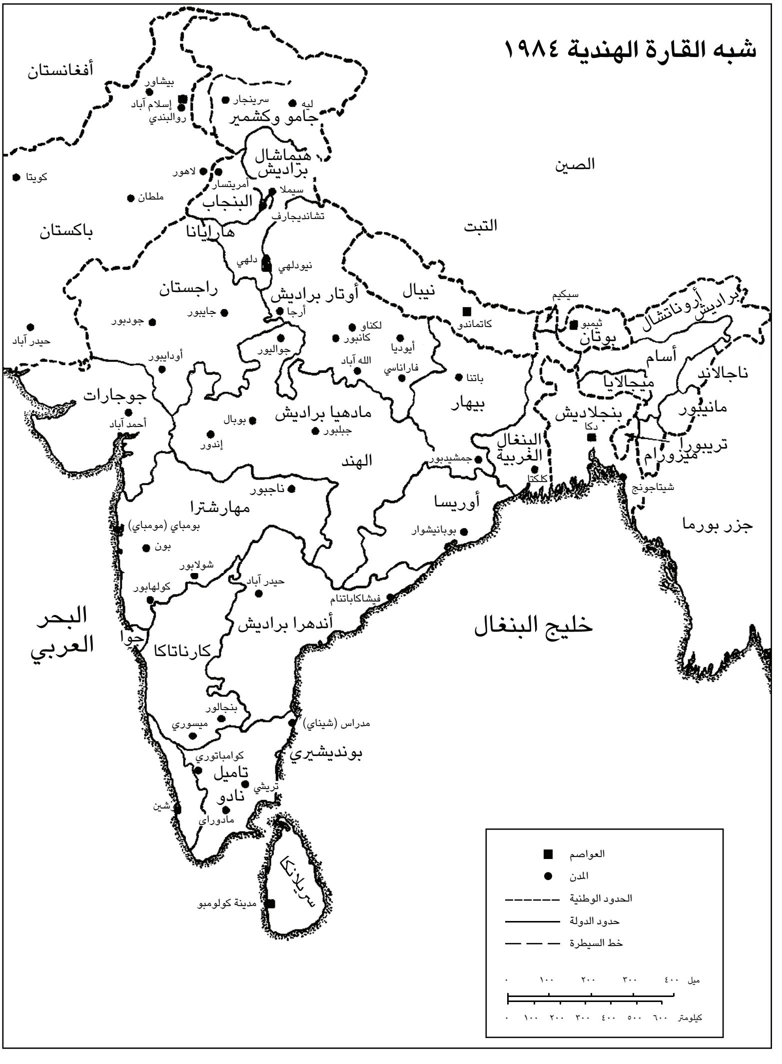
ساهم بالنقد البناء. وأشعر بالامتنان بوجه خاص لمارك تولي Mark Tully الذي شهد وغطى بنفسه الكثير من أحداث هذا الكتاب، وأدين له بالفضل على قراءته لمخطوط الكتاب بعناية شديدة وإدلائه بنقد مفصل ودقيق عنه، ولصانيل خيلناني Sunil Khilnani الذي أفادني بقراءته للكتاب وكان بمنزلة حجة في مادته، وأشكر أليكساندر إيفانز Alexander Ivans لأنه حرص على دقة الوقائع المتعلقة بكشمير. وأشعر أيضًا بالامتنان الشديد لكيت جونسون Kate Johnson من دار نشر هاربر كولينز HarperCollins على مراجعتها الملهمة للكتاب بلا كلل، وأنا وحدي بالطبع من يتحمل المسئولية عن شخصية إنديرا غاندي كما تظهر في هذا الكتاب وعن أي أخطاء.

وأوجه جزيل الشكر إلى بروس هانتر Bruce Hunter وجينجر باربر Ginger Barber أفضل وكيلي أعمال، وإلى مايكل فيشويك Michael Fishweak من دار نشر هاربر كولينز؛ أفضل ناشر حظيت به، وأشكر كارولين هوتبلاك Caroline Hotblack في دار نشر هاربر كولينز ومحررة كتابي الأمريكية جانيت سيلفر Janet Silver وزميلتها ويندي هولت في دار نشر هوتون ميفلين Haughton Mifflin.

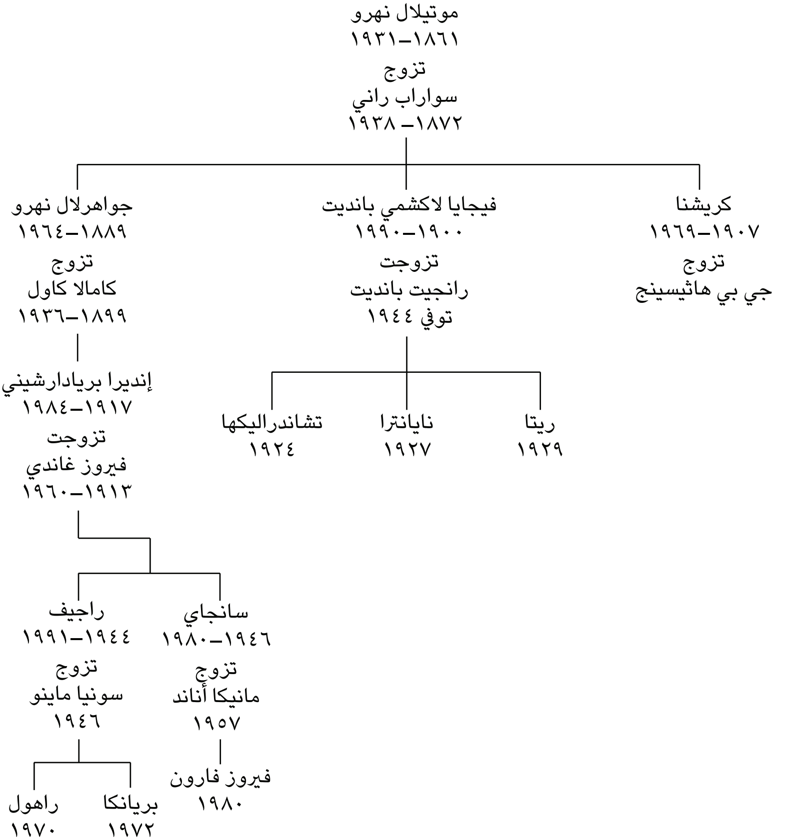
ولهؤلاء الذين شملوني بالحب والدعم المستمر؛ أصدقائي المقربين — كاثرين بايرون (من جديد) وبولين إلكيز ولورا كالبكيان — وأفراد عائلتي الرائعين إيزابيل فوس Isabel Voss وآرثر فوس Arthur Voss وآرت فوس Art Voss ونانسي وايت Nancy White ومارجريت فوس-بيرس Margret Voss-Pierce وجاستين فرانك Justin Frank وفيكي فرانك Vicky Frank.

وأخيرًا أدين بالشكر — بأكثر من طريقة يعجز اللسان أن يوفيها حقها — لزوجي ستيفن رايلي Stephen Riley الذي توفي قبل إتمام هذا الكتاب وقبل أن يشهد حصاد عمله، لكن الكتاب لم يكن إلا من أجله، وأنا أهديه إلى ذكراه مع حبي إلى الأبد.


الهند ١٩٣١
أفغانستان
جامو وكشمير
سرينجار
الصين
مقاطعة الحدود الشمالية الغربية
أمريتسار
لاهور
إقليم البنجاب
التبت
دلهي
بلوشستان
راي باريلي
سيكيم
بوتان
راجبوتانا
الأقاليم المتحدة
أسام
السند
الله آباد
كراتشي
بيهار وأوريسا
البنغال
كلكتا
المقاطعات
الوسطى
البحر العربي
بومباي
بومباي
أوريسا
بونا
حيدر آباد
خليج البنغال
مدراس
ميسوري
مدراس
سيلان
الأراضي التابعة للحكم البريطاني
الإمارات


شبه القارة الهندية ١٩٨٤
أفغانستان
بيشاور
إسلام آباد
روالبندي
سرينجار
ليه
جامو وكشمير
هيماشال براديش
لاهور
أمريتسار
البنجاب
سيملا
كويتا
ملطان
تشانديجارف
باكستان
هارايانا
الصين
التبت
دلهي
نيودلهي
راجستان
أوتار براديش
نيبال
أرجا
جايبور
جودبور
حيدر آباد
لكناو
كانبور
أيوديا
كاتماندو
سيكيم
ثيمبو
بوتان
أروناتشال براديش
جواليور
أودايبور
الله آباد
فاراناسي
أسام
ناجالاند
باتنا
ميجالايا
جوجارات
بيهار
بنجلاديش
مانيبور
أحمد آباد
بوبال
مادهيا براديش
إندور
جبلبور
دكا
تريبورا
ميزورام
البنغال الغربية
الهند
جمشيدبور
كلكتا
شيتاجونج
ناجبور
مهارشترا
أوريسا
جزر بورما
بومباي (مومباي)
بوبانيشوار
بون
شولابور
حيدر آباد
كولهابور
فيشاكاباتنام
البحر العربي
أندهرا براديش
خليج البنغال
جوا
كارناتاكا
بنجالور
ميسوري
مدراس (شيناي)
كوامباتوري
بونديشيري
تاميل نادو
تريشي
كوشين
مادوراي
سريلانكا
مدينة كولومبو
العواصم
المدن
الحدود الوطنية
حدود الدولة
خط السيطرة
ميل ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠
كيلومتر ٦٠٠ ٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠

شجرة عائلة إنديرا



الجزء الأول

إنديرا نهرو

«الوطن هو المكان الذي ننطلق منه
وكلما كبرنا صار العالم أغرب
والنماذج أعقد ...
إنني أرى في نهايتي بدايتي.»

تي إس إليوت، قصيدة إيست كوكر
الرباعيات الأربع

الفصل الأول

الخروج من كشمير

ترتبط سريناجار — عاصمة ولاية جامو وكشمير — مع دلهي برحلات جوية يومية تستغرق الواحدة منها تسعين دقيقة، ومع ذلك فإن الخطاب الذي أرسلته لفاروق عبد الله رئيس الوزراء الكشميري لم يصل إليه إلا بعد ستة أسابيع من إرساله، ووفقًا للتاريخ المدون على الرد الذي كتبه «القائم بأعمال مساعد رئيس الوزراء» فإن خطاب رئيس الوزراء استغرق خمسة أسابيع أخرى ليصلني في دلهي. ترى هل كل هذا التأخير بسبب ترك هذين الخطابين في مكتب أحد الموظفين الرسميين، أم أنهما استقرا في إحدى حقائب البريد المنسية، أم ضاعا في مكتب البريد الذي يعج بالنشاط؟ ولم يكن الذهاب إلى كشمير بالأمر الهين، ومع ذلك فقد حمل رد رئيس الوزراء أخبارًا سعيدة؛ فقد عبر فاروق عبد الله عن سعادته بالحديث معي عن رئيسة الوزراء الراحلة إنديرا غاندي، وكان الاتفاق على المقابلة في دلهي أو في سريناجار حسبما يتأتى لي.

لا تعد سريناجار اليوم مكانًا سهل الزيارة مثلها مثل باقي كشمير، وكشمير كانت يومًا ما ساحة مرح جميلة أثناء الحكم البريطاني للهند، ثم أصبحت فيما بعد منتجعًا سياحيًّا للسياح والمرتحلين من الهنود والأوربيين والأمريكيين والأستراليين، لكنها تحولت الآن إلى ساحة حرب؛ فهي أرض تتنازع عليها دولتان كانتا يومًا ما دولة واحدة ثم أصبحتا عدوين لدودين، وهما الهند وباكستان. ومن يزور كشمير هذه الأيام من الكُتاب ليسوا من كتاب السير، بل هم صحفيون يغطون الأخبار الخاصة بالنزاع الداخلي الذي يتأجج ويخبو منذ أمد طويل عامًا بعد آخر.

وبعد عقود ظلت فيها كشمير مكانًا مغمورًا أصبحت أخبارها تتصدر صفحات الصحف العالمية في الوقت الراهن، فمنذ عدة أعوام اختطف الانفصاليون الكشميريون مجموعة من متسلقي الجبال الغربيين أثناء رحلتهم في جبال الهيمالايا وقتلوهم، وفي ربيع ١٩٩٨ أجرت الهند وباكستان تجارب نووية، جاعلين من كشمير أقوى نقطة محتملة للمحرقة النووية القادمة، وبعد مرور عام على هذه التجارب النووية نشبت معارك حدودية بين جيشي البلدين قرب منطقة كارجيل، وفي ربيع عام ٢٠٠٠ — عندما زار الرئيس الأمريكي بل كلينتون شبه القارة الهندية — وقعت مذبحة في إحدى قرى السيخ — يُزعم أن القوات الحكومية الهندية هي التي نفذتها — للتأكيد على حقيقة أن الحرب لا تزال مستعرة.[1]

أما عن فنادق سريناجار فمعظمها اليوم مغلق ومهجور، في حين أن الفنادق الباقية التي لا تزال تعمل سنجد أنها ليست سوى مأوى لقوات الأمن، فنجد أحبال الغسيل في حدائقها وعليها صفوف الملابس العسكرية كاكية اللون، ويجوب الجنود شوارع المدينة بأحذيتهم السوداء الطويلة وخوذاتهم وملابسهم الواقية من الرصاص، ومعظم السيارات في الشوارع شاحنات وسيارات جيب عسكرية. وولى عصر الباعة الجائلين ومنظفي الأذن والحلاقين الذين كانوا يمارسون عملهم على أرصفة شوارعها، شكل من أشكال الحياة الطبيعية يُوجد هنا، لكن الجو في المحلات والأسواق غالبًا ما يكون متوترًا، والوجوه عابسة ومكتئبة.

تقع بحيرة دال في قلب سريناجار، وهي بحيرة يغطي سطحها لون أخضر، ومليئة بالمواد الملوثة، ومن وقت لآخر ينبعث من البحيرة غاز الميثان مما ينشر بالهواء رائحة نتنة، ولا يُرى هنا طائر الرفراف يحلق بطريقته المعتادة التي ينفض بها من أعلى لأسفل ليصيد السمك في البحيرة، لأنه لا توجد أسماك تستطيع العيش فيها، وعندما عينت إنديرا غاندي ابن عمها بريج كومار نهرو حاكمًا لكشمير عام ١٩٨٢ — في الوقت الذي كان من الممكن فيه منع نشوب النزاع الحالي — استقبلته بنفسها لتطلعه على أحوال الولاية، وفي ذلك اللقاء لم تنبس إنديرا ببنت شفة تتعلق بالوضع السياسي المتفجر في الولاية، بل تحدثت معه عن الحاجة الملحة لتنظيف بحيرة دال

قبل فوات الأوان،[2] غير أن ما حدث بعد قرابة عشرين عامًا من هذا الحوار هو أننا لا نجد بالبحيرة سوى بعض العوامات التي عفا عليها الزمن وهي تهتز على سطحها الراكد هنا وهناك.

وكشمير اليوم ليست كشمير التي عرفتها إنديرا غاندي، فهي اليوم تُمثل جرح الهند القذر والملوث — الهند الممزقة — الذي أنتجه الانقسام، ولم تستطع الأيادي مداواته ولم تستطع الأيام محو ما به من تلوث؛ فعام ١٩٤٧ — عندما نالت الهند استقلالها، وانقسمت الهند البريطانية إلى الدولتين المستقلتين الهند وباكستان — انضمت كشمير، الولاية الوحيدة في الهند التي غالبية سكانها من المسلمين، إلى الهند العلمانية وليس إلى باكستان الإسلامية، كان هذا قرار المهراجا الهندوسي — الذي كان يحكم كشمير وقتئذ — لسكان ولايته الذين كان معظمهم من المسلمين، لكن هذا القرار نُفِّذ بالإجبار، ولم يحظ بقَبول أحد.

منذ عام ١٩٤٧ وحتى يومنا هذا وقعت ثلاثة حروب شاملة بين الهند وباكستان بسبب كشمير، هذه البقعة من الأرض التي ليست لها أهمية مادية أو اقتصادية كبيرة لكلتا الدولتين،[3] ولكنها تُمثل أهمية فائقة فيما يتعلق بمفاهيم كل دولة عن شبه القارة الهندية، تلك المفاهيم المتضاربة في المصالح التي لا تقبل الحلول الوسط. إن النزاع الدامي المرير حول كشمير سببه الرمز الذي تمثله لكل من الدولتين؛ فهي تمثل للهنود مثالًا نموذجيًّا للديمقراطية العلمانية، وفي الوقت نفسه تمثل للباكستانيين مكانًا شرعيًّا لإقامة وطن للمسلمين على أرضها. والتجارب النووية والمناوشات الدامية على مرتفعات كارجيل ومذابح القرى والقنابل والاغتيالات في سريناجار، كل ما سبق لم يكن سوى أحدث فصول القصة التي يعود تاريخها لأكثر من نصف قرن.

وقصتي — حياة إنديرا غاندي — تعود لما هو أبعد من ذلك، فهي تبدأ في مكان ناء في جبال الهيمالايا حيث القمم المغطاة بالثلوج، والمروج التي تكسوها الزهور البرية الجبلية، والأنهار المتدفقة التي تصب في بحيرات بيضاوية الشكل كقطرات الماء، والوديان التي تحجب عنها ضوء الشمس غابات التنوب والصنوبر وأشجار التشينار العملاقة التي تكسوها الأزهار الحمراء النارية كل خريف إلى أن تأتي الثلوج وتختفي الألوان من المكان.

وكشمير — التي تمتعت بالجمال والسمو — كانت حجر الأساس لحياة إنديرا غاندي، وهي أيضًا المكان الذي تمسكت به تمسكًا شديدًا، وحاولت مرارًا وتكرارًا أن تستعيده طوال عمرها المديد، كانت كشمير الأرض التي أطعمتها عند جوعها، وواستها عند كربها، وقد كتب والدها جواهرلال نهرو في الصفحة الأولى من سيرته الذاتية هذه العبارة «لقد كنا كشميريين»، وآمنت إنديرا بهذه المقولة وحولتها للزمن المضارع حينما قالت: «أنا كشميرية.» وظلت كشمير هي الملاذ الذي تلجأ إليه إنديرا والمكان الذي يهفو إليه قلبها طوال حياتها غير المستقرة والمضطربة التي لم تحظ فيها بحياة عائلية مستقرة، ولم تمتلك فيها أي منزل خاص بها.

وقصة إنديرا غاندي تبدأ وتنتهي في كشمير …

تبدأ صفحات هذه السيرة في كشمير، ولكنها ما تلبث أن تغادرها على الفور، فنجد أن سيرة إنديرا غاندي، مثلها مثل باقي السير، لا تبدأ فجأة عند لحظة الميلاد، بل تبدأ عند النقطة التي يراها كاتب السيرة نقطة حاسمة قبل لحظة الميلاد بكثير، وهذه النقطة — التي حدثت منذ مائتي عام قبل أن تولد إنديرا في نوفمبر عام ١٩١٧ — هي لحظة النفي، التي تُمثل الخروج من الجنة أو الطرد منها، وجاء في أول فصل من سيرة نهرو، الذي حمل اسم «الخروج من كشمير» ما يأتي: «منذ أكثر من مائتي عام نزل أجدادنا من ذلك الوادي الجبلي سعيًا وراء الشهرة والثروة في … السهول الموجودة بالأسفل.»[4] فمن موطنهم النبيل السامي في الهيمالايا نُفي أجداد إنديرا غاندي إلى السهول الحارة القاحلة الموجودة في شمال الهند ووسطها.

تحديدًا ذلك الجد الذي يُشير إليه نهرو هو عالم هندوسي — وأحد أعضاء صفوة الطبقة البرهمية في كشمير — يدعى راج كول، كان هذا الرجل عالمًا في اللغتين السنسكريتية والفارسية، ورحل عن كشمير نحو عام ١٧١٦ متوجهًا إلى دلهي، وهناك أصبح عضوًا في بلاط الإمبراطور المغولي «فرخ سير» الذي منح راج كول منزلًا يطل على نهر في المدينة، وباتت أسماء أحفاد راج كول تنتهي بكول نهرو (ويستعمل اللفظ العربي «النهر» في اللغة الهندية بنفس المعنى)، وبمرور الوقت سقط لفظ كول (وهم اسم

العائلة الحقيقي) وأصبحت أسماؤهم تنتهي اختصارًا باسم نهرو فحسب (ومعناه صاحب النهر).

منذ البداية تحالفت عائلة نهرو مع القوة؛ في أول الأمر كانت هذه القوة ممثلة في إمبراطور المغول، وعندما انهارت إمبراطوريته أصبحت هذه القوة ممثلة في البريطانيين، وقد كان رجل من ذرية راج كول، واسمه لاكشمي ناريان، بين أوائل المحامين الهنود لشركة الهند الشرقية في دلهي، وعمل ابنه، جانجا دار، ضابط شرطة في المدينة عندما وقعت ثورة الهند عام ١٨٥٧، وفي خضم ثورة ١٨٥٧ هرب جانجا مع عائلته إلى أجرا، ومات بعد ذلك بأربعة أعوام، وبعد موته بثلاثة أشهر وضعت زوجته طفلًا أطلق عليه اسم موتيلال.

تربى موتيلال — جد إنديرا غاندي — في كنف أخيه الأكبر نandلال، وتدرب موتيلال مثل أخيه الأكبر على العمل محاميًا، وشأنه شأن أخيه الأكبر أيضًا تزوج موتيلال وهو لا يزال في سن المراهقة وأنجب طفلًا، لكن زوجته وطفله ماتا أثناء الولادة وهو لم يتم العشرين من العمر بعد. وبحلول عام ١٨٨٧، العام الذي تُوفي فيه نandلال وانتقلت مسئولية الأسرة إلى موتيلال لأنه الابن الأكبر، كان موتيلال قد تزوج مرة ثانية من امرأة جميلة صغيرة السن، من أصل كشميري هي الأخرى، تدعى سواروب راني، انتقل الزوجان الصغيران إلى مدينة الله آباد في الأقاليم المتحدة (كما أطلق عليها فيما بعد) التي تبعد نحو ٥٠٠ ميل من دلهي حيث واصل موتيلال عمله محاميًا، وسرعان ما أصبحت له حياته المهنية المرموقة.

منذ قرون مضت كانت مدينة الله آباد تُعرف باسم مدينة «براياج القديمة»، وبراياج هي مدينة وصفت في ملحمة رامايانا ولا تزال مقصدًا يحج إليه الهندوس؛ حيث إنها منطقة التقاء الأنهار الثلاثة المقدسة في الهند، وهم الجانج ويامونا ونهر ساراسواتي المفقود الذي يجري تحت الأرض، ومدينة الله آباد اليوم ليست سوى مدينة إقليمية شديدة الهدوء يغطي أجواءها الغبار، لكنها كانت في نهاية القرن التاسع عشر مقرًّا للمحكمة العليا، ومركزًا لواحدة من أكثر الجامعات تميزًا في الهند.

حقق موتيلال نهرو نجاحًا على المستوى المهني والشخصي في مدينة الله آباد، ولكونه محاميًا ناجحًا يتمتع بالذكاء سرعان ما أصبح واحدًا من

أكثر المواطنين ثراء وأبرزهم في المكانة الاجتماعية في المدينة، وابتسم الحظ له عندما وُلد ابنه جواهرلال — والد إنديرا غاندي — في ١٤ نوفمبر عام ١٨٨٩، وفي أول جمله في سيرته الذاتية، قال نهرو (أو بالأحرى أعطى تصريحًا أقل مما يقتضيه الواقع) بطريقة أشبه ما تكون بطريقة الساحر الأمريكي الشهير ديفيد كوبرفيلد: «إن طفلًا وحيدًا لأبوين ثريين لجدير به أن يكون طفلًا مدللًا، خاصة في الهند.»[5] ولعلها من مفارقات الحياة — أو ربما من مفارقات القدر العادلة — أن ينمو هذا الطفل المدلل غير مكترث بالثروة المادية أو مهتم بها مع أن أباه رجل فاحش الثراء.

لكن التقشف الذي ميز نهرو كان بطيئًا في تطوره، الأمر الذي لا يدعو للدهشة إذا ما نظرنا إلى البيئة التي تربى فيها. وعام ١٩٠٠ انتقل موتيلال بعائلته إلى منزل ضخم يحوي اثنين وأربعين حجرة في ١ تشرش رود في القسم المخصص لسكن المدنيين الإنجليز في مدينة الله آباد، أطلق موتيلال على قصره اسم آنند بهافانذ، التي تعني باللغة الهندية «بيت السعادة»، كان هذا المنزل قصرًا ريفيًّا بُني على الطابع الإنجليزي؛ إذ أحيط بحدائق واسعة، وبستان من أشجار الفاكهة، وملعب تنس، وحلقة لركوب الخيل بالإضافة إلى وجود حمام سباحة بداخله، وفور الانتقال إلى هذا القصر رتب موتيلال لأن يضاء القصر بالكهرباء، وأن تجري المياه في صنابير بداخل القصر، ولم يكن لمدينة الله آباد عهد بهذا الضوء أو هذه الصنابير من قبل. وبعد رحلة قام بها إلى أوروبا عام ١٩٠٤ استورد سيارة من هناك — كانت هي الأولى أيضًا من نوعها في مدينة الله آباد — ومن المحتمل جدًّا أن تكون هي العربة الأولى في الأقاليم المتحدة الهندية بأكملها، وبالتأكيد كانت هي الوحيدة التي يقودها سائق إنجليزي.

حينما ذهب جواهرلال للدراسة في مدرسة حكومية بضاحية هارو بإنجلترا عام ١٩٠٥ كانت له أخت صغيرة تدعى ساروب كوماري ولدت عام ١٩٠٠، وولدت أخت أخرى له تدعى كريشنا عام ١٩٠٧، (ولد ابن آخر لموتيلال عام ١٩٠٥، لكن حياته لم تدم سوى شهر واحد.) حظي كل أطفال نهرو بتربية متميزة ذات طابع بريطاني؛ تعلم جواهرلال على يد معلم أيرلندي شاب يدعى فيرديناند بروكس، أما الشقيقتان فكانت

لهما مربية إنجليزية تدعى ليليان هوبر وقد أطلقت ثلاثة أسماء تدليل إنجليزية على أولاد نهرو الثلاثة، في حالة الفتاتين عاش اسماهما معهما طوال حياتهما، كان اسم تدليل جواهرلال «جو»، واسم ساروب كوماري «نان»، أما اسم تدليل كريشنا فهو «بيتي.»

لم يكن قصر آناند بهافان مجرد تقليد محكم للقصور الريفية الإنجليزية على الرغم من ارتداء الخدم به بزات رسمية، واحتواء مائدة الطعام على أطباق من بورسلين السيفر الفرنسي وأكواب من الكريستال وأدوات مائدة من الفضة، ووجود بيانو ضخم في حجرة المعيشة ومكتبة كبيرة بها كتب مغلفة بالجلد؛ في حقيقة الأمر كان منزل عائلة نهرو مشتتًا بين الشرق والغرب، بين الهند وبريطانيا، كان موتيلال نهرو يرتدي البذل الثمينة التي تصممها المتاجر الشهيرة في شارع سافيل رو بلندن (غير أن ملابسه لم تكن تُرسل ثانية إلى أوروبا للغسيل كما كانت الشائعات تقول). ابتعد موتيلال عن الدين، وكان يشرب الويسكي الاسكتلندية ويأكل الطعام الغربي (بما في ذلك اللحم) الذي كان يعده طباخ مسيحي، ويصر على التحدث بالإنجليزية على مائدته، ووظف مدرسين بريطانيين ومربية أطفال بريطانية لتعليم أطفاله، وبعد مدرسة هارو ألحق ابنه بجامعة كمبردج.

لكن سواروب راني زوجة موتيلال كانت امرأة كشميرية تقليدية متمسكة بتعاليم الهندوسية، فمع سماحها لبناتها بارتداء المعاطف الفرنسية لم ترتد قط غير الساري الكشميري، وكانت تستحم في نهر الجانج، وتؤدي الصلوات الهندوسية الخاصة بطقوس «البوجا»، وتتبع نظامًا غذائيًّا نباتيًّا صارمًا، وأبقت على طباخها الكشميري، وتأكل بأصابعها وتجلس على الأرض، وتفهم الإنجليزية ولا تتحدثها، وكان الحديث يدور باللغة الهندية بين النسوة في قصر آناند بهافان.

وهكذا تعايش في آناند بهافان عالمان متوازيان غير أن أحدهما لم يطغ على الآخر، واتضح هذا بشدة في الترتيبات المعدة لقضاء الحاجة؛ كان البالغون في العائلة يستخدمون الحمامات المصممة على الطريقة الأوروبية فيقضون حاجتهم وهم جالسون على كرسي الحمام، في حين يقضي الأطفال والخدم حاجتهم على الطريقة الهندية وهم متخذون وضع القرفصاء حيث

الحمام فتحة بمستوى الأرض، وهاتان الطريقتان لقضاء الحاجة صحيتان لأقصى حد. كان بقصر آناند بهافان، مثله مثل أي منزل هندي، أفراد من طبقة «المنبوذين» — أو الهاريجان التي تعني أطفال الرب[6] — وهم المسئولون عن نظافة الحمامات الموجودة، غير أن إدخال المياه إلى القصر سمح بالتخلص من الفضلات في أنابيب الصرف.

في معظم الوقت كان العالمان المختلفان في آناند بهافان — الغربي والهندي — يقسمان سكان القصر فالعالم الغربي هو عالم الرجال والهندي هو عالم النساء، لكن الأمر لم يكن هكذا دائمًا، فمع التحذير الهندوسي ضد السفر للخارج (وعقوبة مخالفة هذا التحذير هي الإبعاد عن الطائفة)، صاحبت سواروب راني زوجها وأبناءها إلى بريطانيا وأوروبا عندما سافر جواهرلال إلى مدرسته لأول مرة عام ١٩٠٥، وموتيلال نهرو — مع طريقة تفكيره البريطانية وقيمه وعاداته وسلوكياته — تصرف بطريقة هندية تقليدية عندما تعلق الأمر باختياره لزوجة ابنه ومهنته.

لم يكن لجواهرلال نهرو رأي يُذكر في أي من القرارين، فمن الواضح أنه أطاع رغبات والده دونما اعتراض، وتحمل سبع سنين من النفي بعيدًا عن أسرته وعن الهند وهو يدرس في إنجلترا. وبعد ذلك عندما قرر موتيلال أن على ابنه أن يتبع خطاه في مهنته ويتعلم القانون درس جواهرلال المحاماة في لندن، ولم تكن السنون التي قضاها جواهرلال بالخارج تحمل بين طياتها الإنجازات العظيمة، فلم يكن من الطلبة البارزين سواء في المدرسة الحكومية أو في الجامعة، وقال عن ذلك في سيرته الذاتية «اجتزت امتحانات نقابة المحامين ... بلا مجد أو عار.» وفي لندن «انجذب على نحو مبهم للأفكار الاشتراكية وللجمعية الإنجليزية الفابية (التي سعى أعضاؤها إلى نشر مبادئ الاشتراكية بالوسائل السلمية)، وشغلته الحركات السياسية الموجودة آنذاك»، لكنه كان في معظم الوقت «مشتتًا» ويعيش «حياة رغد بلا هدف.» كانت هذه الفترة الطائشة من حياة نهرو التي سخّر فيها نفسه للمتع الحسية هي الوحيدة في حياة نهرو التي مارس فيها «عادات باهظة الثمن»، وفي حقيقة الأمر فإنه كثيرًا ما كان ينفق «المصروف الضخم» الذي كان موتيلال يعطيه إياه، ويبعث بالبرقيات إلى منزله يطلب المزيد من المال.[7]

عمل جواهرلال بالمحاماة دونما اعتراض، لكنه أظهر شيئًا أشبه بالمقاومة قبل أن يوافق على الزواج من المرأة التي اختارها له والده، فحينما عاد إلى الهند عام ١٩١٢ كانت إنجلترا قد غيرت من طبيعة جواهرلال؛ ففي كمبردج اختلط جواهرلال بمجموعة من الطلبة ممن يقرؤون ما يكتبه عالم النفس البريطاني هافلوك إليس والطبيب النفسي الألماني كرافت إيبنج، واعتبر هؤلاء الطلبة أنفسهم من «المثقفين، وكانوا يتحدثون عن الجنس والأخلاق»، إلا أن نهرو أضاف «ومع أحاديثنا الجريئة كان معظمنا يشعر بالخجل عندما يتعلق الحديث بالجنس.» ويقول جواهرلال عن معرفته الجنسية: «ظلت لسنوات طويلة بعد مغادرتي كمبردج حبيسة النظريات.»[8]

ولم يمنع هذا من أن يتأثر نهرو بهذه المعرفة النظرية وتلك الاتجاهات الغربية تجاه الحب الرومانسي والزواج الذي يتبعه، في البداية لم يعترض نهرو كثيرًا على العروس التي اختارها له والده فهو يؤمن بأن موتيلال هو من يجب أن يختار العروس له، كان الاختيار قد تم قبل عودة جواهرلال إلى الهند عام ١٩١٢؛ فقبل وقت وجيز من حصوله على رخصة العمل بالمحاماة في لندن تلقى جواهرلال خطابًا من والده يخبره فيه موتيلال أنه اختار زوجته المستقبلية وهي فتاة عمرها اثنا عشر عامًا تدعى كامالا كول، وصفها موتيلال في خطابه بأن «جمالها ليس أخاذًا [و] … تتمتع بصحة جيدة للغاية.» وهذه الفتاة تنتمي لأسرة كشميرية متحفظة كانت تعيش في دلهي، أبرم العقد بين الأسرتين، وتم الاتفاق على المهر، وأبلغ موتيلال ابنه، وما على جواهرلال إلا إعلان موافقته فحسب.

لم يكن الأمر يستدعي العجلة، ورد جواهرلال على خطاب والده بكلمات حملت قدرًا من الحيرة والتردد فكتب له: «إنني لا أستطيب، ومن الصعب أن أستطيب فكرة الزواج بفتاة لا أعرفها، وفي الوقت نفسه … [إذا] كنت مصممًا على خطبتي للفتاة التي ذكرتها فلن أعترض … سأنفذ قرارك.» أما مع والدته سواروب راني فكان أكثر صراحة، اعترف لها بأنه خائف من فكرة الزواج من «إنسانة لا يعرفها بالمرة»، وأخبر أمه أن «أي فتاة تختارينها أنت ووالدي ستكون جيدة في العديد من النواحي»، لكنه أعرب لأمه عن خوفه من «عجزه عن التفاهم مع العروس»، وبالإضافة إلى ذلك عبر

جواهرلال لوالدته عن عدم موافقته على نظام الزواج الهندي الذي يختار فيه الوالدان العروس لابنهما إذ قال لها: «في رأيي إذا لم تكن هناك درجة من درجات التفاهم المتبادل لا يجب للزواج أن يتم، فأنا أعتقد أنه من الظلم والقسوة أن تضيع الحياة فقط في إنجاب الأطفال.»[9]

وبعد عودة جواهرلال إلى الهند أمضى عدة سنوات حتى يتقبل فكرة الزواج بكامالا كول، وكانت الفتاة ذات الاثنتي عشرة عامًا من الصغر بحيث يستحيل زواجها عند عودته، ولم تكن فكرة الزواج وحدها هي ما أثارت البلبلة في حياة جواهرلال عندما انتقل عائدًا إلى مدينة الله آباد بعد سبع سنوات شكلت شخصيته بالخارج، وشرح هذه المسألة في سيرته الذاتية قائلًا: «لم تتفق العادات والأفكار التي نمت بداخلي خلال سبع سنوات قضيتها في إنجلترا مع الأمور التي وجدتها» عندما عدت إلى الوطن، وغلبه شعور بالضجر، ووصف هذا الشعور بقوله: «شعور بأن حياتي تخلو تمامًا من أي طعم.»[10] ومع ذلك سلك جواهرلال درب القانون، وتدريجيًّا حل اهتمامه بالحركة الوطنية للهند محل إحساسه بالضجر، ولا نعرف إذا كان نقاشه مع والديه حول زواجه قد استمر أم لا، لقد مضى الوقت وأصبح زواجه بكامالا مسألة لا مفر منها.

وعام ١٩١٥ عندما بلغت كامالا السادسة عشر من عمرها انتقلت للعيش في مدينة الله آباد للزواج من جواهرلال، ونتيجة للعيش في أسرة كشميرية تقليدية كانت كامالا تجهل الأساليب والعادات الأوروبية، وتولت السيدة هوبر، مربية طفلتي نهرو، مهمة تعليم كامالا طريقة استخدام أدوات المائدة وكيفية التحدث بالإنجليزية، ولم تكن مهمة التعليم سهلة. كانت كامالا فتاة جادة وقوية وسريعة الغضب، وذات جمال بارع وبشرة نضرة وشعر أسود وعينين بنيتين واسعتين مشعتين، لكن جمالها يخلو من الدفء أو الابتهاج، بل كانت خجولة ومنعزلة وعلى وجهها دائمًا نظرة الغزال الجريح.

ولم تكن كامالا فتاة سهلة الانقياد أو ضعيفة الشخصية كما كان يبدو عليها، لكن قبولها للخضوع لعملية تحويل إلى فتاة ستصبح عروسًا لجواهرلال كان لأنها لم تملك خيارًا آخر، لكن شخصيتها الداخلية ظلت

قوية كما هي، مع أن الأمر قد يستغرق من آخرين سنوات عديدة — بمن فيهم زوجها — ليكتشف كم هي قوية وعنيدة ومتمسكة بمبادئها، وموتيلال نهرو نفسه ظن أنه كسب فتاة عديمة الشخصية لتكون زوجة لابنه، وقد تعاملت زوجته وبناته والعديد من أعضاء المنزل الآخرين مع كامالا من هذا المنطلق.

وفي حقيقة الأمر، وكما سيشهد الزمن، أدى اختيار موتيلال دونما قصد لامرأة أبعد عما تكون عن الشخصية التافهة إلى أنها حققت مع زوجها زواجًا لا يزال نادر الوجود في أي ثقافة، زواج الأكفاء اللذين يشتركان في شدة الرغبة الجنسية، والاحترام المتبادل، والقيم والأحلام،[11] استغرق الأمر سنوات عديدة حتى يستطيع جواهرلال وكامالا نهرو تحقيق هذا، وإلى حد لم يستطع نهرو إدراك هذا إلا بعد موت كامالا، التي رفضت الزواج في نهاية حياتها لهدف ديني رأت أنه أسمى وأعز.

اختار عرافو العائلة ميعاد الزواج ليكون في ٨ فبراير عام ١٩١٦، وهو الموافق لعيد «فاسانت بانتشمي» وهو عيد يحتفل فيه الهنود بقدوم الربيع، وقبل أسابيع من حلول هذا التاريخ ظل الخياطون والخياطات ومصممو الجواهر في مدينة الله آباد يعملون في تحضير جهاز العروس، وتم هذا غالبًا تحت إشراف موتيلال الشخصي، وهطلت الهدايا من جميع أنحاء الهند على قصر آناند بهافان، وتقرر أن يقام حفل الزفاف في دلهي وحجز موتيلال قطارًا خاصًّا لنقل ٣٠٠ ضيف — من عائلة الزوج ومعارفه وأصدقائه — إلى دلهي، حيث أقيم سرادق ضخم، وأمام هذا السرادق وضعت لافتة مصنوعة من الورود مكتوب عليها «معسكر زفاف نهرو.»

تكشف إحدى الصور المتبقية حتى الآن لزواج كامالا وجواهرلال نهرو عن المحنة التي مر بها كل منهما يوم زواجيهما؛ فهما واقفان بحرص ومرتدان ملابس منمقة — جواهرلال يرتدي الشيرفاني المطرز (معطف رسمي طويل) وعمامة، وكامالا ترتدي ساري مطرزًا باللؤلؤ استغرق صنعه أشهرًا من العمل الجاد من فريق من الحائكين — لكن حالة العروسين وتعبيراتهما مناقضة لملابسهما المزخرفة وللمناسبة، كانت ذراعاهما متشابكتين — فقد صارا رغم كل شيء زوجًا وزوجة — لكنهما لا يقفان مقتربين والحزن بادٍ على

وجهيهما، يحدق جواهرلال في عدسة كاميرا التصوير بتردد، وتظهر هالات سوداء تحت عينيه، وكامالا تنظر بعيدًا ناحية اليسار، بعيدًا عن زوجها، وشبح ابتسامة يرتسم على شفتيها، ويملأ عينيها السوداوين الواسعتين شيء أقرب إلى الخوف.

ذهب الزوجان لقضاء شهر العسل في كشمير، بالضبط مثلما سيحدث بعد ستة وعشرين عامًا عندما ستذهب ابنتهما مع زوجها إلى كشمير، كانت هذه هي المرة الأولى لجواهرلال وكامالا التي يذهبان فيها إلى كشمير؛ أول مرأى لموطنيهما، لا نعرف ما فعلت هذه الزيارة إلى كشمير بكامالا، لكنها كانت لنهرو زيارة لا تُنسى بل نقطة مصيرية في حياته تقريبًا.

وفور وصولهما إلى سريناجار ترك جواهرلال عروسه عدة أسابيع لممارسة هواية تسلق الجبال مع أحد أبناء عمومته في مرتفعات ولاية لداخ، وهي منطقة نائية تقع في شرق كشمير، ولا يبدو أن أحدًا قد اعتبر هذا تصرفًا غريبًا من زوج يقضي شهر عسله، كانت هذه الرحلة في مرتفعات الهيمالايا كما سجل نهرو في سيرته الذاتية «أولى تجاربه مع الوديان الضيقة المنعزلة، الموجودة في أعلى عالمنا — هذا العالم المرتفع — والمؤدية إلى هضبة التبت.» حرك جمال العزلة شيئًا ما داخله، وقال عن ذلك: «زادت الوحدة؛ فلم يكن هناك أشجار أو نباتات تؤنس وحدتنا — لم يكن إلا الصخور العارية والثلوج والجليد، وفي بعض الأحيان بعض الزهور المبهجة كثيرًا — لكنني وجدت في نفسي شعورًا غريبًا من الرضا في هذه المشاهد من الطبيعة الموحشة المقفرة، فملأني الشعور بالنشاط والإثارة.»[12]

وفي مكان يدعى ماتيان قيل لهما إن كهفًا شهيرًا، وهو كهف آمارناث، يبعد ثمانية أميال فقط عنهما، عزما على المضي إلى هناك على الرغم من وجود «جبل ضخم» في طريقهما، انطلق الاثنان في الرابعة صباحًا بصحبة راع من المنطقة، مرشد لهما في الرحلة، ورجال يحملون حقائبهما، عبر الجميع سريعًا أنهارًا جليدية عديد، وكلما تسلقوا إلى أعلى أصبح التقاط الأنفاس أكثر مشقة، ثم توقفوا لربط الحبال الموصلة حول خصورهم، وبدأ عدد من حاملي الحقائب الثقيلة يبصقون الدماء من أفواههم. بدأت الثلوج

تتساقط وأصبحت الأنهار الجليدية «زلقة بصورة رهيبة»، كانت المجموعة كلها «منهكة، وكل خطوة» تحولت إلى عناء ومشقة، ومع ذلك واصلوا شق طريقهم.

بعد اثنتي عشرة ساعة من التسلق الشاق المتواصل وقبل وقت قصير من غروب الشمس وصلت المجموعة إلى حقل جليدي ضخم تُحيط به قمم مغطاة بالثلوج، مغمورة بأشعة الشمس الغاربة، بدت هذه وكأنها «تاج ملكي أو مسرح للآلهة.» لكن ما لبثت الثلوج والضباب أن هبطت على هذه القمم وحجبت هذه الرؤية المبهجة، ومن أجل الوصول إلى هدفهم، أي كهف آمارناث، كان عليهم عبور الحقل الجليدي، الذي كان وقتئذ غير واضح المعالم بسبب سوء حالة الجو، وصف نهرو الموقف بأنه «كان أمرًا خطيرًا وغير آمن، حيث توجد صدوع عميقة كثيرة والثلوج التي سقطت حديثًا تغطي مواقع خطيرة في الأغلب.»[13]

فجأة سقط جواهرلال في واحدة من هذه المواقع، داخل هوة شاسعة تغطيها طبقة رقيقة من الثلج أخفى ذلك «الشق الهائل»، لكن الحبل المربوط حول خصره الذي كان يربطه برفيقه منعه من السقوط في الهوة، تشبث نهرو بحافة الشق وجذبه الآخرون خارجها.

غير هذا الحادث الذي نجا فيه نهرو من الموت بشق الأنفس من مسار التاريخ الهندي ومن مسار حياة الكثيرين، بما في ذلك حياتي بعد أكثر من ثمانين عامًا.

وأيقظ في نهرو انبهارًا دائمًا واشتياقًا للمرتفعات الكشميرية، لقد أصبحت جبال الهيمالايا له رمزًا يعبر عن رغبته العارمة والحرية التي ينشدها، وتحدث نهرو في أثناء كتابته لسيرته الذاتية في السجن بعد عشرين عامًا من سقوطه في الهوة بشغف — لم تقلله السنون — عن هذا المنظر الطبيعي الذي لم تتح له الفرصة زيارته ثانية: «إني لأحلم بذلك اليوم الذي أتجول فيه في الهيمالايا وأعبرها لأصل إلى البحيرة والمرتفعات التي أتمنى.»[15]

قامت بعض الأمور السياسية والتاريخية المهمة بتحديد مصير جواهرلال نهرو وابنته إنديرا غاندي وتشكيلها، لقد «قيدتهما أغلال التاريخ»، وكان

الموت وحده هو القادر على فك هذا القيد، لم يهابا الموت، ولكنه أبدًا لم يكن بعيدًا عن أذهانهما؛ فقد رأياه في موت من يحبان وفي أحلامهما وفي أنفسهما، وهكذا كانت المرتفعات الكشميرية الشامخة لا تبالي بحياة البشر أو موتهم، ولا تتأثر بالأحزان الإنسانية، ومحصنة ضد الأفراح البشرية، إن جمالها وصمودها يفوق الأمور التي تشغل الإنسان في كفاحه وكدحه.

لا عجب إذن أن تشتاق إنديرا غاندي في كل سنين حياتها إلى كشمير، ولا عجب أن تتعطش لمرتفعاتها و«ثلوجها الصامدة.»[16]

الفصل الثاني

حدث بالفعل

في ٥ أكتوبر عام ١٩١٧ زارت آني بيسانت Annie Besant مدينة الله آباد زيارة المنتصر، وعندئذ كانت هذه المرأة الإنجليزية قوية البنية في السبعين من عمرها وقد خط الشيب شعرها، قد أطلق سراحها قبل أسبوعين من السجن السياسي، وعندما وصلت إلى محطة القطار كانت ترتدي ساري أبيض مطرزًا بالذهب، استقبلها حشد ضخم ضم زعماء وطنيين مثل موتيلال وجواهرلال نهرو ووبالا جنجادهار تيلاك والسيدة سروجيني نايدو. فكت الجموع خيول عربتها وجر العربة مجموعة من الشباب عبر الشوارع التي اصطف فيها المهللون والتي تزينت بالأعلام والرايات إلى جانب أقواس مصنوعة من الزهور، عندما وصل الموكب إلى قصر موتيلال نهرو الفخم، آناند بهافان، ألقت السيدة بيسانت — مؤسِسة رابطة الحكم الوطني الهندية، التي سرعان ما ستُنتخب رئيسة لحزب المؤتمر الهندي، وخطيبة مفوهة، وإحدى أتباع مذهب الثيوصوفية المشهورات عالميًّا — خطبة حماسية منادية باستقلال الهند. كانت كامالا نهرو ذات الثمانية عشر عامًا فحسب آنذاك، والحامل في شهرها الثامن، تقف في شرفة قصر آناند بهافان بجوار زوجها جواهرلال، وتستمع إلى تلك الخطبة الحماسية، لقد كانت ابنتهما التي على وشك المجيء إلى الدنيا تستمع إلى أول حدث سياسي في حياتها، تلك الطفلة التي ستكبر وتصبح رئيسة لحزب المؤتمر مقتفية أثر آني بيسانت وجدها ووالدها، فبعد ثمان وأربعين عامًا ستنتخب إنديرا غاندي ثالث رئيسة للوزراء للهند المستقلة، وسترتدي في ذلك اليوم ساري أبيض وقد خط شعرها الأسود خيط من الشيب أشبه ما يكون بجناح الطائر.

ولدت إنديرا بعد ستة أسابيع من زيارة السيدة بيسانت، في ليلة عاصفة في التاسع عشر من نوفمبر/تشرين الثاني، ولدت في حجرة تقع في الجانب الشمالي الشرقي من آناند بهافان حيث كانت هذه الحجرة هي المكان التقليدي الذي ولد فيه جميع من جاءوا للعائلة، كانت الطفلة تزن أربعة أرطال، وأعلى جسدها النحيل رأس يبدو على النقيض رأس شخص بالغ بشعره الأسود الكثيف وعينيه السوداوين الواسعتين وفمه الصغير وأنفه الكبير الحجم الذي سيحزنها طوال حياتها، وهناك في الشرفة خارج حجرة الولادة انتظر بفارغ الصبر طوال اليوم حشد من المترقبين من عمات وخالات وأبناء الأعمام والأصدقاء والأقارب والخدم بمن فيهم المربية التاميلية الجديدة.

عند الحادية عشر مساء تقريبًا خرجت سواروب راني نهرو، جدة المولودة، من الحجرة متجهة إلى الشرفة منادية زوجها الذي كان يشرب الويسكي الاسكتلندي الفاخر مع الرجال في المكتبة.

«لقد حدث بالفعل»، أعلنت سواروب راني الخبر عندما وصل زوجها، كرر موتيلال «أحقًّا حدث؟» وهو يعرف تمام المعرفة أن زوجته عمدت إلى عدم ذكر نوع الطفل حتى لا تقول إن المولود أنثى.[1]

غمرت موجة واضحة من الوجوم والإحباط الحشد المجتمع في الشرفة، وكما أوضحت إنديرا غاندي بدبلوماسية بعد عدة سنوات «مع أن عائلتي لم تكن تقليدية متزمتة حتى تعتبر مولد الأنثى عيبًا فإنها كانت تنظر إلى مولد طفل ذكر باعتباره ميزة وضرورة.»[2]

لا يبدو أن أحدًا يتذكر مكان جواهرلال ولا انطباعه عند مولد ابنته، لكنه كان تقريبًا الوحيد في قصر آناند بهافان تلك الليلة الذي لم يكن يقلقه بشدة نوع المولود، ففي سيرته الذاتية التي كتبها في السجن بعد ذلك اليوم بسبعة عشر عامًا أهمل جواهرلال ذكر أحداث تلك الليلة العاصفة من نوفمبر كما أغفل ذكر مشاعره الشخصية حولها، ما كان يهمه، كما أخبر ابنته فيما بعد في خطاب كتبه لها في عيد ميلادها الثالث عشر، أن «ذلك الشهر الذي وُلدت فيه» هو نفس الشهر الذي شهد ميلاد الثورة الروسية على بعد آلاف الأميال من الهند.[3] إنه لمن العجيب أن يُقدر نهرو، الرجل

البعيد عن الخرافة والعواطف المفرطة، هذه الصدفة التاريخية واحتفظ بها في مخيلته لابنته كبشارة خلال طفولتها. لقد كان العالم الذي شهد بدء تكوين إنديرا وميلادها، كما قال في خطاب آخر، عالمًا من «العواصف والمشكلات»؛ فهي طفلة ستكبر في غمار ثورة أخرى،[4] وشأنه شأن الكثيرين الذين كتبوا عن ابنته كان نهرو غالبًا ما يرى ابنته من خلال سحابة من الأساطير.

كانت ذكريات إنديرا الشخصية التي حدثت في حياتها الباكرة — والتي استرجعتها في كبرها — تتسم بكونها هي الأخرى أسطورية وسياسية من الطراز الأول، عام ١٩٢٠ عندما كانت في الثالثة من عمرها أطلق القوميون حركة عدم التعاون، كخطوة في سبيل نيل الهند الحكم الوطني، وتضمنت هذه الحركة مقاطعة المعاهد البريطانية، بما في ذلك المدارس والمحاكم، بالإضافة إلى رفض الانصياع إلى الأحكام واللوائح الخاصة بالحكومة الاستعمارية، وتجنب الجميع البضائع البريطانية والأجنبية واستعاضوا عنها بالمنتجات الهندية، خاصة القماش الهندي يدوي الصنع (الخادي)، وما بين ليلة وضحاها تحول قصر نهرو الفاخر كلية؛ فاختفت جميع الثريات الكريستالية، والخزف الصيني الفاخر، والأدوات الفضية الخالصة، والزجاج الفينيسي، والسجاد الثمين، والعربات، والخيول العربية، وارتدى أعضاء العائلة الملابس المصنوعة من قماش الخادي الخشن برغم احتجاجات سواروب راني وآخرين.

ومن هنا تشكلت أولى ذكريات إنديرا على هيئة نيران مضرمة تحرق الملابس الإنجليزية والملابس المستوردة في شرفة آناند بهافان، رأت إنديرا الخشب يُلقى على أكوام من الأثواب الملونة المصنوعة من الساتان والحرير والشيفون والبذل التي حيكت يدويًّا في متاجر شارع «سافيل رو» الشهير بلندن، شاهدت إنديرا النيران و«أول ألسنة لهبها»،[5] وتذكرت في صورة أكثر حيوية كيف كرهت عباءة فرنسية جلبتها إحدى الأقارب، التي أوضحت فيما بعد أن دمية إنديرا هي الأخرى منتج أجنبي، كانت إندو (كما كانت تُنادى دائمًا في العائلة) تنظر إلى دميتها على أنها أحد أقاربها وليست شيئًا يُمثل خيانة، و«لأيام تالية — أو لعلها أسابيع؟» ظلت إنديرا ممزقة بين «حب الدمية و… الواجب تجاه وطنها»، في نهاية الصراع أخذت إنديرا دميتها

بنفسها يومًا ما على سطح آناند بهافان وأحرقتها، وبعدها مرضت وارتفعت درجة حرارتها، وبعد أن كبرت اعترفت قائلة «إلى اليوم أكره إشعال عود ثقاب.»[6]

كانت النيران التي أضرمت في الملابس وأحرقت جسد الدمية هما أول حريقين في حياة قيست، مثلها مثل حياة الهندوسيين، بالحرائق التي تتلازم مع طقوس الحياة المختلفة؛ مثل الزواج، ومراسم تسمية الأطفال، والعبادة، وإحراق الجثث، التي تحمل بين طياتها جميعًا فكرة الميلاد أو تناسخ الأرواح، وفي الوقت الذي تذكرت فيه إنديرا غاندي ذكريات الطفولة تلك عام ١٩٨٠ كانت تعرف أن حياتها مليئة بالكثير من هذه المحطات المشتعلة، ولحظات العودة، فاختارت بذلك رمزًا للتدمير والبعث.

مع هذا، وبدلًا من هذه الصورة الأسطورية، كان هناك شعور بالندم فحسب على مولد أنثى في نوفمبر عام ١٩١٧، غير أن هذا الحزن لم يزعج الأبوين طويلًا؛ فكامالا نهرو لم تزل في الثامنة عشر من عمرها فقط، وزوجها في الثمانية والعشرين، ولم يمر على زواجهما إلا أقل من عامين، ولم يكن أحد يتوقع أن يكون هذا المولود هو طفلهما الوحيد، اختار موتيلال نهرو للطفلة اسم والدته إندراني الذي تغير ليصبح إنديرا الأكثر حداثة وملاءمة، وأضاف جواهرلال الاسم البوذي بري يادارشيني الذي يعني «محبب للنظر» ويعني أيضًا «الشخص الذي يُظهر الخير.» رسم أحد العلماء المتبحرين الخريطة التنجيمية للطفلة بلا نبوءات مأساوية أو ثورية، وأقيم حفل تسمية كبير ثم عادت الحياة الطبيعية في آناند بهافان إلى مجراها بعد فترة سادت فيها الإثارة.

لم يكن مولد طفلة أنثى كارثة في أسرة أرستقراطية ثرية مثل أسرة نهرو، بل كان له توابع بسيطة في نظر والديها فقط بالطبع، وكتبت عنها الشاعرة والزعيمة القومية سروجيني نايدو من مادراس قائلة «قبلاتي لروح الهند الجديدة»، ولكن هذا لم يكن سوى إشارة ضمنية لواحدة من قصائد السيدة نايدو الحديثة، وليست نبوءة.[7] شغفت بالطفلة والدتها كامالا وجدها موتيلال (الذي أحضر لها عربة أطفال إنجليزية)، ولكنها لم تكن بالنسبة لذلك المنزل الضخم الذي يصل عدد أفراده إلى المائة (بكل الخدم) فردًا

مهمًّا. في أعوامها الأولى كانت إنديرا صغيرة الحجم، غير متطفلة، لا تتسبب في مشكلات تذكر، ولا تجذب كثيرًا من الاهتمام، وفي إحدى المرات وبعد أن أصبحت إنديرا رئيسة للوزراء سألها ابن عمها بريج كومارنهرو — الذي نشأ في مدينة الله آباد وعاش في قصر آناند بهافان في عشرينيات القرن العشرين — أين كانت طوال تلك السنين؛ إذ لا تحوي مخيلته ذكريات عنها، أجابته: «كنت هناك، لكن أحدًا لم يكن يلاحظني.»[8] ومع ذلك فما إن تخطت إنديرا مرحلة الطفولة حتى صارت عنصرًا أساسيًّا لا يُستبعد من النشاط السياسي الذي استحوذ سريعًا على المنزل، كانت في قلب الأحداث، في البداية تحت الأقدام ثم في المشهد العام.

قبل مولد إنديرا بعام كان جواهرلال قد قابل مهنداس غاندي في اجتماع حزب المؤتمر القومي الهندي الذي عقد بمدينة لكناو عام ١٩١٦، الحزب الذي حقق الاستقلال من بريطانيا، كانت هذه المقابلة حاسمة إذ كان لغاندي تأثير فعلي وعميق على جواهرلال، فقد ركز غاندي على وطنية جواهرلال التي لم تتبلور بصورة كاملة، ووجه آراءه لتكون أكثر تطرفًا على نحو أقلق موتيلال الذي كان يفضل انتهاج سياسات أكثر تحفظًا، بشكل ما أصبح غاندي سريعًا يُمثل لجواهرلال صورة أبوية منافسة، ومن ثم رأى موتيلال أن غاندي يمثل له تهديدًا من الناحية الشخصية إضافة لكونه موضع شك من الناحية السياسية، وعندئذ فضل موتيلال تحدي الأسد في عرينه، ودعا غاندي إلى مدينة الله آباد لإجراء مناقشات معه. في مطلع مارس/آذار عام ١٩١٩ وصل غاندي، مرتديًا مئزره لين القماش، إلى آناند بهافان ونزل في الجزء الهندوسي الخاص بسواروب راني في المنزل، حيث يمكنه تناول وجباته النباتية على الأرض، واستخدام المراحيض هندية الطراز الخاصة بالخدم، كانت له مع موتيلال محادثات خاصة في المكتبة، وبعد عدة أيام نصح غاندي جواهرلال بالتخفيف من نشاطه السياسي احترامًا لوالده وعدم تحديه أو حتى الشجار معه في هذه المرحلة. من الواضح أن الطريق كان مسدودًا في النقاش مع موتيلال في مكتبته المصفوفة بالكتب، ولكن غاندي كان يرغب في انتظار التطورات، ومن ثم نصح تابعه الشاب بالصبر.

لم يكن على الاثنين الانتظار كثيرًا، ففي ١٨ مارس ١٩١٩، فقط بعد بضعة أيام من مغادرة غاندي لآناند بهافان، فرض البريطانيون «قانون رولات» الذي سمح بمد السلطة الممنوحة أثناء الحرب التي تشمل القبض على المشتبه فيهم واعتقالهم دون محاكمة، في تلك الليلة حلم غاندي بالمعنى الحرفي للكلمة (إذ جاءت له الفكرة في حلم) بخطة للاحتجاج على هذا القانون الظالم القمعي، عن طريق تنظيم إضراب عام على مستوى الدولة مصحوب بالصوم والصلوات الجماعية، وهكذا أطلقت الساتياجراها — التي تعني العصيان المدني أو المقاومة السلمية — في السادس من أبريل، وبعدها بأسبوع في الثالث عشر، في أمريتسار بمنطقة البنجاب، قوبلت مظاهرة سلمية داخل حديقة تدعى «جالينوالا باغ» المحاطة بالأسوار بمئات الرصاصات التي أطلقها جنود بريطانيون تحت إمرة الجنرال ريجينالد داير، وبمرور الوقت «أعيد النظام»، وقتل ٣٧٩ من الرجال والنساء والأطفال غير المسلحين الذين وقعوا ضحايا لهذه المكيدة.

عندما وصلت أخبار مذبحة أمريتسار — أكثر الأحداث المشينة في تاريخ الحكم البريطاني في الهند — إلى آناند بهافان أنجزت في لحظةٍ ما عجز عنه غاندي المتميز بقدرته على الفصاحة والإقناع في ساعات من النقاش؛ فقد انضم موتيلال نهرو إلى الساتياجراها، وكما قالت إنديرا نفسها فيما بعد «مثلت جاينوالا باغ نقطة تحول ... فقد تنحى التردد والشك ... وكان ذلك عندما اقتربت العائلة أكثر من المهاتما غاندي وتغير أسلوب حياتنا كلية.»[9]

ولم يكن هذا على مستوى العائلة جميعها، ففيما عدا كامالا كانت نساء آناند بهافان معاديات في البداية لغاندي وقاومن تأثيره؛ لم تفهم سواروب راني، على الأخص، كيف — أو لماذا — يمكن لهذا الرجل النحيل الذي يرتدي الدوتي (إزار هندي) وبنظامه الصحي والغذائي أن يتدخل في حياة أسرتها وينصحها فيما يخص الشئون الشخصية والسياسية، في حقيقة الأمر شعرت سواروب راني «غريزيًّا [بأن هذا الرجل] ... عدو لبيتها.»[10] أصبح وضع غاندي الآن في المنزل يتسم بالأهمية والتأثير البالغ؛ كانت إنديرا لا تتذكر إلا فيما ندر وقتًا لم يكن فيه «كبير العائلة الذي كنت أستأنس برأيه في الصعوبات والمشكلات.»[11] فلم يكن هناك موضوع أو

صعوبة كبيرة كانت أو صغيرة على «بابو»، كما كان آل نهرو يطلقون عليه، سواء كانت معضلات أخلاقية أو أهدافًا سياسية حتى مشكلات الهضم وهل على السيدات الصغار وضع أحمر الشفاه أم لا، كان غاندي يُسدي النصح في جميع المجالات، ومع أنه ليس ديكتاتوريًّا فكلمته كانت تحدد الأحداث لأعوام في عائلة نهرو بالإضافة إلى الحركة الوطنية.

لم تغفل الحكومة البريطانية وجهاز مخابراتها في الهند عن تقرب موتيلال وجواهرلال من غاندي وتورطهما في الساتياجراها، ففي مايو/أيار ١٩٢٠ اصطحب جواهرلال والدته وأختيه نان وبيتي وزوجته كامالا وابنته البالغة من العمر عامين ونصفًا إلى مدينة موسوري الشمالية حيث التلال والجو أكثر اعتدالًا، كان فصل الصيف في مدينة الله آباد شديد الحرارة، إذ تصل في المتوسط إلى ٤٠ درجة مئوية وأعلى، وكانت نساء أسرة نهرو يقضين الصيف دائمًا في التلال، غير أن الجديد في ذلك العام أن سواروب راني وكامالا لم تكونا بصحة جيدة، فقد كان من المعروف أن صحة سواروب راني «ضعيفة» في معظم فترات حياتها، ولم تتحسن صحة كامالا أبدًا عما كانت عليه وقت زواجها من جواهرلال عام ١٩١٦، فكانت الرسائل بين جواهرلال وموتيلال وكذلك بينهما وبين غاندي تحمل أسئلة عن أعراض مرضية تظهر على كامالا، يبدو معظمها في هذه السنين المبكرة أعراضًا جسدية ذات أصل نفسي، كانت كامالا تعاني صداعًا وإرهاقًا وفقدان الشهية والوزن وصعوبات في التنفس، و«نوبات قلبية» لم تكن في حقيقتها إلا خفقانًا سريعًا للقلب.

ولأنها شخص بسيط ومتحفظ بالإضافة إلى عدم تمكنها من التحدث بالإنجليزية بفصاحة كانت كامالا امرأة تحتقرها حماتها وأختا زوجها، خاصة ساروب أونان التي لم تكن تحاول إخفاء حب تملكها لأخيها وازدرائها لزوجته غير المتفرنجة، في حقيقة الأمر كانت النسوة في قصر آناند بهافان ممتلئات بالغيرة والعداوة والاستياء، وعانت كامالا بشدة لسنين في هذا الجو، وكان يمكن للمرض أن يحتجزها في غرفتها وينتشلها من هذه المعركة، وعلى نحو لا يدعو للدهشة لم تتحسن صحة كامالا عندما ذهبت إلى التلال بصحبة حماتها وأُختَيْ زوجها.

عندما وصل آل نهرو إلى موسوري في مايو/أيار ١٩٢٠ أخذوا جناحًا بفندق سافوي، وكان هناك وفد أفغاني أيضًا مقيم في الفندق جاء إلى موسوري من أجل التفاوض مع البريطانيين بعد الحرب الأفغانية القصيرة في السنة السابقة، فرأت الحكومة البريطانية هدفًا خبيثًا خلف هذه المصادفة وانتهت إلى أن جواهرلال نهرو قد أتى إلى التلال في سبيل التحالف مع الأفغان، وفي اليوم التالي لوصول آل نهرو استدعى المراقب المحلي للشرطة جواهرلال وطلب منه عدم الاتصال بالأفغان، في حقيقة الأمر لم تكن لدى نهرو أي نوايا للاتصال بالوفد الأفغاني، ولكنه رفض من حيث المبدأ الانصياع لمثل هذا الأمر.

في اليوم التالي صدر أمر إبعاد بحق جواهرلال مفاده أن عليه مغادرة المقاطعة خلال أربع وعشرين ساعة، لم يكن لدى جواهرلال خيار سوى العودة إلى مدينة الله آباد تاركًا والدته المريضة وزوجته وأختيه وحدهن في موسوري، ولم تكن هذه سوى واحدة من المرات العديدة التي اختفى فيها والد إنديرا وابتعد عنها أثناء طفولتها.

ثار موتيلال نهرو من قرار ترحيل ابنه وأقنع صديقه القديم سير هاركورت بتلر — حاكم الأقاليم المتحدة — بإلغاء هذا «الأمر الغبي»، عندما عاد جواهرلال إلى موسوري في صباح أحد الأيام الصافية في يونيو/حزيران كان أول ما رآه في ساحة سافوي هو أحد الوزراء الأفغان يمسك إنديرا بين ذراعيه، فقد علم الأفغان من الصحف عن أمر الإبعاد، وفي أثناء غياب جواهرلال كانوا يرسلون الزهور والفواكه إلى سواروب راني وكامالا كل يوم، وكانوا يصطحبون إنديرا للعب في الخارج كل صباح.[12]

في سبتمبر/أيلول ١٩٢٠ بعد وقت قصير من عودتهم من موسوري سافرت إنديرا، التي لم تتم الثالثة بعد، مع والديها وجدها إلى أول اجتماع لحزب المؤتمر الهندي، وهي دورة خاصة أقيمت في كالكتا، لا تتذكر إنديرا ما حدث في هذا الحدث التاريخي فيما تلا من سنين، ولكنها شعرت أن حضورها وقت إطلاق غاندي حركة المقاطعة وتزعمه خلال عام حركة سواراج — الحكم الذاتي في الهند — كان ذا أهمية كبيرة.

عند عودتهم إلى الله آباد كانت النار في آناند بهافان قد اشتعلت ولا سبيل لعودة الأمور إلى ما كانت عليه ثانية، فتخلى موتيلال عن مقعده في

مجلس الإقليم، وترك مهنة المحاماة التي كانت تدر عليه الربح (مع أنه استمر في ممارستها على نحو متقطع عندما كان يحتاج إلى المال)، وأخرج ابنته الصغرى بيتي من المدرسة، وتخلص من الخيول والعربات، وباع كل سياراته فيما عدا واحدة فقط، وغير أسلوب الطهي في آناند بهافان من الطريقة الأوروبية إلى الطريقة الهندية، وأغلق قبو الخمر، وقلص عدد خدمه وبدل ملابس الباقين منهم من الزي ذي اللونين الذهبي والنبيتي إلى الخادي (الذي أطلق عليه جواهرلال فيما بعد «رداء الحرية»)، أما إنديرا فكان هذا الأسلوب من التقشف هو أسلوب الحياة الوحيد الذي يمكنها أن تتذكره في آناند بهافان والذي أصبح فيما بعد طريقة حياة.

لم تكن مظاهر الحياة وشكلها الخارجي في آناند بهافان هو ما تغير على نحو أساسي فقط بعد بداية حركة عدم التعاون، فالآن كرس موتيلال وجواهرلال كل وقتهما وطاقتهما للنشاط السياسي، وسجل جواهرلال في سيرته الذاتية كيف «أصبحت منهمكًا تمامًا في الحركة … لقد تركت كل ارتباطاتي الأخرى ومعارفي وأصدقائي القدامى وكتبي حتى الجرائد … ومع قوة الروابط العائلية فقد نسيت تقريبًا عائلتي وزوجتي وابنتي … لقد عشت في مراكز الشرطة واجتماعات اللجنة والحشود.»[13] وبعد أعوام عندما كان جواهرلال في السجن كان إهماله لعائلته يراوده بشدة، ولكنه في الوقت الذي كانت السياسة قد استحوذت عليه لم يكن هناك ما يؤثر عليه حتى إن خطابًا تأنيبيًّا من والده (الذي كان بعيدًا عن المنزل) لم يكن له أدنى أثر عليه:

> «هل كانت لديك أي مساحة من الوقت للعناية بالأبقار المسكينة في آناند بهافان؟ ليس لأنهم أبقار بالفعل بل لأنهم تراجعوا إلى منزلة البقر لا لسبب غير إهمال لا يستحق سوى اللوم من جانبك وجانبي، وأقصد بالأبقار والدتك وزوجتك وابنتك وأختيك؟ لست أدري بأي حق أو عقل ندعي أننا نعمل لمصلحة العامة — والدولة كلها — حين نخفق بشدة في مد يد العون لأشد المتطلبات أهمية لأقاربنا ولمن نحن أقارب لهم.»[14]

بعيدًا عن رعاية «الأبقار المسكينة» في آناند بهافان ابتعد جواهرلال عن عائلته تمامًا عندما زج به في السجن — مع موتيلال نفسه — في ديسمبر ١٩٢١، كان أمير ويلز (الملك إدوارد الثامن فيما بعد) وحاشيته (بمن في ذلك لويس مونتباتن [الذي سيتولى منصب حاكم الهند فيما بعد] البالغ من العمر عندئذ واحدًا وعشرين عامًا) في زيارة إلى مدينة الله آباد في الشهر السابق ضمن جولة أمير ويلز الذي سيصبح في المستقبل ملك إنجلترا وإمبراطور الهند، ولكن بدلًا من الترحيب بالأمير استقبلت مدينة الله آباد — شأنها شأن بقية مدن الهند — الأمير وحاشيته بإضراب عام؛ فأصبحت المدينة شوارع فارغة ومتاجر موصدة، وتحولت المدينة إلى «مدينة موتى» في تباين حاد مع الترحيب الذي قوبلت به آني بيسانت قبل أربعة أعوام، مضى الموكب في مسيرته الملكية عبر الشوارع الصامتة المخيفة «دونما شخص يشاهده.»[15] نظم موتيلال نهرو إضراب مدينة الله آباد ضد هذه الزيارة الملكية في ٦ ديسمبر واعتقل في آناند بهافان، واعتقل ابنه أيضًا الذي سجل في اليوميات التي كتبها في السجن أنه بعد هذه الاعتقالات، وبينما كانت الشرطة في انتظار حزم متعلقات موتيلال وجواهرلال كانت سواروب راني وكامالا ونان جميعهن هادئات، في حين كانت إنديرا، التي كانت تبلغ الرابعة عندئذ، «تصدر الضجيج اعتراضًا على طعامها وضاغطة على أعصاب الآخرين عامة.»[16]

أقيمت محاكمة موتيلال في اليوم التالي في سجن نايني في الله آباد واتهم بأنه متطوع في حزب المؤتمر الهندي، وهي جريمة جنائية لأن البريطانيين قد حظروا حزب المؤتمر القومي الهندي، احتشد الناس في قاعة المحكمة؛ موتيلال نهرو، المحامي الشهير في الله آباد، الآن يرفض علانية النظام القانوني البريطاني الذي مارسه واعتنقه لفترة طويلة عن طريق رفضه الدفاع عن نفسه أمام محامي الحكومة، الذي كان صديقًا قديمًا وزميلًا سابقًا.

ومثلما ورد في جميع الصحف جلس موتيلال في قفص الاتهام وإنديرا جالسة على قدميه طوال مدة المحاكمة، كان هذا أول ظهور سياسي لها، ليس كمشاهدة فقط بل كمشاركة في هذا الحدث القانوني. ما السبب وراء

استخدام موتيلال لحفيدته — مع موافقة جواهرلال وكامالا بوضوح — بهذه الطريقة؟ يمكن أن يكون الهدف هو إطلاقها في النشاط السياسي، وسواء أكان هذا بقصد أو دونما قصد، فقد مثلت إنديرا أداة ورمزًا في قاعة المحكمة؛ إذ إنها تشخيص للبراءة التي تعرض ما سماه موتيلال «مهزلة» الإجراءات، يمكن أن تكون إنديرا قد استمتعت بالاهتمام الموجه ناحيتها أو أن تكون الظروف الغريبة المحيطة بها قد ثبتتها؛ إذ أوردت جميع الصحف أن تصرفاتها كانت خالية من الأخطاء.

حُكم على موتيلال بستة أشهر من السجن وغرامة ٥٠٠ روبية، وحُكم على جواهرلال بعقوبة مشابهة بسبب توزيعه لمنشورات تؤيد عملية الإضراب، ولكنهما لم يعدما الصحبة الجيدة؛ فقد اعتقل البريطانيون ثلاثين ألف شخص من أرجاء الهند المتفرقة في الفترة من ديسمبر/كانون الأول ١٩٢٢ إلى يناير/كانون الثاني ١٩٢٣ فيما سماه جواهرلال «إفراط في القبض والاعتقالات»،[17] وسُجن موتيلال وجواهرلال في سجن لكناو الذي يقع على بعد ١٤٠ ميلًا شمال غرب مدينة الله آباد.

في المحكمة رفضت عائلة نهرو الدفاع عن نفسها، وفي السجن رفضوا دفع الغرامات المحددة عليهم مما نتج عنه ذهاب الشرطة إلى قصر آناند بهافان لجمع ما تبقى من أشياء ثمينة، كانت معظمها قطعًا من الأثاث، شاهدت سواروب راني وكامالا عملية السلب هذه دونما تذمر، في حين اعترضت إنديرا بشدة، «وأعربت عن استيائها الشديد»، وكادت أن تبتر إصبع أحد رجال الشرطة وهي تلوح في وجهه مهددة بسكين الخبز.[18]

في أواخر ديسمبر/كانون الأول ١٩٢١، وبعد أسابيع قليلة من سجن والدها وجدها في لكناو، قامت إنديرا بأول زيارة لها لصومعة غاندي المعروفة باسم «سابرماتي اشرام» الواقعة على ضفاف نهر سابرماتي، وهي أول رحلة لها في قطار الدرجة الثالثة، كانت هذه الرحلة شاقة للغاية على جميع نسوة آل نهرو؛ سواروب راني وكامالا وبيتي وإنديرا، وخلال رحلة القطار الطويلة إلى مدينة أحمد آباد في ولاية جوجارات جلست السيدات على مقاعد خشبية صلبة في إحدى عربات الدرجة الثالثة القذرة والمزدحمة، وبينما كان القطار يشق طريقه عبر سهول شمال الهند المنبسطة والمتشابهة كانت

النساء والأطفال في كل محطة يتوقف فيها يحتشدن عند نافذة عربة آل نهرو ويمطرنهن بالطعام والزهور، وفي ذلك الوقت كانت شهرة آل نهرو تكاد تعادل شهرة غاندي نفسه، وشعر الناس بالتضامن الشديد مع هؤلاء النسوة اللائي سجن الإنجليز لهن الابن والأب والزوج.

في أحمد آباد حضر نساء آل نهرو مع غاندي الاجتماع السنوي لحزب المؤتمر الهندي، وعلى عكس السنة السابقة عندما أطلق غاندي الساتياجراها تذكرت إنديرا هذه الجلسة، في ذلك الحين ارتدى حزب المؤتمر عباءة الحركات الجماهيرية، وفي أحمد آباد رفرف العلم الهندي بألوانه الثلاثة الأخضر والأبيض والزعفراني، وجلس الجميع على الأرض بدلًا من الكراسي، وأعلنت الهندية لغة قومية والخادي رداء وطنيًّا، وحيّت الجماهير نساء آل نهرو بصفتهن ممثلات لموتيلال وجواهرلال المحتجزين.

بعد ذلك ذهبن مع غاندي إلى سابرماتي اشرام على ضفاف نهر سابرماتي، التي يحيط بها مجموعة من الأكواخ المطلية بالجير الأبيض المتكلس، وتقع داخل بستان من الأشجار، ويحيط بها عشرون آكر من المزارع، وأسفل هذه المنازل يجري النهر حيث تغسل النساء الثياب، ويأخذ الأطفال الأبقار والمواشي ليسقوها، إنها منطقة يغلب عليها الطابع الرعوي، فيما عدا وجود الثعابين التي يحرم قتلها، ولكنها لم تكن مكانًا للحياة السعيدة إلا فيما ندر. لقد كان السبعون أو ما يقارب هذا العدد من سكان هذا المجتمع من السانياسيين — أي الزهاد — الذين تعهدوا بالعزوف عن الشهوات (ولو كانوا متزوجين)، وعدم ممارسة العنف، والاعتدال في الطعام، وعدم الاعتداد بالفروق الطبقية، ومع ذلك تطلبت طريقة الحياة المتقشفة تلك دخلًا أكبر مما كانت تُنتجه سابرماتي اشرام، مما جعل تمويل المعيشة فيها يتم عن طريق قادة صناعة النسيج في أحمد آباد وبارونات الشحن في بومباي، وقالت سروجيني نايدو عن هذه المسألة فيما بعد مازحة إن الأمر تطلب الكثير من المال ليحتفظ غاندي بفقره.

كان اليوم في هذا المجتمع يبدأ في الرابعة صباحًا بأداء الصلوات على ضفة النهر، ويُقضى اليوم بنظام دقيق صارم في ممارسة أعمال الغزل، وبذر البذور، وجمع الثمار، وسحب المياه، والطهي والكنس والغسيل وتنظيف

المراحيض، وعلى الرغم من الحصول على تكاليف الإعاشة من الشركات الكبيرة فإن غاندي سعى إلى أن يصنع في سابرماتي مدينة فاضلة تتمتع بالاكتفاء الذاتي وترتكز على نظام من القيم السامية التي قال أحد كتاب سيرته الذاتية إنها تتمثل في «الصدق، ونبذ العنف، واقتصاديات الأخلاق، والتعليم الحقيقي، والنظام الاجتماعي القائم على المساواة بين الطبقات.»[19]

مع ذلك فإن نساء آل نهرو لم يكن ليرين شيئًا أقل مثالية من هذا، فيما عدا إنديرا التي كانت تتسم بالمرونة، وكامالا التقليدية المتقشفة بطبعها؛ فقد سكن غرفة في فندق خالية من الأثاث حتى إنهن كن ينمن على الأرض، ويستيقظن في الساعة الرابعة صباحًا شأنهن شأن الآخرين، ويأكلن كميات ضئيلة من الطعام الخالي من التوابل، ويقضين حاجتهن في مراحيض مشتركة تختلف تمام الاختلاف عن المراحيض الأوروبية التي كن يستخدمنها في آناند بهافان، وحتى إنديرا، وهي لا تأكل إلا ما يعجبها، كانت جائعة معظم الوقت، ولكن مع هذا وتدريجيًّا مع الوقت تكيفت نساء آل نهرو مع الوضع، خاصة خلال المناقشات اليومية مع «بابو» في كوخه الشبيه بالزنزانة؛ كانت لدى غاندي قدرة على سحر لُب من أمامه وإقناعه ونصحه، وعندما عدن إلى مدينة الله آباد كانت نساء آل نهرو، بمن فيهن سوراوب راني المعارضة، قد اعتنقن مبدأ الساتياجراها.

أطلق سراح جواهرلال من سجن لوكناو مبكرًا في ٣ مارس/آذار ١٩٢٢ غير أنه أعيد القبض عليه وسجنه مرة ثانية في ١١ مايو/أيار بعد اتهامه بتهمة جنائية هي «الترويع والابتزاز»، وتضمن قرار الاتهام مقاطعته لتجار مدينة الله آباد الذين يبيعون القماش الأجنبي، حضرت إنديرا محاكمة والدها مثلما حضرت محاكمة جدها في السنة السابقة، ولكنها جلست هذه المرة مع والدتها على مقاعد المشاهدين وليس في قفص الاتهام، ومع هذا فحضورها كان مميزًا في قاعة المحكمة مرة أخرى حيث ذكرت الصحف أنها تحدثت بصوت عال قبل بدء المحاكمة وسألت: «يا أمي، هل سيعرضون فيلمًا؟»[20]

استمرت مدة السجن الثانية لجواهرلال ثمانية أشهر حتى نهاية يناير/كانون الثاني ١٩٢٣، سُجن جواهرلال في البادية في سجن مدينة الله آباد ثم ثانية في سجن لكناو، وفي هذا الجو من الوحدة تسنى له أخيرًا

الوقت لكي يهتم بأمر أفراد عائلته خاصة إنديرا التي لم تكن صحتها بخير أبدًا معظم عام ١٩٢٢، وفي نهاية شهر مايو/أيار كتب موتيلال — الذي نُقل إلى سجن نايني الذي سيطلق سراحه منه بعد فترة وجيزة — معبرًا عن قلقه بشأن إندو واصفًا إياها بالتي «تدفع ثمن خطايا أبيها وجدها»،[21] فقد قال موتيلال إن إنديرا بدت شاحبة وهزيلة وفاترة الهمة في آخر زيارة لكامالا وإنديرا له بالسجن.

تسببت الحرارة الملتهبة في صيف مدينة الله آباد في وهن جسد إنديرا، ولكن كامالا وسواروب راني رفضتا الذهاب إلى تلال موسوري والتنعم بالهواء العليل في الوقت الذي يتصبب زوجاهما عرقًا في السجن، وبدلًا من هذا بقيت السيدات في آناند بهافان، وكن يقمن كل شهر برحلة إلى لكناو في طقس حار خانق ومترب من أجل زيارة قصيرة لجواهرلال داخل مكتب حارس السجن، كانت هذه اللقاءات الشاقة التي هي أبعد ما تكون عن الخصوصية مراقبة دائمًا من أحد مسئولي السجن، كان جواهرلال وزائراته — سواروب راني وكامالا وإنديرا وبيتي — يتوقون لمثل هذه الزيارات ثم يصيبهم الإحباط والاكتئاب فيما بعد بسبب عدم قدرة أي منهم على التعبير عن مشاعره على نحو كاف، فقد كان الوقت المتاح قصيرًا جدًّا، وأضفى وجود الحارس شعورًا بالإحراج عليهم، إنديرا فقط هي من لم يكبحها هذا الموقف غير الطبيعي، سجل جواهرلال جميع هذه اللقاءات في مذكراته التي كتبها في السجن، وكتب يوم ٢٣ أكتوبر/تشرين الأول أن «إندو [كانت] نحيفة للغاية ويبدو على ملامحها الضعف بعد مرضها القاسي ومع ذلك فقد كانت مرحة.»[22]

شهد السجن خلال عام ١٩٢٢ بداية المراسلات التي دامت لفترة طويلة بين جواهرلال وإنديرا؛ حجم ضخم من الرسائل المتبادلة التي كشفت عن أمور عدة لكل منهما حيث إنها ظلت لعدة سنوات الطريقة الرئيسية للتواصل بينهما، في حقيقة الأمر كانت هذه هي الوسيلة الأساسية للتواصل بينهما خلال سنوات نمو وترعرع إنديرا، خلقت الرسائل بينهما قربًا مذهلًا لأن كليهما كان يكتب بغير تحفظ كما كانا ممن لا يشق لهم غبار في الكتابة، ولكن هذه التلقائية والانفتاح خلقت صعوبات عندما أصبح الاثنان

معًا بالفعل جسدًا وروحًا؛ فقد كان من الصعب، بل من المستحيل، الاحتفاظ بقدر الألفة الذي صنعته الرسائل عندما آن آوان التعامل فيما بينهما وجهًا لوجه.

وفي أكتوبر ١٩٢٢ أرسل جواهرلال أول رسالة لإنديرا من السجن باللغة الهندية، ولكنه بدلها إلى الإنجليزية عندما صارت لديها القدرة على القراءة والكتابة:

حبي الكبير لابنتي الحبيبة إندو من أبيك،

تعافي سريعًا واكتبي إلى أبيك، وتعالي لرؤيتي في السجن.

أنا أشتاق لرؤيتك كثيرًا، هل استخدمت التشارخا الجديد [المغزل اليدوي الذي يشبه ذلك الذي كان غاندي يستخدمه] الذي أعطاه إليك جدك؟

أرسلي لي بعضًا من القماش الذي غزلت.

هل تصلين كل يوم مع أمك؟

أبوك[23]

وبعد شهر آخر كتب جواهرلال إلى إنديرا التي كانت عندئذ في كالكتا حيث اصطحبها موتيلال هي وكامالا للعلاج بطريقة الأمصال (وهي معالجة الداء بإعطاء المصاب جرعات صغيرة جدًّا من دواء لو أعطي لشخص سليم لأحدث عنده مثل أعراض المرض المعالج):

حبيبتي إنديرا،

هل تعجبك كالكتا؟ أيهما يعجبك أكثر: بومباي أم كالكتا؟ هل رأيت حديقة الحيوان هناك؟ ما أنواع الحيوانات الموجودة؟ هناك شجرة ضخمة قديمة يمكنك رؤيتها.

تأكدي من أن تكوني بصحة جيدة عندما تعودين.

والدك المحب[24]

لم يكن من الواضح إذا كان علاج كالكتا ناجحًا أم لا، كما هو الحال فيما يخص مرض إنديرا، كانت الأعراض التي تعانيها تشبه العديد من تلك التي لا تزال كامالا تعانيها على حد وصف رسائل موتيلال وجواهرلال، وأيضًا طبقًا لما دونه جواهرلال في يومياته بالسجن؛ عانت إنديرا فقدان الوزن والشحوب والضعف، ومثل والدتها، يمكن لهذه الأعراض أن تكون ناتجة إلى حد ما عن مرض نفسي، كان جواهرلال يخشى هذا، وخشي أن تعاني إنديرا ما سماه «إعاقة عقلية» أو وسواس المرض، ومن ثم كان أمره أن «تكون بصحة جيدة»، كان جواهرلال قلقًا بشأن صحة إنديرا خلال طفولتها وكان يصمم على ممارستها للرياضة على نحو منتظم — خاصة الجري اليومي — ليجعلها قوية وسليمة البدن، وقد حارب ميول كامالا وساوروب راني والمربية لتدليلها، ومن ثم تعلمت إنديرا في سن صغيرة أن والدها يرفض فكرة المرض وفي المستقبل استخدمت في بعض الأحيان صحتها أو مرضها كأداة في علاقتها معه.

في بدايات ١٩٢٣ كانت إنديرا تتمتع بالصحة التي يتمنى والدها رؤيتها عليها، عندما أطلق سراح جواهرلال من سجنه للمرة الثانية. في السنة السابقة لهذا كان غاندي قد ألغى حركة عدم التعاون عندما أحرق العامة اثنين وعشرين شرطيًّا حتى الموت في قرية شوري شاورا، ولكن هذا لم يُوقف نشاط الشرطة في آناند بهافان؛ ففي ديسمبر/كانون الأول عام ١٩٢٢ وقبل إطلاق سراح جواهرلال بفترة وجيزة أسس موتيلال وأحد المحامين البنغاليين في مدينة الله آباد يدعى سي آر داس حزب السواراج (الاستقلال) ولكنهم لم يخرجوا من حزب المؤتمر الهندي، انحرف حزب السواراج عن غاندي وأتباعه — وكذلك أعضاء حزب المؤتمر — فيما يخص موضوع وقف حركة عدم التعاون، وعلى نحو أكثر جدية كان أعضاء حزب السواراج يسعون إلى إنهاء مقاطعة الهيئة التشريعية، وكانوا يؤيدون الدخول في المجلس — المشاركة في الهيئات التشريعية التي أتاحها قانون الحكومة الهندية لعام ١٩١٩ — من أجل «نقل الحرب إلى معسكر الأعداء.»[25]

وجد جواهرلال نفسه في موقف صعب لعدم موافقته على قرارات «والديه»: فقد كان معارضًا بشدة لقرار غاندي بوقف حركة عدم التعاون،

ولم يكن أقل معارضة فيما يخص خطة حزب السواراج لتخريب النظام البريطاني من الداخل، ومن هنا انتعش التوتر بين موتيلال وجواهرلال واجتاح المنزل، وعلى الأخص كانت أوقات الطعام تتسم بالصمت والتوتر، وتدريجيًّا أصبحت إنديرا وكامالا تأكلان معًا وحدهما في شقة الطابق الأول التي بناها موتيلال لأسرة ابنه، وصار آناند بهافان مكانًا للاجتماعات المستمرة، وذات يوم اندفعت إنديرا إلى أحد اجتماعات اللجنة التنفيذية لحزب المؤتمر صارخة بأعلى صوتها «ممنوع الدخول دون إذن»، لتفعل بذلك ما تنادي بعدم فعله.[26]

وعندما كبرت كان يحلو لإنديرا في بعض الأحيان أن تصف طفولتها بالفترة التي فيها «أحيطت بالحب والطاقة»، ونفت أن تكون هذه الفترة سببت أي جراح لها،[27] ولكنها في اللحظات التي تكون فيها أقل تحفظًا تتحدث عن أمور مختلفة؛ ففي إحدى اللقاءات الصريحة شكت إنديرا أنها «لم تعرف كامالا بما فيه الكفاية»، واستطردت «لم أعرف أحدًا بما فيه الكفاية، لقد كان أحدنا يرى الآخر بصعوبة لأن أفراد المنزل يخرجون في الصباح الباكر لأعمالهم أو لمتابعة أمور مختلفة، وفي بعض الأحيان نلتقي على مائدة الطعام، وفي أغلب الأحيان لم نكن نلتقي ... لقد كان المنزل بأكمله في [تلك] الحالة من التوتر حتى إن أحدًا لم يحي حياة طبيعية.»[28]

لكن الأمر لم يكن يقتصر على ذلك النشاط «غير الطبيعي» المستمر، و«حملات الشرطة» والاعتقالات وما إلى ذلك، وهو ما اعتبرته إنديرا سببًا للحياة المشحونة في آناند بهافان؛ فهناك الجو المتوتر الناتج عن الخلاف السياسي بين موتيلال وجواهرلال حول قضية الدخول في المجلس، ومع نمو إنديرا أصبحت على وعي بعدم موافقة جدتها سواروب راني وأخت جدتها الأرملة على آراء ومواقف والديها، وحسب وصف إنديرا لأكبر خالاتها بيبي آما بـ«الساحرة الشريرة» سواء في آناند بهافان أو في طفولة إنديرا؛ ترملت بيبي آما في عمر الثمانية عشر، وعاشت بقية حياتها الطويلة مع أختها الصغرى سواروب راني وفرضت سلطتها عليها، وأدارت المنزل على نحو فعال، ووصفها بريج كومار نهرو بأنها «امرأة بائسة تسبب المشكلات ... بغيضة

حتى إنها لا تحتمل رؤية إنسان سعيد.»[29] ولطفلة مثل إنديرا كانت هذه المرأة مخيفة أيضًا، فهي أبعد ما تكون عن الجاذبية، ومثلها مثل معظم الأرامل الهنديات ترتدي ساريًا أبيض غير مرصع بالجواهر، ولا تضع البيندي، أي العلامة التي توضع على الجبهة وتزين رءوس السيدات الهندوسيات المتزوجات، فقد كانت تعتنق القاعدة القائلة على الأرامل العيش في أحياء منفصلة، بعيدًا عن باقي الأسرة، وعليهن طهي طعامهن غير المحتوي على التوابل وأكله بمعزل عن الآخرين.

وفي ذلك الحين كان الترمل يعني للنسوة الهنديات العذاب المقيم، وهو بديل ليس أفضل كثيرًا من إلقاء أنفسهن في أكوام الحطب التي تحترق فيها جثث أزواجهن، أما بيبي آما فقد واجهت مصيرها القاسي بكل ما تملك من قوة، هذا المصير الذي أدى إلى اكتئابها واستيائها من جواهرلال وكامالا على الأخص واستنكارها لمواقفهما وأفكارهما. رأت إنديرا وهي طفلة صغيرة خالتها الكبرى على أنها «الشر بكل ما تحمله الكلمة من معان» لأنه سمعت مصادفة بيبي آما وهي تنتقد والديها، قالت إنديرا في هذا الشأن: «لقد كنت أود حمايتهما للغاية ... وكنت أعرف أنها تستنكر ... طريقتهما في الحياة وفكرة التخلي عن الأشياء، فقد كانت تعتقد أن هذا غباء شديد، فكيف لأسرة تمتلك كل سبل الرفاهية أن تنحيها جانبًا ... مقابل لا شيء.»[30]

وعلى النقيض من أختها لم تتحول بيبي آما إلى الساتياجراها أبدًا، فلكونها أرملة هندوسية كان لزامًا عليها أن تكون من السانياسيين وترفض كل المتع المادية، لكنها لم تسامح باقي أفراد المنزل في رفضهم طواعية «كل سبل الرفاهية»، بالإضافة إلى أنها الوحيدة من قلائل في العائلة التي كانت تود العناية بإنديرا وكان عندها الوقت لذلك، وعلى كره منها، سمحت إنديرا لبيبي آما بمصاحبتها في الفراش، كانت تقول لها: «يمكنك المجيء وأن تقصي لي حكايات قبل النوم، لكني لن أنظر إليك.»[31] ورفضت أكل الطعام الشهي ودعوات الغداء التي كانت خالتها الكبرى تعده لها في مطبخها المنفصل.

كان هناك شخص آخر في العائلة يُصيب إنديرا بالضيق، عمتها نان التي كانت مصدرًا للتوتر والحزن بسبب عداوتها لكامالا نهرو، كانت نان

التي تصغر كامالا بعام واحد تعشق جواهرلال وتستاء من زوجة أخيها منذ لحظة زواجها بجواهرلال عام ١٩١٦، وأصبحت إنديرا بالطبع على وعي بهذا عندما كبرت، خف الجو المشحون بالغيرة على نحو طفيف في آناند بهافان فقط عندما تزوجت نان من رانجيت بانديت عام ١٩٢١،[32] ولكن الإهمال والإهانات استمرت؛ فلم تكن كامالا على سبيل المثال ممن يُدعون لمشاهدة فيلم إنجليزي مع الآخرين لأنهم كانوا يقولون إن لغتها الإنجليزية ضعيفة للغاية، وأصبحت الأمور أكثر سوءًا في السنين التالية عندما صار جواهرلال بعيدًا عن المنزل في السجن لمعظم الوقت وساءت صحة كامالا، وعندما أصبحت إنديرا نفسها هدفًا لعداوة عمتها. على نحو أساسي كانت النساء البالغات — سواروب راني ونان وكامالا — يتبارين في الحصول على قدر من وقت جواهرلال المحدود واهتمامه وحبه؛ كانت كامالا هي أكثر الثلاثة تحفظًا وأيضًا أكثرهن عزة وعلى نحو متوقع كانت أكثرهن معاناة، كما لاحظت إنديرا، وعلى ما يبدو أن جواهرلال نفسه لفترة كبيرة على الأقل كان مشغولًا حتى إنه لم يكن على وعي بالعلاقات المضطربة غير السعيدة بين والدته وأخته وزوجته.

وكطفلة صغيرة كانت إنديرا تستطيع الهروب من هذا الجو المشحون في آناند بهافان عندما تذهب لزيارة جديها لوالدتها في منزلهم التقليدي الضخم الذي يعرف باسم «آتال هاوس» الكائن في سوق سيتا رام بمدينة دلهي القديمة، تميزت علاقة إنديرا بجدتها راجباتي كول بالحميمية والبساطة، إلى جانب أن العائلة الكبيرة الممتدة كلها كانت تُطلق لها العنان وتدللها، فأرسلت إنديرا إلى روضة أطفال موجودة في مدرسة «مودرن سكول» وهي مدرسة أنشأها القوميون وكانت قد افتتحت في وقت قريب آنذاك، وكانوا يصطحبونها في زيارات للجيران. وتحديدًا من بين هؤلاء الجيران كان هناك ولد في العاشرة من العمر آنذاك اسمه بارميشوار ناران هكسار Parmeshwar Narain Haksar، يتذكر بارميشوار إندو الصغيرة الصامتة ذات العينين الواسعتين أثناء جلوسها على كتف أحد الخدم، ونساء الجيران يولينها عناية فائقة واللائي كن يقلن بشكل مستمر «أيتها المسكينة» وهن يربتن عليها،[33] فعلى عكس الإهمال واللامبالاة التي تعرضت لها في دلهي

كانت إنديرا طفلة مدللة من الجميع بمن في ذلك الخدم الذين كانوا يحضرون لها الخبز المقلي والحليب الساخن كل صباح.

ولم تكن إنديرا تبقى مع جديها لأمها فترة أطول من شهر كل عام، وعندما تعود إلى آناند بهافان تستمر الطقوس العائلية الأساسية لتعطي شكلًا من أشكال الاستقرار وسط التغير والخلاف؛ توقظ سواروب راني إنديرا غالبًا عند شروق الشمس وتصطحبها إلى نهر الجانج ثم إلى المعبد، وإذا كان جواهرلال في المنزل تقرأ الجيتا في الصباح مع والديها، ثم تمارس في حدائق آناند بهافان الضخمة رياضة الجري تحت الإشراف، كان تجار السوق والباعة الجائلون يأتون كل يوم إلى المنزل لبيع الخضروات والفواكه والصابون والمتطلبات الأخرى، كما كان الحال مع باعة الآيس كريم والوجبات الخفيفة اللذيذة، والخياطون يجلسون القرفصاء في الشرفة لخياطة الساري والسترات الطويلة وسراويل البيجامات، ومن وقت لآخر كان القائمون بألعاب التسلية أيضًا يحضرون: من أمثلة رجل الدب الذي يأتي وبصحبته دبه الذي يؤدي الألعاب، ومُلاعب القردة، والبهلوانات والسحرة والمغنين. وفي كل عام، في عيد ميلادها، تُوزن إنديرا على ميزان تكون إنديرا في كفة وفي الكفة الأخرى صينية نحاسية من الأرز، ويتم زيادة كمية الأرز إلى أن تتعادل الكفتان، ثم يوزع هذا الأرز على الفقراء، وعقب ذلك يقام حفل عيد ميلاد فخم على الطريقة الأوروبية حتى بعد الحظر الذي فُرض على السلع والتقاليد الأجنبية في آناند بهافان.[34]

كانت إنديرا، مثل كل الأطفال، تقضي كثيرًا من وقتها في عالم خيالي من اللعب، وقد استمدت إنديرا الكثير من خيالات ألعاب الطفولة — من أمثلة الخطب السياسية الحماسية الملقاة على الخدم في آناند بهافان، والدمى المحاربة في سبيل الحرية، والهراوات، وحملات الشرطة الخيالية — كما لو أن هذه الألعاب نبوءة لعملها السياسي فيما بعد، ولكن بعيدًا عن كونها ألعابًا بدا كما لو أنها تستشرف المستقبل، كانت إنديرا ببساطة تُمثل دور شخص بالغ في ألعابها وكان هذا ما رأت عليه من حولها، هذا بالإضافة إلى أن أسرتها دون شك شجعتها على مثل هذا النوع من اللعب، فأعطاها موتيلال مغزلًا عندما بلغت الخامسة، (كان غزل النسيج لصناعة ملابس

الخادي الشعبية يروق بشدة لأعضاء حزب المؤتمر الذين قاطعوا الملابس البريطانية المستوردة.) وعلى نحو معتاد تُلبس كامالا إنديرا الزي الرسمي الخاص بالمتطوعين الذكور في حزب المؤتمر، بما في ذلك غطاء رأس غاندي، وفي حقيقة الأمر كان ينظر إلى إنديرا كثيرًا باعتبارها ذكرًا، كما أنها في بداية كتابتها الرسائل لوالدها كانت توقعها باسم «إندو-الولد.»

والغريب في ألعاب إنديرا ليس ما كانت تُمثله بل حقيقة أن جميع هذه الألعاب تقريبًا كانت تتصف بالعزلة؛ فقد نشأت إنديرا في منزل لا يوجد به أطفال آخرون، وبجانب الفترة القصيرة التي قضتها في روضة الأطفال لم تُرسل إنديرا إلى المدرسة في الله آباد حتى عام ١٩٢٤ عندما قرر موتيلال أن يلحقها بمدرسة سانت سيسيليا، وهي مدرسة تديرها ثلاث من النساء العزباوات يُطلق عليهن اسم كاميرون، كانت هذه بداية غير سعيدة لما تحول بعد ذلك إلى مسيرة أكاديمية غير متوقعة، كانت إنديرا تشعر بالتعاسة في سانت سيسيليا، فقد كانت خجولة ومعقودة اللسان وسط الفتيات الأخريات، وكانت تعي تمامًا نحافة جسدها، وتشعر أنها غريبة بوصفها الطالبة الوحيدة في المدرسة التي ترتدي زي الخادي، وتذكرت إنديرا كيف «في بعض الأحيان لكيلا أظهر في زي الكورتا التقليدي (قميص طويل وسروال) وأتعرض للاستهزاء، كانت عمتي الصغرى [بيتي] ... تتآمر معي وتساعدني على خلع زي الكورتا حتى أستطيع البقاء في تنورتي، التي كانت تشبه فستانًا دون أكمام على شكل A.»[35] وكانت تخاف الرقيب الأول البريطاني الذي كان مسئولًا عن التدريب البدني للفتيات، ويضربهن بسوطه إذا ما حدن عن الصف.

سريعًا ما أنقذ الشجار العنيف بين موتيلال وجواهرلال إنديرا من عذاب مدرسة سانت سيسيليا، فقد كان من الواضح أن جواهرلال لم يُستشر في اختيار المدرسة الخاصة بإنديرا وأنه كان خارج المنزل عندما أُرسلت إلى هناك أول الأمر، كانت سانت سيسيليا من المدارس الخاصة وليست معهدًا حكوميًّا، ولكن جواهرلال شعر أنه ما دامت هذه المدرسة تُدار بواسطة هيئة بريطانية ومعظم طلبتها من البريطانيين فإن حضور إنديرا فيها يعتبر انتهاكًا لمبادئ مقاطعة حزب المؤتمر لكل ما هو أجنبي، ومن هنا بدأ

مقطع جديد من النزاع الذي أصبح بين موتيلال وجواهرلال المستقر جيدًا، ولجأ الاثنان إلى غاندي ليتوسط بينهما وتبادل الثلاثة سيلًا من الخطابات المرسلة والمستقبلة، وفاز جواهرلال في هذه الجولة، واستعيدت إنديرا من مدرسة سانت سيسيليا وتولى تعليمها مدرسون هنود في المنزل.

قد يكون هذا الأمر صحيحًا من الناحية السياسية، ولكنه أبعد ما يكون عن المثالية فيما يتعلق بالناحية التعليمية، تعلمت عمتا إنديرا على يد مربية إنجليزية كانت تتأكد من قدرتهما على القراءة والكتابة وحل المسائل الحسابية بكفاءة بالإضافة إلى تدريبهما على الاستحمام بالماء البارد، والنوم في مواعيد محددة لا تتغير قط، لكن دروس إنديرا والطريقة العامة في تربيتها كانت عشوائية على نحو أكبر، ففي بعض الأحيان كان البانديت (المعلم) الذي يعلمها اللغة الهندية لا يستطيع الحضور، وكانت تتعلم الإنجليزية مع والدتها، فكانت هذه الدروس هي الأخرى غير منتظمة، وكان جواهرلال هو أكثر معلمي إنديرا الموهوبين النشطين، ولكنه كان غالبًا مشغولًا للغاية أو بعيدًا عن المنزل.

كان المنزل يتصف بكونه ثنائي اللغة بأكثر من شكل؛ فجدة إنديرا وخالتها الكبرى سواروب راني وبيبي آما تتحدثان الهندية فقط كما كانت كامالا في الأصل، (في العشرينيات تلقت كامالا دروسًا في الإنجليزية والأردية.) أما موتيلال وجواهرلال فيستريحان على نحو أكبر في حديثهما بالإنجليزية، ولكنهما تحولا إلى مزيج من الهندية والأردية في بداية حركة عدم التعاون، ومع ذلك بقيت الإنجليزية وسيلة الاتصال الفعلية في جميع قراءتهما وكتابتهما، من ثم كان من الواضح أن إنديرا قد ترعرعت وسط عائلةٍ الهنديةُ فيها هي اللغة الرئيسية للحديث بين السيدات والإنجليزية هي اللغة الرئيسية للحديث بين الرجال، ونتيجة لهذا يمكن القول إنها كانت أكثر أعضاء المنزل استحقاقًا للقب ثنائية اللغة؛ فتحدثت الهندية لفترة طويلة، ولكنها تعلمت كتابة الإنجليزية وقراءتها في وقت مبكر وأصبحت قارئة متعطشة وسريعة للغاية لباقي حياتها، وفي الحقيقة كانت إنديرا الطفلة في معظم وقت طفولتها تقضي الوقت جالسة بين الأشجار في حديقة آناند بهافان تقرأ الكتب، في البداية كانت هذه الكتب قصصًا خيالية أعطتها

إياها عمتها بيتي (والقادمة من الميراث الذي تركته المربية الإنجليزية)، ومع تقدم إنديرا في العمر التهمت إنديرا مكتبة موتيلال التي كانت تحتوي على أضخم مجموعة خاصة من الكتب في شمال الهند.

كان منتصف عشرينيات القرن العشرين أي حينما بلغت إنديرا سن السابعة ثم الثامنة فالتاسعة، وقت خمود ميز الحركة القومية ولكنه شكل فترة من القلق والشك لعائلة آل نهرو، فقد ألغى غاندي حركة عدم التعاون عام ١٩٢٢، وقُبض عليه بعد ذلك في العام نفسه بعد اتهامه بكتابة مقالات تحريضية لمجلته ينج إنديا، حكم على غاندي بالسجن ست سنوات في سجن ييرافدا المركزي قرب بومباي، ومع أنه أصبح رئيسًا لحزب المؤتمر في دورته السنوية في ديسمبر/كانون الأول عام ١٩٢٤ فقد ظل بعيدًا عن السياسة حتى عام ١٩٢٨، وفي خلال هذه السنوات من الهدوء السياسي ظل غاندي يلعب دورًا أساسيًّا في حياة عائلة آل نهرو، في يناير/كانون الثاني عام ١٩٢٤ أطلق سراحه قبل انقضاء فترة عقوبته بسبب إصابته بالتهاب حاد في الزائدة الدودية، وفي فبراير/شباط سافر آل نهرو بأكملهم، بمن فيهم إنديرا، إلى ضاحية جوهو على شاطئ البحر قرب بومباي، وهو المكان الذي اختاره غاندي ليسترد فيه عافيته في منزل مملوك لرجل الصناعة الثري «شانتي كومار مورارجي» حيث الحياة فيه أبعد ما تكون عن حياة السجون.

تحولت هذه الرحلة لرؤية غاندي دونما تدبير إلى إجازة، وهي الأولى من نوعها التي تقضيها عائلة آل نهرو بعيدًا عن الإقامة الصيفية في التلال، استأجرت الأسرة بيتًا صغيرًا في مواجهة الشاطئ وقضوا الأيام في السباحة والركض وركوب الخيل على شاطئ البحر، كان هذا الوقت الذي علم فيه جواهرلال إنديرا السباحة، ولكن الهدف الأهم لهم كان استشارة غاندي حيث يريد موتيلال شرح وضع حزب السواراج وأراد جواهرلال مناقشة مستقبله، ولكن الاثنين عادا خائبين إذ ظل غاندي رافضًا لسياسة حزب السورارج و«لم تبدد أي من الشكوك [الخاصة بجواهرلال]»،[36] وانتهى الأمر بالثلاثي المكون من موتيلال وجواهرلال وغاندي — الذي كان الإنجليز

يدعونهم على الترتيب «الآب والابن والروح القدس» — إلى خلاف ميئوس منه.

كانت مشكلات جواهرلال في هذه المرحلة سياسية وشخصية، ففي خريف ١٩٢٣ مرض جواهرلال بشدة بحمى التيفود، وتركته تجربة المرض «بعزلة غريبة» تركت «أثرًا لم يزل» يؤثر على طريقته في التفكير،[37] وبحلول عام ١٩٢٤ عندما رأى غاندي في جوهو شعر بالقلق وعدم الرضا. بلغ جواهرلال في ذلك الوقت عامه الخامس والثلاثين — وهي السن التي توقع أن يحصد ثمار طموحاته عندها — لكن الهدف السياسي الذي تملكه لعامين أو ثلاث من قبل أضحى اليوم سرابًا، أو بالأحرى تحول أمره إلى يد حزب السواراج الذي لم يرد التحالف معه، فلم يستطع اتباع برنامج موتيلال السياسي ولا اللجوء إلى الروحانية مع غاندي و«برنامجه البناء» للسمو الاجتماعي.

وازداد ضيق جواهر بسبب اعتماده المادي على موتيلال، وهو ما كان أمرًا صعبًا في ظل تقدمه في العمر واختلافه السياسي مع موتيلال، كان رأسمال موتيلال المدخر قد نفد منذ فترة، واضطر إلى قبول قضايا جنائية للإنفاق على متطلبات قصر آناند بهافان حتى في ظل تناقص هذه المتطلبات، ولكن مع وقف حركة عدم التعاون كان جواهرلال مصممًا على عدم ممارسة المحاماة مرة أخرى لأن القانون الهندي ظل هو القانون البريطاني، وفي سيرته الذاتية لخص جواهرلال محنته بقوله: «كانت فكرة أن أكون وزيرًا في الحكومة غير قابلة للتفكير فيها ... حقًّا إنه لأمر كريه ... ولكني ... كنت أشتاق لفرصة تتيح لي عملًا ثابتًا إيجابيًّا وبناءً؛ فلا تمثل قوة التدمير والثورة وعدم التعاون أنشطة طبيعية للإنسان.»[38] واقترح غاندي على جواهرلال عندما التقيا في جوهو ثم في الخطابات التي تلت هذه اللقاءات أن يعمل مراسلًا صحفيًّا أو أستاذًا جامعيًّا، وعرضت شركة تاتا في بومباي — على الأرجح بناء على توصية من غاندي — توظيف جواهرلال، ولكن كل هذه البدائل — التي كان من الصعب أن تجذبه — انتهت إلى لا شيء.

في الوقت نفسه حملت كامالا أثناء الفترة التي قضوها في جوهو؛ كانت كامالا — إن لم يكن جواهرلال — تشعر بأن الكثير مما يخصهم في ذلك

الوقت معلق وغير محدد، ثمانية أعوام الآن مرت على زواجها بجواهرلال، وسبعة سنوات على مولد إنديرا، ويمكن لوضعها في العائلة — خاصة فيما يتعلق بعلاقتها بحماتها سواروب راني وأخت زوجها نان (التي صارت هي نفسها أمًّا لطفلة في ذلك الوقت) — أن يتحسن بشدة إذا ما أنجبت طفلًا ذكرًا، ليس الأمر أن كامالا تهتم بشدة بوضعها، لكنه سيكون من الصعب على النساء الأخريات أن يحطوا من قدرها أو يهملونها إذا ما أنجبت وريثًا يحمل اسم آل نهرو، هذا بالإضافة إلى أنها كانت ترغب بالطبع بشدة في طفل من أجلها هي وجواهرلال.

وفي الحقيقة ولد لهم طفل في منتصف نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٢٤، ولكنه كان طفلًا مبتسرًا، وتوفي بعد يومين من ولادته، عندما سمع غاندي بالخبر بعث ببرقية في ٢٨ نوفمبر قال فيها: «إنني حزين لموت الطفل، إنها إرادة الله.»[39] قهر الحدث كامالا وجواهرلال وإنديرا، ولكن الوقع الأكبر كان على كامالا.

بعدها مباشرة تقريبًا مرضت كامالا بكحة وحمى، ونقلت من قصر آناند بهافان إلى الجناح الأوروبي في مستشفى لكناو (فمن الواضح أن المقاطعة تتوقف في مثل هذه الظروف)، سافرت كامالا في سيارة إسعاف تحركت من نفس الطريق الذي كانت تمر به غالبًا في أثناء زياراتها لجواهرلال في السجن، وفي المستشفى شخّص الأطباء حالة كامالا في البداية أنها مصابة بالسل الرئوي، وهو تشخيص كان في ذلك الحين أشبه بالإعدام، وبعد سنوات من المرض تحولت أعراض كامالا فجأة إلى مرض يعد عندئذ من الأمراض القاتلة.

بقيت كامالا في مستشفى لكناو في جناح معظمه من النساء البريطانيات، في حالة مستقرة حتى العام الجديد، وكان جواهرلال يتحرك جيئة وذهابًا بين الله آباد ولكناو، في حين لم يُسمح لإنديرا بزيارة والدتها، في فبراير ١٩٢٥ كتبت لوالدتها على بطاقة بريدية بخط مكتوب بعناية: «كل الحب لأمي العزيزة من إندو.»[40] ولعلها كانت تتساءل هل ستموت والدتها هي الأخرى كما مات أخوها، وفي محاولة لصرف انتباه الصغيرة كتب غاندي يقترح أن تؤسس إنديرا قسم الأطفال في جمعية الغزل اليدوي «بال-تشارخا

سانج» التي كان يتزعمها، نفذت إنديرا هذا الأمر وهي مقتنعة به تمام الاقتناع ولكنه لم يخفف من قلقها على والدتها.

ومع حصولها على أفضل رعاية صحية ممكنة فلم تتحسن حالة كامالا في لكناو، واستدعى موتيلال وجواهرلال الطبيب الشهير والزعيم القومي إم أيه أنصاري الذي وجد أن حالة كامالا خطيرة لا تسمح باقتراح البديل المتوقع لراحة علاجية في التلال، بدلًا من هذا حث الطبيب جواهرلال على الذهاب إلى سويسرا لاستشارة إخصائيي مرض السل الرئوي في جنيف الذين كان الزعيم أنصاري على اتصال بهم.

واعترف جواهرلال فيما بعد أن عرض مغادرة الهند في ذلك الوقت الذي تميز بالخمول السياسي والخلاف بين موتيلال وغاندي لاقى ترحيبًا منه مع أنه يتحتم عليه السعي لعلاج كامالا، ولكن الإقامة مدة غير محددة في أوروبا كانت ستتكلف مبالغ كبيرة، ولم يكن لدى جواهرلال المال الكافي وكان معارضًا لفكرة أن يطلب من موتيلال أن يدعم هذه الرحلة ماديًّا، وعلى أي حال فقد كان موتيلال يمر بضائقة مالية. لم يبق لدى جواهرلال الآن سوى ذلك الخيار البغيض بأن يكسب ما يلزمه من مال عن طريق المهارة الوحيدة التي يملكها وهي المحاماة، حصل له موتيلال على قضية من عميل ثري دفع له مبلغًا ضخمًا بلغ عشرة آلاف روبية،[41] ومن المستبعد أن تكون كامالا قد علمت أبدًا بمصدر المال الذي اعتمدت عليه رحلتهم.

كانت نان وزوجها رانجيت بانديت قد خططا بالفعل لقضاء عطلة في أوروبا لمدة ستة أسابيع في أوائل عام ١٩٢٦، وكانا قد حجزا رحلتهما على باخرة مملوكة لشركة ليود اسمها تريستينو التي ستبحر من ميناء بومباي، قرر موتيلال أنه وبيتي وجواهرلال وكامالا وإنديرا سيذهبون جميعًا مع آل بانديت، كالمعتاد فضلت عائلة آل نهرو أن تسافر جملة، ولكن من وجهة نظر كامالا كان الأمر أبعد ما يكون عن المثالية؛ إذ إن قربها من نان غالبًا ما يسبب لها مشكلات، وكانت متخوفة من أن تلومها نان على ما سببه مرضها من نفقات وإزعاج، وزيادة في السوء اضطر موتيلال وبيتي إلى تأجيل سفريهما، ومن ثم أبحر آل بانديت وآل نهرو معًا في الأول من مارس/آذار عام ١٩٢٦.

في ٢٦ فبراير/شباط استقل موتيلال (الذي كان مصاحبًا للآخرين فقط إلى بومباي) وجواهرلال وكامالا وإنديرا ونان ورانجيت بانديت عربة من عربات الدرجة الأولى (من أجل راحة كامالا) في محطة القطار الموجودة بمدينة الله آباد، وطوال أغلب الرحلة إلى بومباي كانت إنديرا تجلس على قدم والدتها التي لم ترها منذ أشهر عديدة؛ وهو ما استحث موتيلال على كتابة خطاب إلى جواهرلال قائلًا:

> «في الرحلة ... إلى بومباي لاحظت أن إندو تقبل كامالا كثيرًا، يجب أن يتوقف هذا. وإذا كان من الممكن فيحبذ أن تتوقفا عن العناق كما تفعلان، إذ إن ... التنفس يحمل الميكروبات.»

بعد ثلاثة أيام وقف موتيلال على رصيف ميناء بومباي وهو يشاهد الباخرة «التريستينو» ترفع مرساتها وترحل بعيدًا في مياه بحر العرب الزرقاء اللامعة، وهناك على ظهرها أخذت طفلة هزيلة الجسد — يصعب على أي شخص آخر أن يتبين أذكر هي أم أنثى — تلوح بيديها حتى صارت شبحًا يلوح في الأفق.

الفصل الثالث

تتنفس مع حركة كعبها

عام ١٩٢٦ قبل أن تستطيع الطائرات أن تنكر العلاقة بين طول المسافة والزمن كانت الرحلة من بومباي إلى فينسيا تستغرق وقتًا طويلًا، إذ كان مسار السفن على النحو الآتي: الإبحار عبر بحر العرب، ثم حول خليج عدن، ثم قناة السويس إلى البحر المتوسط، ثم المرور بجزيرة كريت وجزر البحر الأيوني حتى الوصول شمالًا إلى البحر الأدرياتيكي، وصف نهرو هذه الرحلة في خطاب لوالده بقوله «إنها رحلة شاقة»، وأردف أن هذه المشقة تأتي بسبب الطقس في البحر من ناحية، والطقس العاطفي على متن السفينة.[1] استمتعت إنديرا وحدها بالعواصف الرعدية والأمواج الهائجة التي أصابت الآخرين بالدوار والغثيان، وهدأت العلاقات المتوترة بين كامالا ونان بانديت عندما أصيبت كامالا بنزلة شعبية ولزمت غرفتها بالسفينة، وظلت كامالا تقاسي من الحمى الشديدة عندما وصلوا إيطاليا.

وفور وصولهم أسرعت عائلة الបانديت للبدء في رحلتها الأوروبية التي تستغرق ستة أسابيع، في حين لم يسمح مرض كامالا لها بمواصلة السفر فتوقفت عائلة نهرو ثلاثة أيام في فينيسيا، كانت فينيسيا مكانًا ساحرًا لإنديرا، فهي مدينة الجزر، كأنها السراب منعكس على سطح ماء، يتنقل الناس فيها مستخدمين الجنادل وليس وسائل النقل المعتادة مثل السيارات أو الحافلات أو العربات التي تجرها الثيران. عندما انخفضت درجة حرارة كامالا استقلت العائلة قطارًا انطلق عبر شمال إيطاليا إلى جينيف، وهي مدينة مزدحمة تعج بعربات الترام، وبأبواق السيارات، وبشوارعها الممهدة والمرصوفة بالحصى، ويرتدي سكانها ملابس داكنة اللون ويحملون مظلاتهم،

ومع أن الوقت عندئذ كان ربيعًا فجينيف كانت رطبة وباردة؛ حيث الرذاذ والضباب يغطيان أفق بحيرة جنيف، وتسبب هذا الضباب لعدة أيام في عدم مقدرة أحد على رؤية المرتفعات المحيطة بالمدينة أو رؤية الشمس.

استقرت الأسرة في فنادق رخيصة الثمن عدة أشهر إلى أن عثرت على شقة تحتوي على غرفتين في ٤٦ شارع بوليفار دي ترانش، وبعد أن كان لدى الأسرة جيش من الخدم في قصر آناند بهافان، لم يعد لديها سوى خادمة سويسرية اسمها مارجريت لا تتحدث إلا الفرنسية. عقد جواهرلال العزم على أن يعيش على نحو اقتصادي على قدر استطاعته، ناسب وهذا طريقة كامالا الزاهدة، ولكن هناك في الله آباد استاء موتيلال كثيرًا مما وصفه بـ«الاقتصاد الزائف» الذي يتبعه ابنه، فكتب إليه: «يبدو أنك لم تقم بهذه الرحلة إلا لتُظهر كيف يمكن لرجل وامرأة وطفلة أن يعيشوا بأرخص ما يكون في مدينة أوروبية، لم يكن السفر بعيدًا ضروريًّا لمثل هذه التجربة الفعلية للاقتصاد.» وانتقد جواهرلال على عدم ابتياعه معطفًا و«إعطائه كامالا أغراضًا زهيدة الثمن» لارتدائها خارج المنزل.[2]

كان أحد أسباب اتباع نهرو لسياسة الاقتصاد الصارمة تلك هو التكلفة الكبيرة لعلاج كامالا، فقد أحضر معه ما يكفيه لقضاء نحو ستة أشهر خطط لقضائها في أوروبا، لكن شيئًا ما قد حدث: إما أنه لم يحسب النفقات الطبية وإما أنه لم يقدرها جيدًا بسبب التباس الأمر عليه فقدرها وفقًا لتكاليف المعيشة في إنجلترا منذ خمس عشرة سنة فائتة،[3] وفور وصولهم إلى المدينة زارت كامالا الأخصائيين الطبيين في معهد بحوث جينيف الشهير حيث يعمل عالم البكتريا السويسري هنري سبالينجر، كشفت التحاليل المعملية عن بكتريا «تي بي» في بلغم كامالا، مؤكدة بذلك تشخيص أطباء مستشفى لكناو، ثم خضعت كامالا لجرعات علاجية من لقاح سبالينجر فاق ثمنها ٢٠٠ جنيه استرليني، وهو مبلغ ضخم في ١٩٢٦، كان هذا اللقاح موضع جدل وهو مصل مضاد لمرض السل الرئوي مأخوذ من دماء الخيل، وإن جرى الاحتفاظ بسر مصدر اللقاح وطبيعته،[4] ومما زاد من ضيق صدر جواهرلال أنه اضطر لبعث برقية إلى موتيلال ليزوده بالمال من أجل هذا العلاج، ومن الواضح أن تقليله المصروفات في أي ناحية أخرى

غير العلاج كان من دواعي التعويض عن التكلفة الضخمة للعلاج، ولكن، كما كانت وجهة نظر موتيلال، إذا كانت كامالا تُطعم بلقاح سبالينجر وفي الوقت نفسه لا ترتدي ما يكفي من الملابس، وتأكل القليل من الطعام، وترتعش من البرد لإقامتها في أماكن باردة تكثر فيها تيارات الهواء، فقد انتفى «الهدف الأساسي من زيارتك.»

ومع هذا لم يتهاون نهرو في تعليم إنديرا في جينيف، كانت المدينة المقر الرئيسي لعصبة الأمم، التي تشكلت عام ١٩١٩، وعام ١٩٢٦ كانت لا تزال تمثل «الأمل في نظام دولي [و] ... في قمة مكانتها.»[5] كانت المدرسة الدولية «إيكول إنترناسيونال» L'École Internationale مدرسة متعددة اللغات (فرنسية وألمانية وإنجليزية)، وتأسست ليدرس بها أطفال الأفراد المشتركة دولهم في العصبة، فقرر جواهرلال وكامالا أن هذا الأمر سيكون مثاليًّا لإنديرا ويستحق التكاليف. كانت المدارس الجيدة في الهند دائمًا ما تكون بريطانية، حتى فيما يخص مظهرها ومناهجها التعليمية التي تعد معادية لمبادئ آل نهرو الوطنية، كانت مدرسة عصبة الأمم مدرسة دولية حقًّا تحتوي على خمسة وسبعين تلميذًا من معظم الدول المشاركة في العصبة ومنهجها التعليمي ليس مرتكزًا على الثقافة الأوروبية أو أي مبادئ سياسية أو دينية.

لكن ترى ماذا تعلمت إنديرا من المدرسة الدولية؟ في السنين التالية قالت إنديرا إنها كانت سعيدة هناك وإنها أحبت مدرستها السيدة هارتوش، ما تذكرته إنديرا المسافة من البنسيون الذي تقطنه عائلتها إلى المدرسة التي تطل على منظر جبلي بديع، تمشي إنديرا كثيرًا ثم تركب الترام ثم الأتوبيس، ويتكرر ذلك أربع مرات في اليوم، فتغادر البنسيون كل صباح في الثامنة ثم تعود لتناول الغذاء عند الظهيرة، ثم تعود إلى المدرسة في الثانية حيث يستقل الأطفال الأتوبيس إلى الريف للعب وتعلم الزراعة ودراسة الطبيعة، ثم تعود في النهاية إلى المنزل في السادسة مساء. في البداية كان نهرو يصطحبها من المدرسة وإليها، ولكن هذا يستقطع وقتًا كبيرًا من وقته، فبدأت إنديرا ذات الثمانية أعوام ونصف قطع رحلتها اليومية وحدها حاملة على ظهرها حقيبتها المحتوية على كراسات الواجب المنزلي وكتبها، وكتب موتيلال من

مدينة الله آباد يقول: «إن إندو طفلة صغيرة رائعة، إن من الشجاعة أن تشق طريقها في شوارع المدينة السويسرية بالطريقة التي وصفت.»[6]

في الحقيقة كانت إنديرا وحدها في جنيف حيث لا خدم ولا مربية ولا جدة أو خالة كبرى للعناية بها، فهي تساعد الخادمة مارجريت في عمل المنزل وتذهب للتسوق معها، وتقرأ لكامالا التي كانت في فراشها معظم الوقت، وتتأكد من أنها تأخذ دواءها. كتب جواهرلال إلى والده عن روح الاستقلالية والمبادرة التي تكبر في إنديرا، ورد موتيلال برسالة قال فيها: «إن عزيزتي إندو الصغيرة فتاة مدهشة … ونموها العقلي أمر ملحوظ … فمن كان يتخيل أن تستطيع في بضعة أشهر أن تصقل كل مهارات الاعتماد على النفس التي تُظهرها الآن؟»[7]

ساعدت السرعة والسهولة التي تعلمت بها إنديرا الفرنسية بطلاقة على تكيفها السريع مع الحياة في جينيف، كان التدريس يتم في المدرسة الدولية باللغتين الإنجليزية والفرنسية، وبالطبع كانت تستخدم الفرنسية في شوارع جنيف، كتب نهرو لأخته كيف «أصبحت تتحدث بلغة إنجليزية مختلطة بكلمات فرنسية وهي تتحدث عن الذهاب إلى مكتب البريد وأن الساعة تقارب العاشرة، أما اللغة الهندوستانية فإنها تحاول تجنب الحديث بها.»[8] ومن هنا جاء تخوف كامالا وجواهرلال من أن تنسى اللغة الهندية، وصمما على أن تكون هذه اللغة هي لغة الحوار التي تتحدث بها معهما.

كانت هناك أشكال أخرى أيضًا لتغير إنديرا، فمع أن كامالا ترتدي الساري طوال وجودها بالخارج فقد عاد نهرو إلى ارتداء الملابس الأوروبية التي كان يرتديها خلال سنوات دراسته في هارو وكمبردج والهند قبل بدء حركة عدم التعاون، ومع نزوعه إلى الاقتصاد في الإنفاق فإن هذا لم يمنعه من شراء ملابس جديدة لإنديرا، وبدلًا من إندو الصغيرة الهزيلة التي كانت ترتدي الخادي الخشن في مدينة الله آباد باتت إنديرا ترتدي الفساتين السويسرية والجوارب النيلون التي تصل إلى الركبة، والأحذية الجلدية اللامعة، وتضع مشبك شعر في المناسبات الخاصة — على سبيل المثال عندما تذهب مع نهرو لاحتساء الشاي مع الروائي الفرنسي وكاتب السير الذاتية والناقد رومين رولاند الذي يقطن في مدينة فينليف بالطرف

الشرقي من بحيرة ليمان، وكانوا يزورون الشاعر الألماني اليهودي والناشط السياسي إيرنست تولر، ويتلقون الدعوات من عدد كبير من أشخاص ذوي جذور هندية يعيشون في المنفى في سويسرا.

وبين هؤلاء زوجان عليلان مسنان يدعيان آل كريشنافارما، كان جواهرلال يأخذ إنديرا لزيارة شايماجي كريشنافارما وزوجته اللذين يعيشان في الطابق الأعلى في منزل متهالك في جنيف وحيدين ودونما أصدقاء؛ الكتب والأوراق تفترش الأرض والغبار يغطي كل شيء بالمنزل، ودائما يحمل شايماجي في جيوبه نسخًا من صحيفته القديمة، إنديان سوشيولوجست، ويخرج هذه الصحف من جيبه المنتفخ ويُشير بحماس إلى بعض المقالات التي كتبها منذ أعوام، وتمحور حديثه عن الأيام الخوالي: «بيت الهند في منطقة هامبستيد بلندن، والأشخاص الذين أرسلتهم الحكومة البريطانية للتجسس عليه، وكيف كشف هؤلاء الأفراد وخدعهم.» كان شايماجي يملك الكثير من المال، ولكنه لم يكن ينفقه على الخدم، ويخبر ضيوفه أنه يمشي مسافات طويلة بدلًا من إنفاق بضع سنتيمات على تذكرة الترام، ووصف نهرو الحال بقوله «المكان كله معبق برائحة الكآبة والتعفن.»[9]

وفي الوقت نفسه بعيدًا في دلهي في أحد أيام ١٩٢٦ استمع بارميشوار نارين هاكسار البالغ من العمر عندئذ ثلاث عشرة عامًا إلى نقاش محتدم بين والدته ونسوة أخريات ووالدة كامالا نهرو، راجباتي كول، كان النقاش «عن الحالة الصحية المتدهورة لابنتها وكيف أنها عانت بسبب تورط جواهرلال في الصراع الوطني ورحلاته الطويلة ... إلى السجن.» ولكن راجباتي كول باتت واثقة من شفاء ابنتها بعد أن أخذها جواهرلال إلى أوروبا. لم تكن الإجابة على سؤال «لماذا كان على جواهرلال أن يذهب إلى أوروبا؟» واضحة للصبي الصغير بارميشوار نارين هاكسار الذي جلس صامتًا بين النسوة، ثم شرحت راجباتي أن «الطقس في أوروبا ... أفضل من الهند، ولكن ما هو أهم من الطقس لها أنها وجواهرلال وحدهما بصحبة طفلتهما إندو.»[10]

كانت والدة كامالا ونسوة هاكسار يفهمن الأمر تمامًا، ففي خلال الأشهر الأولى في جنيف — قبل وصول أخت جواهرلال الصغرى بيتي للالتحاق بهم في يونيو/حزيران ١٩٢٦ — كانت إنديرا ووالداها وحدهم

لأول مرة في حياتهم، بعيدًا تمامًا عن شبكة العائلة والخدم والمشتغلين بالسياسة الذين كانوا يحيطون بهم في مدينة الله آباد، وتخلصت كامالا أيضًا من الجو المضطهد العدائي الذي كانت تعيشه مع حماتها وأخت زوجها، وتخلص جواهرلال من اهتمامهن الخانق، أصبحت العلاقة بين كامالا وإنديرا حميمة في آناند بهافان وسط الآخرين، لكن إنديرا كانت قد بدأت اختبار هذه العلاقة مع والدها فقط في جنيف، فحازت في ذلك الوقت اهتمامه غير المشتت.

وفي ذلك الوقت أيضًا كان والدها يحرص، على نحو أكثر انتظامًا مما كان في مدينة الله آباد، على أن تجري كل صباح قبل الذهاب إلى المدرسة، مصممًا على ألا تصقل في نفسها مهارة السرعة فحسب، بل أيضًا «الرشاقة» و«الأناقة»، قالت إنديرا فيما بعد وهي تتذكر تلك الأيام: «لم يكن من المهم إذا كنت أعدو لمسافة طويلة أم لا … بل المهم أن أعدو برشاقة.»[11] كانت العديد من الهنديات يعدون وهن ملقيات بثقل أجسادهن إلى الخلف، ولكن إنديرا كانت تتعلم كيف تعدو كالرياضي «على أصابع قدميها وثقل جسدها إلى الأمام، بخطوات واسعة وتناسق تام بين عضلاتها، وتنفسها في تناغم مع جسدها.» وقد عبرت إنديرا عن هذا الأمر بقولها: «تعلمت أن أتنفس مع حركة كعب قدمي.»[12]

بالإضافة إلى أن إنديرا وجواهرلال كانا يذهبان للتنزه معًا في جنيف، ففي أحد أيام الآحاد في مطلع شهر مايو/أيار اصطحبها جواهرلال إلى جبل صغير بالجوار اسمه ساليف، في رحلة استغرقت ساعتين بالقطار والتليفريك، كان المشهد من أعلى بديعًا؛ فبإمكانهم رؤية جبل مون بلون وجبل جورا وبحيرة جنيف والأودية بالأسفل التي تتخللها القرى، ومما زاد من سعادة إنديرا أن الثلوج هطلت، وكانت هذه أول مرة في حياتها ترى الثلوج تهطل، وعلمها جواهرلال كيف تصنع الكرات الثلجية، وأخذ الاثنان يتقاذفان بكرات الثلج.[13]

في حقيقة الأمر كانت جنيف المكان الذي وقعت إنديرا فيه في حب الجبال، بجمالها ومنحدراتها وبالمنظر البانورامي الذي تقدمه، وفيما بعد لقبها الآخرون ولقبت هي نفسها بـ«ابنة الجبال»، بسبب حبها — الذي

يصل لحد الاستحواذ — لكشمير، ولكن أول لقاء لها مع الجبال كان في سويسرا لا الهند، ولم يكن تشربها للاعتقاد الكشميري أن جبلًا — حتى جبال الألب — لا يستطيع أن يباري الهيمالايا إلا بعد ذلك بكثير.

في ٦ يونيو/حزيران ١٩٢٦ ارتكبت إنديرا خطأً فكتبت — وهي في عمر الثامنة والنصف — أول خطاب لوالديها وهي معهم في المنزل في جنيف، وهو بالمناسبة لا يزال موجودًا، قالت في خطابها:

أمي وأبي الحبيبان،

أنا آسفة لأني لم أتصرف جيدًا. ولكن من اليوم سأتصرف جيدًا. وإذا لم أفعل لا تتحدثا إلي. وسأبذل قصاري جهدي لأتصرف جيدًا، وسأفعل كل ما تتطلبانه مني.

بكل الحب، ابنتكم إندو[14]

مهما كان حجم الخطأ الذي ارتكبته فهو تغير عن سلوكها المعتاد، وأوفت إنديرا بوعدها، ومع أنها كانت طفلة ذكية وتسبق سنها فلم تكن متسلطة أو صعبة المعاشرة، بل كانت في الحقيقة «فتاة حسنة السلوك» — محبة للتعلم وهادئة ومطيعة وليست كثيرة المطالب — ليس في سويسرا فقط بل في معظم أوقات طفولتها، هذا بالإضافة إلى أن كامالا كانت غالبًا مريضة مما يعني أنه كلما كبرت إنديرا ازداد دورها في العناية بوالدتها، عاكسة بذلك العلاقة المعتادة بين الوالدة والابنة. شجعها والداها على الاستقلال، وذكرت إنديرا لاحقًا إنها شعرت بأنهما ضعيفان وبحاجة لحمايتها، والوقت الوحيد الذي تشعر فيه إنديرا أنها قد تُمثل عبئًا إذا أصابها المرض، وبالفعل أصيبت إنديرا بالالتهاب الشعبي — مشاركة في العديد من الأعراض التي كانت كامالا تعانيها — في أواخر ربيع ١٩٢٦ بعد وقت قصير من وصول عمتها بيتي.

فزع نهرو عندما أصيبت إنديرا بالنزلة الشعبية؛ إذ استيقظ الخوف الدائم من أن يكون لديها استعداد للإصابة بمرض السل فيما بعد، وبُعثت البرقيات إلى مدينة الله آباد تطلب المزيد من المعونات المادية، حيث «فُحصت إنديرا على نحو كامل بواسطة أطباء الأطفال وأطباء آخرين» في سويسرا،

ومما أراح نهرو وكامالا أن الفحوصات والاختبارات لم تكشف عن أي «خلل عضوي»، لكن وكما قال نهرو: «من الواضح أن صحتها أقل من الطبيعي.» فبدأ نهرو يعتقد أن مرض ابنته عضوي ذو أسباب نفسية، ولأنه رجل يتمتع بصحة جيدة ويتناول طعامه باقتصاد ويمارس اليوجا والرياضة على نحو منتظم، كان نهرو يعطي أهمية كبرى للياقة البدنية، ولا يستطيع تحمل فكرة مرض الآخرين، ومن ثم كانت شكوته من «ضعف إنديرا الطفولي» ورأى أنها دائمًا تأكل على نحو أفضل إذا كانت بعيدة عن المنزل.[15]

وهكذا قرر نهرو في صيف عام ١٩٢٦ إرسال إنديرا إلى مدرسة في الجبال حيث «الرفقاء المناسبون» ولن يكون هناك مجال «للتدليل والنقاش و[لن تكون هناك] محاولة للإطعام ونفور من الطعام.»[16] ومع «أنها لم تكن شغوفة بالالتحاق» بالمدرسة الجديدة فقد أخرجت إنديرا من المدرسة الدولية، وكتب نهرو إلى نان بانديت إن إنديرا «لا تزال ضعيفة وواهنة»، وأنه قد طَعّمها قبل أخذها في رحلة لمدة أربع وعشرين ساعة من جنيف إلى شيسيير حيث تقع المدرسة الجديدة،[17] ومن هناك كتبت إنديرا إلى كامالا وجواهرلال في ٢٧ يوليو/تموز:

إلى أبي وأمي الحبيبين،

> هل أعطيتماني فرشاة أسنان جديدة؟ اسأل أمي هل حبل القفز عندكما، لا أستطيع أن أجده. شكرًا على خطابكم ... بالأمس قضى الأطفال جميعًا الوقت في حمام السباحة وممارسة الرياضة البدنية. أخبروني عن جنيف. سأكتب لكم خطابًا أطول في المرة القادمة. أعطوا عمتي [بيتي] خطابها.
>
> كل الحب من ابنتكم الصغيرة المحبة إندو[18]

قبل أن يصل هذا الخطاب لوالديها بعث إليها نهرو خطابًا من جنيف عبر فيه عن قلقه قائلًا: «هل نسيت أمك وأباك؟ ألم تعدينا بأن تكتبي إلينا كل يوم؟» ردت إنديرا على هذا الخطاب في الثاني من أغسطس/آب قائلة: «أمي وأبي الحبيبان شكرًا على خطابكم. اسأل أمي عن رقم فرشاة أسناني

الجديدة، وأين جبل روشير دي ناي؟ لقد استمتعنا كثيرًا بالأمس ... كيف حالكم؟ كل الحب من ابنتكم المحبة إندو.»[19]

ظلت خطابات إنديرا لعدة أشهر مقتضبة مثل هذين الخطابين الأولين، فواضح أن شاغلها الأكبر فرشاة أسنانها، لكنها لم تخبر والديها عن كونها غير سعيدة في شيسيير، المدرسة التي تديرها إحدى العائلات ويرأسها رجل ضخم الجسد يدعى السيد مولر له «رقبة ضخمة أشبه برقبة الثور ذات لحم كثيف»، عامل السيد مولر وزوجته التي تضاهيه دمامة مجموعة الأطفال الصغار مثل الخدم؛ فجعلوهم يعملون لساعات طويلة في الحديقة، وقطع الأخشاب، وحمل الأوعية الثقيلة من نبات إبرة الراعي «ليتعرضوا لأشعة الشمس»، والطلبة الذين لا يحسنون التصرف يعاقبون بالحبس الداخلي ويُطعمون الخبز المجفف، ومع هذا كان لإنديرا في شيسيير صديقة حميمة اسمها مارجوت، وهي فتاة من سان سلفادور، وجذبت أنظار أول معجبيها، وهو صبي فرنسي في التاسعة من عمره اسمه كلود، غير أنها لم تبادله الإعجاب.[20]

وإذا عدنا إلى جنيف نجد أن كامالا قد أنهت جرعاتها العلاجية المكلفة من لقاح سبالينجر بحلول الصيف، وفي ١١ أغسطس/آب كتب نهرو إلى صديقة القديم سيد محمود: «كامالا بخير، وإندو أيضًا التي تقطن الجبال الآن، أما أنا فإنني بخير.»[21] ولكنه بعد شهر عاد وأخبر محمودًا في ١٢ سبتمبر/أيلول «يؤسفني القول إن كامالا ليست بخير» فقد ارتفعت درجة حرارتها ثانية والأطباء يعتقدون أن «المرض لا يزال موجودًا.»[22] وفي ذلك الوقت نصح الأخصائيون بنقل كامالا إلى مونتانا، وهو منتجع صحي يقع في مرتفعات جبال الألب في إقليم فاليه جنوب شرق بحيرة جنيف، رحلت كامالا ونهرو وبيتي في منتصف أكتوبر/تشرين الأول إلى مونتانا حيث مصحة دكتور تيودور ستيفاني الشهير المعروفة باسم «لو ستيفاني» لعلاج مرض السل الرئوي التي استقطبت مرضى السل الرئوي الأغنياء منذ إنشائها في تسعينيات القرن التاسع عشر.

وفي نوفمبر/تشرين الثاني سافرت إنديرا للاحتفال بعيد ميلادها التاسع وحدها من شيسيير إلى مونتانا لرؤية والديها بعد غياب دام قرابة الخمسة

أشهر، وسكنت في نُزُل صغير بالقرب من المصحة وكانت تزور والدتها مرتين في اليوم، ومنذ أول سقوط للثلوج على المرتفعات مارست إنديرا التزلج على الجليد في شيسيير، ثم باتت تمارسها الآن بصحبة والدها، كان الأمر يبعث على البهجة، أضف إلى ذلك الجمال من حولهما المتمثل في أعلى قمم سويسرا الغارقة في أشعة الشمس، يا له من مشهد في غاية الروعة! كتب نهرو إلى نان بانديت عن اعتقاده بأن «التزلج هو أفضل الرياضات التي يستمتع بها على الإطلاق، إلا فيما يخص لعبة الحياة والثورة المثيرة دائمًا»، وأضاف عن «إندو» أنها «تتقدم باستمرار في رياضة التزلج.»[23] أزالت ممارسة الرياضة البدنية في هواء المرتفعات النقي البارد الشكوك والقلق من قلب نهرو على المستويين الشخصي والسياسي، وشعر أنه انعزل عن الهند، كانوا لا يرون سوى القليل جدًّا من الهنود بل القليل من الناس عامة بعيدًا عن «المستعمرة الصغيرة» في المنتجع الجبلي.

كانت مونتانا منتجعًا وملعبًا للأغنياء المترفين بالإضافة إلى كونها مأوى للمرضى والموشكين على الموت، جو غريب على إنديرا؛ فمن ناحية هناك المصحة الخاصة بمرضى السل الرئوي، الذين كان معظمهم في «حالات متأخرة» ووالدتها ترقد على سرير أبيض في غرفة مفتوحة الباب والنوافذ لإفساح المجال لنفاذ هواء الجبال البارد إليها، ومن ناحية أخرى هناك العشرات من الفنادق الأنيقة المليئة بالأجانب القادمين من جميع أنحاء أوروبا وأمريكا، الذين يخصصون نهارهم لممارسة التزلج على الجليد، أما ليلهم فللاحتفالات والحفلات الموسيقية أو عروض رقص الباليه على الجليد. واستطاعت إنديرا أن تلاحظ التوتر المتصاعد بين الطبقتين المختلفتين من زوار مونتانا؛ فالمرضى وهؤلاء الذين جاءوا لقضاء الإجازة يستاء بعضهم من بعض، والعلاقة بين الأطباء والمسئولين عن الفنادق تتسم بأنها أقل ودًا، والفنادق من أمثلة بالاس بيلفو وليدن ولو رويال ولو كونتيننتال تضع لافتات كبيرة تقول «لا نقبل المرضى.»[24]

عادت إنديرا إلى مونتانا ثانية في عيد الميلاد، وفي خلال هذه الإجازة الطويلة اعترفت أخيرًا كيف أنها لم تكن سعيدة في شيسيير، بحث نهرو عن مدارس أخرى في المنطقة ورتب لها أن تنتقل إلى مدرسة «إيكول نوفيل» في

بيكس، التي تستغرق الرحلة إليها ساعتين مما يعني أنه قد صار بإمكانها زيارة والديها والتزلج مع والدها كل نهاية أسبوع تقريبًا. وعلى غرار المدرسة الدولية التابعة لعصبة الأمم كانت هذه المدرسة هي الأخرى معهدًا دوليًّا، وجميع التلاميذ بها فتيات تتراوح أعمارهن بين التاسعة والثمانية عشر قادمات من أمريكا الجنوبية والولايات المتحدة والهند وأوروبا، كانت مدرسة إيكول نوفيل توجد في ضيعة جميلة وواسعة خارج بيكس اسمها «لا بيلوز» La Pelouse بناها في الأصل مهاجر روسي ثري، أقامت إنديرا في كوخ سويسري مدهون بألوان زاهية، وتحيطه أشجار التفاح والكمثرى والكستناء ومزارع الكروم، وتستطيع من نافذتها رؤية سلسلة جبال دونت دو ميدي عبر الوادي وقممها مغطاة بالجليد، وناظرة المدرسة، الآنسة ليدي هيمرلين، امرأة سويسرية ذكية وطيبة تبلغ من العمر خمسين عامًا، ومع ذلك وصفتها كلمات إنديرا بأنها «قاسية للغاية في التدريبات البدنية وصارمة في فرض النظام.»[25]

لا تفصح ذكريات إنديرا عن بيكس فيما بعد الكثير عن المنهج الدراسي أو نوع دراستها، فبدلًا من ذكر الكتب التي قرأتها وتعلمتها لم يكن ما تذكرته إنديرا عن إيكول نوفيل سوى أمور على شاكلة أن أول ما كانت تفعله عند استيقاظها في الصباح هو الحصول على «حمام بارد، أو بالأحرى ثلجي — مهما كانت حالة الجو — ... ثم كنا نجري في الحديقة مرتدين سراويل قصيرة، وفي أيام الخميس والأحد نهرول ساعتين، وفي الأيام الأخرى فترة مماثلة من التمارين البدنية أو الألعاب الرياضية، والنوافذ ... تبقى مفتوحة» طوال الوقت.[26] كان هذا هو تمامًا الجو المنشط الذي أراده والدها لها، وفي الحقيقة تحسنت صحة إنديرا في مدرسة إيكول نوفيل، بل أحبت العمل في الحقول الذي يطلب من جميع التلاميذ القيام به في فصل الخريف والذي تضمن قطف ثمار التفاح والكستناء وجمع العنب من المزارع.

تحسنت حالة كامالا ببطء في مصحة دكتور ستيفاني واستطاع نهرو وأخته بيتي بالتدريج تركها والقيام برحلات قصيرة إلى باريس وبرلين ولندن، وتوجها أيضا في فبراير/شباط ١٩٢٧ إلى بروكسل لحضور مؤتمر الشعوب المضطهدة الذي كان من نتائجه إنشاء الرابطة المناهضة للإمبريالية.

على الناحية الأخرى كان من المنتظر حضور موتيلال نهرو في آخر الربيع في نفس الوقت الذي شعرت فيه كامالا بتحسن شديد — وكان نظام المصحة قد أصابها بالضجر — حتى إنها أعلنت عن رغبتها في مصاحبة للآخرين في «الرحلة الأوروبية الكبيرة» التي نظمها موتيلال لهم جميعًا، بمن في ذلك إنديرا.

بدأت إجازة إنديرا الصيفية في منتصف أبريل/نيسان، ولكن بعد وصولها بوقت قصير إلى مونتانا وصلت برقية من الهند تفيد بأن موتيلال أجل رحلته لأوروبا لثلاثة أشهر آخرين على الأقل، فهو متورط في نزاع قانوني قديم، والفصل في هذا النزاع يتأجل باستمرار وها هو الآن يتسبب في تأخيره لسفره، وبالإضافة إلى ذلك انشغل أيضًا في ذلك الحين ببناء منزل جديد للعائلة، ولم يكن البناء يسير بسرعة هو الآخر. وكان جواهرلال يعتقد لسنوات أن آناند بهافان، حتى في ظل تردي مستوى القصر، منزل ضخم للغاية عليهم وأنهم يجب أن يسكنوا في منزل أصغر وأكثر بساطة، وبعد سفره مع كامالا وإنديرا إلى أوروبا بدأ موتيلال في إنشاء منزل جديد على أرض آناند بهافان، ولفترة ما على الأقل ظل الأمر في إطار متواضع إلى حد ما، ولكنه كان من الصعب على موتيلال — حتى مع ظروفه المالية الضيقة — أن يقوم بعمل أي شيء على نحو غير متقن، ومن ثم كان من المحتم أن يُبنى آناند بهافان الجديد — مع صغر حجمه مقارنة بالقصر الأصلي — بأسلوب معماري أنيق مزخرف فصُمِّم البناء على شكل كعكة الزفاف، وتكون المبنى من طابقين وعدد كبير من الغرف، وكانت له شرفة دائرية، وتحيط به حدائق كبيرة. ونتيجة لهذا لم يكن المنزل قد انتهى عندما خطط موتيلال في الأساس للإبحار إلى أوروبا في مايو/أيار ١٩٢٧.

وإذا انتظروا وصول موتيلال فسيطول الانتظار حتى سبتمبر/أيلول أو بعد ذلك، وهو الوقت الذي سيكون على إنديرا العودة فيه إلى المدرسة، وكان جواهرلال يشعر أن إنديرا يجب أن تتعرف على باريس ولندن قبل عودتها إلى الهند، بالإضافة إلى أن كامالا شعرت بالقلق والضيق وتاقت لمغادرة مونتانا. ومن الواضح أنهم عندئذ كانوا على استعداد لاختصار رحلتهم عما كان مخططًا من قبل، ولكن منعهم ضيق ذات اليد، ثم وصلت إليهم برقية

من مدينة الله آباد مفادها أن موتيلال يحثهم على البدء في السفر دونه وبعث إليهم حوالة بمبلغ ٥٠٠ جنيه استرليني، وغادر جواهرلال وكامالا وبيتي وإنديرا مونتانا في الأول من شهر مايو/أيار.

ووصلوا إلى باريس في اليوم التالي حيث وجدوا فندقًا رخيص التكلفة في حدائق موتسارت Mozart Gardens، كان الوقت ربيعًا حيث الأشجار مزهرة في الشوارع، وهناك زاروا قوس النصر وكاتدرائية نوتردام وبرج إيفل ومتحف اللوفر، ولكن ما بقي حيًّا ينبض في ذاكرة إنديرا فيما بعد هو عدد الأشخاص المبتورة أطرافهم بعد إصابتهم أثناء الحرب العالمية الأولى؛ رأت إنديرا هؤلاء الأشخاص في الشوارع وداخل المترو حيث كانت فيه مقاعد مخصصة «لمعاقي الحرب»، وبجانب المزارات السياحية المعتادة أخذها جواهرلال إلى سجن الكونسيرج، وهو مكان بغيض شأنه شأن سجن نايني في مدينة الله آباد.[27] وفي إحدى الليالي خرجوا لمشاهدة مسرحية «دراكولا» المثيرة التي حظيت بشهرة كبيرة آنذاك، ولإضفاء الجو المناسب على المسرحية وُضِعت عربات الإسعاف خارج المسرح، وتهيأت الممرضات بأزيائهن داخل الصالة لمعالجة الأفراد من المشاهدين الذين يفقدون وعيهم من الرعب، وأثناء العرض فُتحت الأبواب والنوافذ فجأة وطار مصاص الدماء إلى الداخل مربوطًا بأسلاك غير مرئية.[28]

وفي الليلة التالية ذهبوا لمشاهدة مسرحية «القديسة جوان» لجورج برنارد شو، التي لم يكن تأثيرها قويًّا لكن كان عميقًا في نفس إنديرا، ويبدو للعيان أن شخصية جان دارك من ضمن العوامل التي أثرت بشدة على إنديرا في طفولتها، وإن لم يتضح هذا الأمر إلا فيما روته إنديرا بعد توليها منصب رئيسة الوزراء؛ عندما كانت إنديرا طفلة كتب نهرو عن جان دارك في العديد من الخطابات التي أرسلها لها وأيضًا في كتاب «لمحات من تاريخ العالم»، في حين أن إنديرا نفسها لم تذكرها أبدًا في خطاباتها الشخصية، ولا يوجد سوى نذر يسير من الأدلة المعاصرة تؤكد على أهمية قصة جان دارك لإنديرا والمثل الأعلى الذي مثلته لها؛ ففي كتاب كريشنا نهرو «نحن آل نهرو»عام ١٩٦٨ الذي قصت فيه ذكرياتها العائلية، وأيضًا في كتابها عن سيرة إنديرا الذي نشر بعد ذلك بعام، مزاعم أن ابنة أخيها في طفولتها

كانت تقف في شرفة آناند بهافان ممسكة بأحد الأعمدة بذراعها وترفع الذراع الأخرى في الهواء عاليًا قائلة: «أنا أمارس دور جان دارك ... وفي يوم ما سأقود شعبي إلى الحرية مثلما ... حدث بالفعل.»[29] ولكن هذا الوصف الرومانسي لإنديرا وربطها بجان دارك الملقبة بـ«عذراء أورليانز» لم يظهر في السيرة الذاتية للعائلة التي كتبتها كريشنا ونشرتها في وقت سابق وبالتحديد عام ١٩٤٦، أي قبل وقت طويل من تمتع إنديرا بمثل تلك الأهمية السياسية.

وعندما أصبحت إنديرا رئيسة للوزراء باتت متضاربة مع نفسها فيما يخص دور جان دارك في حياتها، فمن ناحية تقول: «انبهرت بجان دارك لأنها حاربت البريطانيين ولأنها فتاة، وقد جعلها ذلك أقرب إلى نفسي من الآخرين ممن قاتلوا من أجل الحرية.»[30] وقالت لأحد كتاب السيرة الذاتية عام ١٩٦٧ إن استشهاد جان دارك هو تحديدًا ما جذب انتباهها؛ «لقد أعدمت حرقًا على الخازوق، وكان هذا الحدث هو الأبرز حتى إنني تخيلت لنفسي مصيرًا كمصيرها.»[31] ولكن من ناحية أخرى لم نجد لجان دارك أبدًا أي ذكر في مراسلات إنديرا أو مقابلاتها أو ذكرياتها أو خطبها خلال السنين التي سبقت توليها السلطة، وقد أخبرت إنديرا إحدى كاتبات السيرة فيما بعد — وقد كانت إنديرا دائمًا أكثر صراحة مع محاوريها الإناث من المحاورين الرجال — أنها لا تتذكر أن جان دارك مثلت لها أهمية وهي طفلة، واعترفت أنها عندما كبرت ذكرها نهرو بأن هذه كانت هي الحالة،[32] فيبدو أن جان دارك كانت مثلًا أعلى لها في الماضي، وهي أحد المكونات الرئيسية التي ساعدت إنديرا فيما بعد في سرد الأساطير حول طفولتها وتطورها السياسي.

ومن أكثر الأحداث إثارة لإنديرا في باريس هبوط تشارلز ليندبرغ في مطار لو بورجيه في ٢١ مايو/أيار بعد عبوره المحيط الأطلسي منفردًا في رحلة استغرقت ثلاثة وثلاثين ساعة ونصف في طائرته التي أطلق عليها اسم «سبيريت أوف سانت لويس» Spirit of St Louis أحادية المحرك، كانت إنديرا الجالسة على كتف نهرو واحدة من الحشود الهائلة التي شاهدت هبوط ليندبرغ ثم حيته بحرارة عندما خرج من الطائرة. كان نهرو مفتونًا

بالطيران منذ رحلة كيتي هوك التي قام بها الأخوان رايت عام ١٩٠٣، وعندما تحول لمدة قصيرة للثيوصوفية في فترة المراهقة بدأ يحلم «بالأجسام السماوية وتخيل [نفسه] يطير لمسافات طويلة»، وظل «حلم الطيران عاليًا في الهواء (دونما تطبيق أبدًا)» واحدًا من أحلامه الدائمة طوال حياته،[33] إلى جانب أن جواهرلال وموتيلال، وقبل رحلة ليندبرغ عابرة الأطلسي بثمانية عشر عامًا، وقفا في برلين ضمن جموع تجاوز عددها المليون شخص لمشاهدة هبوط الكونت تسيبلين في طائرته، وبعد شهرين شاهد الاثنان طيران الكونت دي لامبرت حول باريس ودورانه حول برج إيفل، ولكن كل هذه الأحداث تعتبر لا شيء مقارنة برحلة ليندبرغ البطولية التي كانت «مثل السهم اللامع حول الأطلسي.»[34] أثارت هذه الرحلة إنديرا مثلما أثارت والدها، ومع أنها لم ترث من والدها التعلق بالطيران فإن ابنيها بعد وقت طويل قد فعلا.

ومع مرور الأيام واستمرار نهرو وإنديرا في زيارة الأماكن السياحية في باريس كان الوقت الذي تجلس فيه كامالا وحيدة في الفندق يزداد، مصابة بالعديد من الأعراض القديمة التي كانت تعانيها كالصداع و«الأزمات القلبية» — وهو الاسم الذي أطلقته على سرعة خفقان قلبها — وفقدان الشهية والإعياء والإرهاق، وأصبحت مكتئبة بشدة، وقد تعرفنا على حالتها النفسية خلال ربيع وصيف عام ١٩٢٧ لأنها كتبت سلسلة من الخطابات التي تميزت بنوع من المصارحة الشديدة إلى سيد محمود خلال تلك المدة؛ لم يكن محمود صديقًا قديمًا وزميلًا عاملًا لجواهرلال في حزب المؤتمر فحسب، فقد كان يُعلم كامالا اللغة الأردية منذ مطلع عشرينيات القرن العشرين، وخلال الدروس نمت بينهما علاقة وطيدة، وبعد أن أهملها معظم الكبار في آناند بهافان وغياب زوجها معظم الوقت لجأت كامالا إلى محمود ووثقت به كما لو كان أخاها.

في أحد خطاباتها الأولى التي بعثتها من باريس إلى محمود لم تتظاهر كامالا بأنها في صحة جيدة أو بكونها سعيدة إذ قالت: «إن المرض المستمر يجعل الحياة غير محتملة ... أشعر بأنني عديمة الفائدة للعالم وأنني أثقل عليه لأنني لا أفعل شيئًا غير الأكل والنوم فقط ... إنني حمل ثقيل على الجميع. كم أتمنى لو تأتي نهايتي قريبًا. إن أخاك [جواهرلال] لا يستطيع القيام بعمله بسببي.»[35]

وفي خطاب آخر بتاريخ ٤ مايو/أيار كانت حالتها النفسية أسوأ إذ جاء فيه: «إن الموت أهون عليّ من مثل هذه الحياة، ولكن حتى الموت يخشاني ... كنت أشعر بالسعادة عندما ظننت أن مرض السل الرئوي سيريحني من هذه الدنيا، ولكني لم أكن أعرف أن الموت نفسه يهابني ... وحدهم الأغنياء والأصحاء يجب أن يأتوا إلى هنا [باريس]. إنني أرى نفسي سجينة هنا ... فكلهم خرجوا للتنزه، أما أنا فبقيت وحيدة بالمنزل.»[36]

ازدادت عزلة كامالا وصمتها، وكانت هي وإنديرا في تناغم تعرف كل منهما حالة الأخرى ومن ثم لاحظت إنديرا اكتئاب كامالا، وفي النهاية لاحظ نهرو الأمر أيضًا وقرر الرحيل إلى لندن.

وفي إنجلترا ازدادت الأمور سوءًا، فقد واجهوا صعوبة في حجز غرف بفنادق لندن، وشرحت كامالا الأمر في خطاب إلى سيد محمود قائلة: «لقد وصلنا إلى لندن في الأول من يونيو/حزيران، لم تروقني لندن من اللحظة الأولى لوصولنا إلى المحطة، وكلما ازدادت مدة إقامتنا ازداد كرهي للمكان ... لقد كان اللون عاملًا يثير الارتياب في كل مكان، فأينما ذهبت تجد إجابة برفض إقامة رجل أسود ... لقد ازداد كرهي للإنجليز بشدة ... فنحن هنا في كل خطوة ندرك أننا عبيد.» واستطردت كامالا قائلة: ولكن في سويسرا «فنحن ... لم نشعر أبدًا بكوننا أغرابًا.»[37]

وفيما بعد ذهبوا إلى منتجع بريتون الفاخر قرب البحر لعشرة أيام حيث وجدوا في كل شبر شعورًا بالعداء، فعادوا إلى لندن لقضاء عدة أسابيع، اصطحب نهرو إنديرا إلى متحف التاريخ الطبيعي في مدينة ساوث كينجستون حيث رأت الحفريات والآلات التي تعود للعصر الحجري وهياكل الديناصورات الضخمة، واصطحبها إلى المتحف البريطاني حيث شاهدت المومياوات المصرية، ثم إلى مبنى البرلمان، وزاروا كريشنا مينون، وهو رجل صغير يتسم بالغرابة والهزال بأنفه الذي يشبه المنقار وعينيه الغائرتين، الذي تحدث بقوة عن إنشاء منظمة للسعي خلف استقلال الهند.[38]

أما هناك في فندق بيركلي فكانت كامالا لا تزال على مراسلاتها مع محمود، وأحد المواضيع الملحة في هذه الخطابات ضرورة تعليم بناته وتحريرهن وزوجته من نظام الحجب الهندي، ومن الواضح أن كامالا

ناقشت هذا الأمر مع محمود قبل أن تغادر مدينة الله آباد وكانت تسأله عما اتخذ من رد فعل في كل خطاب أرسلته من أوروبا تقريبًا، وعندما ظل صامتًا هددته كامالا بقولها: «لن أخبرك بأي شيء عن حالتي الصحية حتى تخبرني أنباء سارة بأن الترتيبات الخاصة بتعليم بناتك قد تمت.»[39]

كانت مشاعر كامالا الانفعالية حول تعليم النساء شخصية وسياسية في آن واحد، فأخبرت محمود أنه من التناقض تمامًا — بل من الزيف والنفاق — أن يكرس نفسه لاستقلال الهند ثم يحرم بناته من التعليم، وقالت: «هل يمكنك أن تتخيل بلدنا حرة دون تعليم النساء؟ ... إنكم تتركوهن يتعفنّ في ظل نظام الحجب و... وتغلقون عقولهن.»[40] وأدانت سلوك محمود من الناحية الأخلاقية إذ استطردت: «هل واجبك أن تأتي ببنات إلى الدنيا ثم تتركهن وحيدات مثل الحيوانات؟ في رأيي جميعكم [أيها الرجال] شديدو الإثم.» وتابعت مهددة «وسيأتي الوقت الذي فيه تُحرر المرأة [و] يبقون عليكم أنتم في الحجب.»[41]

إن المفارقة في النقاش الدائر بين كامالا ومحمود تظهر في حقيقة أن محمودًا هو معلم كامالا، ومن ثم فإنه يعد محررها بدرجة ما، مفارقة أدركتها كامالا وأوضحتها له، وفي رجائها له حتى يعلم بناته أوضحت كامالا كيف أن نقص تعليمها أفسد حياتها، واستطردت قائلة له: «عندما أنظر إلى مأساتي أعتقد أنه يجب إنقاذ الفتيات الصغار من مأساة تبديد حياتهن، مثلي ... لقد تحطمت حياتي بكل ما في الكلمة من معان ... وأكثر ما يدعو للأسف أني أنا نفسي لست بالقدر الكافي من الذكاء الذي يؤهلني لتعليم الآخرين. لا بد أن أكبت شغفي تجاه الأشياء.»[42]

كانت مناقشة كامالا مع محمود مشحونة بشعورها الشخصي بالندم والتفاهة، وكان هذا هو السبب في مخاوفها المستمرة بشأن تعليم إنديرا، فقد قالت في أحد خطاباتها لمحمود: «عند عودتنا [إلى الهند] ستواجه إندو الكثير من الصعوبات لأنه لا توجد مدرسة تعجبني في مدينة الله آباد.»[43] ومن ثم كان العزاء الأكبر لكامالا في كونها في أوروبا هو شعورها أن إنديرا أخيرًا تحظى بالتعليم المناسب.

ومع أن إنديرا نفسها كانت دائمًا تنكر فيما بعد أنها من أنصار المساواة التامة بين الجنسين فقد تأثرت كثيرًا بهذا الاتجاه في والدتها، فقد أدركت

كيف كان هذا الاتجاه جزءًا لا يتجزأ من ارتباط كامالا السياسي بحزب السواراج وكيف شكل الطريقة التي ربت بها ابنتها، من حيث إصرارها على أن تكون إنديرا إنسانة مستقلة منذ نعومة أظافرها، وأن تكون لها كل الفرص والتوقعات والمتطلبات التي كان من الممكن أن يحظى بها طفل ذكر، غير أن كامالا كانت تمثل صوتًا منفردًا سواء أكان هذا في الهند أم في عائلتها، فقد كانت حماتها سواروب راني وأخت حماتها الأرملة بيبي آما نموذجين بدائيين للسيدات الهنود التقليديات، مع أن كونهن كشميريات جعلهن لا يخضعن لنظام الحريم الذي يعزل النساء عن الرجال الغرباء، أما نان بانديت وبيتي فقد كانتا متفرنجتين ولكنهما لم تطالبا بالمساواة بين الجنسين إلا فيما ندر، ولم تنالا تعليمًا متميزًا؛ حيث كان موتيلال نهرو، عندما كانت بناته يترعرعن في العقد الأول من القرن، أبًا متشبعًا بالأفكار التقليدية التي حطت من مكانة المرأة وسادت عصر الملك إدوارد السابع، ومع أنه أنفق الكثير من المال على جواهرلال في هارو وكمبردج فإنه لم يكن يرى أي فائدة من إرسال نان وبيتي إلى المدرسة، وحتى بعد بداية حركة عدم التعاون ونداء غاندي لنساء الهند بالقيام بدور نشط قاوم موتيلال رغبة بيتي في أن تتدرب لتصبح معلمة حتى تدخل جواهرلال نيابة عنها.

ومن إنجلترا انتقلت عائلة نهرو إلى برلين وهايدلبرج في بداية شهر يوليو/تموز، وهذا كان مبعثًا لسعادة كامالا حيث كتبت لمحمود: «جميع الأماكن محببة لقلبي أكثر من لندن.»[44] ثم أرسلت إنديرا وحدها لمعسكر صيفي للأطفال في بلدية آنيسي بفرنسا، قرب الحدود السويسرية، وعادت كامالا وجواهرلال إلى باريس. وفي أغسطس/آب عادوا إلى لندن مما أثار امتعاض كامالا، حيث كتبت إلى محمود في يوم ٢٠ أغسطس تقول: «جواهر ... ذاهب إلى آنيسي لرؤية إندو ... لقد كتب لنا صديق يخبرنا أنها تبدو أفضل بكثير. أتمنى أن يسمن جسدها قليلًا، فهي نحيفة للغاية. يبدو أنها سعيدة هناك. سيأتي باباجي [موتيلال] إلى هنا في سبتمبر.»[45]

قبل أن يصل موتيلال في النهاية في بداية سبتمبر/أيلول ١٩٢٧ كانت إنديرا قد عادت إلى المدرسة في بيكس، وبقيت هناك في حين تقوم كامالا وجواهرلال وبيتي وموتيلال في ذلك الوقت برحلة في عواصم أوروبا التي

خطط لها موتيلال، حيث يقضون وقتهم في فنادق الدرجة الأولى (التي كانت معارضتها لإقامة الهنود أقل — ما داموا أثرياء — عكس تلك الفنادق الرخيصة التي اختارها جواهرلال) وزيارة المزيد من الأطباء المتخصصين، وفي بداية نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٢٧ ذهبت عائلة نهرو إلى موسكو للاحتفال بالذكرى العاشرة لقيام الثورة الروسية، ومن هناك بعث نهرو في العاشر من نوفمبر/تشرين الثاني بطاقة بريدية إلى إنديرا في بيكس قائلًا: «نحن الآن في موسكو في روسيا. سآتي إليك قريبًا. أتمنى أن تكوني بخير. مع حبي، أبوك.»[46]

كان وعد نهرو باستعادة إنديرا هو سبب قراره النهائي بالعودة إلى الهند بعد سنة وتسعة أشهر بالخارج، كان موتيلال يرغب في البقاء لوقت أطول وقال إنه سيبقى في أوروبا عدة أشهر بعد رحيل جواهرلال وكامالا وإنديرا وبيتي في مطلع ديسمبر. لم تكن كامالا قد شُفيت تمامًا، ولكن مرض السل الرئوي الذي أتى بهم في المقام الأول إلى أوروبا كان خاملًا، وجواهرلال نفسه حسب وصفه «في حالة بدنية وذهنية جيدة.»[47] وفي حقيقة الأمر كان الوقت الذي قضاه بالخارج حاسمًا له أكثر مما كان لزوجته، فقد صاغ للأبد فكره الثقافي والسياسي؛ فكون علاقات مهمة مع مفكرين وقادة سياسيين أوروبيين شاركوا في ميلاد الرابطة المناهضة للإمبريالية، وكان شاهدًا على الشيوعية في عقر دارها في روسيا، ومن ثم أسهم كل هذا في إعادة شحن عقله بل تجديده، وبات يتوق للعودة إلى المعترك السياسي في الهند.

تُرى ماذا عن إنديرا — التي أصبحت في العاشرة من عمرها حينما كان والداها وعمتها وجدها في روسيا — كيف تغيرت؟ لقد زاد طولها عدة سنتيمترات، حقًّا لقد كادت أن تلحق بكامالا سريعًا، وامتلأت قليلًا أيضًا وأصبح جسدها قويًّا بفعل ممارستها للركض والتزلج، وفي ذلك الحين باتت تتحدث الفرنسية بطلاقة، وتقدم مستواها في اللغة الألمانية، وقد راقت لإنديرا ما تعرضت له من ثقافة أجنبية ومشاهد طبيعية خارجية، وأصبحت معتمدة على نفسها وصلبة على نحو ملحوظ نتيجة حياتها بعيدًا عن والديها وسفرها وحدها.

في حقيقة الأمر لم تكن إنديرا طفلة صغيرة عندما أبحروا من مرسيليا في ٢ ديسمبر/كانون الأول ١٩٢٧، وخلال حياتها كانت إنديرا تشعر دائمًا أنها تبلغ العمر المناسب في الوقت المناسب، فمنحنى عمرها يرتبط بمسيرة التاريخ على نحو ما، والآن في ١٩٢٧، في عمر العاشرة، كانت إنديرا تغادر محطة الطفولة مثلما كان النضال السياسي في الهند يحقق أهدافه نوعًا ما.

الفصل الرابع

الولد إندو

وصلت عائلة نهرو إلى جنوب الهند يوم عيد الميلاد المجيد عام ١٩٢٧، بالضبط وقت الاجتماع السنوي لحزب المؤتمر في ذلك العام الذي عقد في مدينة مدراس. وفي ٢٧ ديسمبر/كانون الأول، كانت إنديرا وكامالا يجلسان وسط الجماهير المحتشدة عندما صعد نهرو على المنصة لإلقاء كلمته، وأعلن للمرة الأولى في تاريخ حزب المؤتمر القومي الهندي منذ تأسيسه عام ١٨٨٥ أن «حزب المؤتمر يعلن أن هدف الهنود هو الاستقلال الوطني التام.»[1] ومع أن نهرو تحدث بلكنته الإنجليزية الصحيحة وبلهجة حادة غير أن كلماته كانت بمنزلة صيحة الحرب، ولم يلق كلمته باللغة الهندية إذ كانت مدراس تقع في الجزء الجنوبي الذي يتحدث اللغة التاميلية.

ولم تكن صيحة الحرب هذه موجهة ضد البريطانيين وحدهم؛ فقد رفض موتيلال نهرو وغاندي تبني وجهة النظر المنادية بقطع كل ما يربط الهند ببريطانيا دون شروط إذ أرادا الاستقلال عن طريق تحويل الهند إلى دولة تتمتع بالحكم الذاتي مع بقائها تابعة للإمبراطورية البريطانية.[2] أما نهرو — الذي أصبحت رؤيته السياسية أكثر تطرفًا في أوروبا — فقد كان يريد التخلص من كل الصلات الاستعمارية، ومن ثم أصدر قراره المطالب بالاستقلال التام، مع أن هذا القرار لم يلبث سريعًا إلا وقد عُدل وخُفِّف ليصبح نوعًا من أنواع «الزيف» على حد وصفه، ومع هذا فقد كانت اللعبة قد بدأت، ليس على مستوى الكفاح بين بريطانيا والهند فقط، بل داخل الرتب الخاصة بحزب المؤتمر، وما هو أهم لإنديرا داخل أسرتها.

عاد جنوب الهند (المنطقة الاستوائية) إلى الهند، وحتى في ديسمبر/كانون الأول كانت مدراس حارة الجو، فالشمس حارقة فوقهم، والنخيل والنباتات المورقة تحيط بالمدينة، والأبقار والكلاب الهزيلة تتجول في الشوارع. بعد انتهاء اجتماع حزب المؤتمر استقلت إنديرا وكامالا وجواهرلال قطارًا قطع طريقه باتجاه الشمال عبر المحور المركزي لشبه القارة إلى دلهي، ثم إلى الغرب في الطريق المألوف إلى مدينة الله آباد الذي لم يكونوا قد رأوه منذ عامين تقريبًا.

وإذا عدنا إلى آناند بهافان نجد إنديرا تحتاج الذهاب إلى المدرسة وترغب في ذلك، ومع رفض نهرو لبريطانيا في دورة حزب المؤتمر فقد وافق على إرسالها إلى مدرسة دير سانت ماري، وهي إحدى المدارس التابعة لمؤسسة العذراء مريم المباركة؛ أنشأ هذه المدرسة في الله آباد البريطانيون عام ١٨٦٦، وتكونت من عدة مبان مهيبة مبنية بالطوب الأحمر، أقيمت المدرسة وسط أكواخ المستعمرين البيض في الحي المخصص لسكنى البريطانيين والمميز بشوارعه الفسيحة التي تصطف على جانبيها الأشجار، وتكونت هيئة التدريس بالمدرسة من راهبات بريطانيات وألمانيات، وكان معظم الطلبة من البريطانيين، أو الإنجليز الذين ولدوا في الهند مع قلة من الفتيات الهنود الأثرياء.[3]

ولعل كامالا قد تغلبت على أسباب معارضة زوجها لسانت ماري باستخدام نفس الحجة التي استخدمتها مع سيد محمود وهي أن الكفاح في سبيل الاستقلال لا فائدة منه إذا ظلت نساء الهند في جهل أو لا يتلقين تعليمًا جيدًا، وفي هذه المرة لم تناقش هي أو نهرو فكرة أن أفضل تعليم يمكن الحصول عليه هو تعليم غربي بريطاني، وكان نهرو نفسه يعلم بالطبع أن جميع قادة الحركة القومية تقريبًا — غاندي، وفالابهبهاي باتيل، وراجيندرا براساد، ومحمد علي جناح بالإضافة إليه هو — كانوا خريجي جامعتي أكسفورد وكمبردج أو الهيئات القانونية الأربع في لندن التي يجب على أي محامي مرافعات في بريطانيا وويلز أن ينتمي إلى إحداها، وهي إنر تيمبل وميدل تيمبل وجراي إن ولينكولن إن.

ولكن الذهاب إلى مدرسة غربية في الغرب أمر، والذهاب إلى مدرسة غربية في الهند أمر آخر يختلف تمام الاختلاف، وبعودتها إلى الوطن تخلت

إنديرا عن زيها السويسري وعادت إلى ارتداء الخادي الخشن، وفي يومها الأول في المدرسة اكتشفت أنها الوحيدة التي ترتديه، وقصت كاملا شعرها وتخلصت من مشبك الشعر. أما الفتيات الهنديات الأخريات القليلات فقد كن من أسر متفرنجة تدعم الحكم البريطاني في الهند، ومن ثم أعلنت ملابس إنديرا على الفور أنها من أسرة تتبع سياسة متطرفة. لم تشك إنديرا حالها لوالديها ولكنها بعد سنوات تحدثت عن شعورها «بغربة شديدة» في مدرسة سانت ماري.[4]

لم تكن الراهبات البريطانيات والألمانيات في سانت ماري يعرفن الكثير عن الهند أو عن كيفية حياة الهنود وعاداتهم، فعقب مهرجان الهولي — حيث تكون وجوه وأجساد جميع الهنود ملطخة بالمياه والمساحيق الملونة — كن يجبرن إنديرا على الوقوف على مقعد طوال اليوم لأنها لم تستطع إزالة ألوان الهولي صعبة الإزالة من وجهها ويديها.

كانت هذه المواقف هي ما تذكرته إنديرا عن مدرسة سانت ماري إذ لم يكن لديها ما تقوله عن دراستها بها باستثناء أنها «كانت تبدو بعيدة كل البعد عن الحياة التي نعيشها في المنزل مما جعلني لست في حالة تسمح لي بتقبل أي شيء ... لقد ... كان يبدو أن ما يحاولون تعليمي إياه لا علاقة له بأي شيء في الحياة.»[5] وزاد من شعورها باللامبالاة فترات غيابها الطويلة عن المدرسة كأن تتغيب لأنها ذهبت إلى موسوري في التلال وقت الصيف أو لأنها سافرت مع أسرتها، وهو نموذج لفترات دراسية مشتتة شجعت إنديرا على ما أطلقت عليه فيما بعد اسم «الازدراء الصحيح أو الخاطئ للامتحانات ... فلم أكن حقًّا أكترث أبدًا هل أجتاز الامتحانات بنجاح أم لا.»[6]

وكان جدها يشجع هذه اللامبالاة، وقد عاد موتيلال نهرو إلى الله آباد في فبراير/شباط عام ١٩٢٨، محملًا بالأثاث واللوازم الأوروبية لآناند بهافان الجديد الذي كان لا يزال تحت الإنشاء، وموتيلال هو من أصر على أن تذهب إنديرا إلى موسوري فور حلول فصل الصيف أو أن تسافر مع والديها بصرف النظر عن الدروس أو الامتحانات القادمة، ومع أنه كان يدفع مصاريف سانت ماري المكلفة خلال العامين اللذين قضتهما إنديرا هناك

فقد كان عدم اكتراثه بدراستها يعادل اهتمام جواهرلال وكامالا الشديد بها.

قد تكون الحياة في آناند بهافان عام ١٩٢٨ مختلفة عنها في سانت ماري، ولكنها كانت أقل تقشفًا بكثير عما كانت عليه خلال الأيام المبكرة لحركة عدم التعاون؛ ففي أوروبا تجدد ولع موتيلال بالملذات وبدأت الأساليب الغربية للزحف مرة أخرى على آناند بهافان برغم اعتراضات جواهرلال … فعندما عاد موتيلال من أوروبا رجع لعادته في شرب الويسكي الاسكتلندي من نوع «هاي ديمبل» برغم تحريم حزب المؤتمر لشرب الكحول، وكان يدخن كميات كبيرة من السجائر المصرية والتركية، أما وجبات سوراوب راني النباتية فلم تعد تُرى إلا في مطبخها وحجرة طعامها، وفيما يخص موتيلال فقد كان يتناول الطعام الأوروبي، الذي يعده طاه مسيحي من ولاية جوا الهندية، ومع إلحاح جواهرلال قلّت أصناف الطعام من خمس أصناف إلى ثلاث في الوجبة الواحدة.[7]

كان موتيلال يعمل طوال اليوم إما في مكتبه أو على منضدة في الشرفة، مع استراحات قصيرة لتناول طعام الغداء أو احتساء الشاي، وفي نهاية النهار يصطحب إنديرا ويسيرا معًا عبر المروج لتفقد قصر آناند بهافان الجديد، والحديقة المنمقة التي يخطط لأن تحيط بالقصر بأكمله، ثم يعود إلى مكتبه ويظل فيه حتى الساعة الثامنة والنصف أو التاسعة مساء، بالضبط في الوقت الذي تخلد فيه إنديرا للنوم في فراش الحجرة المجاورة لحجرة والدتها، ويمكنها أن تسمع صوت موتيلال وهو يصيح عاليًا «يا خادم» لينادي خادمه بهولا، وهي صيحة تسمعها إنديرا أيضًا من ابن عمها بريج كومار نهرو في غرفته عندما يكون جائعًا بشدة؛ فقد كان بريجو (كما كانت الأسرة تدعوه) البالغ من العمر تسعة عشر عامًا في ذلك الوقت طالبًا في جامعة الله آباد ويعيش في آناند بهافان. وكانت صيحة موتيلال «يا خادم» إيذانًا بظهور زجاجة الويسكي، وكان المحامون والقضاة والعاملون بحزب المؤتمر والضابط المفوض من جانب وزارة المستعمرات البريطانية يحضرون جميعًا للمشاركة في احتساء الويسكي الاسكتلندي. كانت إنديرا، التي تتناول طعامها مع والدتها في غرفة والدتها، نائمة غالبًا بحلول الوقت

الذي يكون فيه موتيلال ووالدها، إذا كان بالمنزل، وبريجو وأي من الضيوف الموجودين في ذلك الوقت جالسون لتناول العشاء في غرفة الطعام.[8]

وفي فبراير/شباط ١٩٢٨، في نفس الشهر الذي عاد فيه موتيلال من أوروبا، وصلت إلى بومباي لجنة سيمون التي يرأسها السير «جون سيمون» والتي شملت ضمن أعضائها «كليمينت آتلي» عضو البرلمان عن حزب العمال، كانت المهمة الظاهرية لهذه اللجنة التخطيط لوضع إصلاحات دستورية لتعزيز قانون الحكومة الهندية الصادر عام ١٩١٩، ولكن في حقيقة الأمر وحسب وصف أحد المؤرخين فقد أتت لجنة سيمون إلى الهند «بهدف تشجيع الركود»،[9] وللمرة الثانية تفشل الحكومة البريطانية في فهم الرأي العام الهندي الذي أثار غضبه عدم وجود عضو هندي واحد في اللجنة، فقوبل الحزب المكون من السبعة أعضاء في أثناء تجواله في البلاد بالإضراب والمظاهرات الغاضبة التي ردد أصحابها شعار «ارحل يا سيمون.» قاد نهرو أحد هذه المظاهرات في مدينة الله آباد وأخرى في لكناو حيث ضُرب بهراوات الشرطة المدربة جيدًا على استخدامها فتركته — وآخرين — مثخنين «بالجراح المحاطة بالكدمات وآثار الضرب»، كان هذا الضرب بمنزلة نقطة التحول أو جواز المرور، تمامًا مثلما كان دخول السجن في بداية العشرينيات، لكن ما أزعج نهرو أكثر من آلامه وكدماته كانت وجوه الشرطة الإنجليزية «المليئة بالكراهية والشهوة لإراقة الدماء، إلى حد الجنون تقريبًا.»[10]

دفعت طريقة لجنة سيمون المستبدة فيما يخص مستقبل الدستور الهندي حزب المؤتمر لتشكيل لجنة عملت على إصدار دستور هندي بدلًا من ذلك الدستور البريطاني المفروض، عُين موتيلال نهرو رئيسًا لهذه اللجنة التي اختلف أعضاؤها من مسلمين وهندوس وسيخ وليبراليين واشتراكيين، وعُين جواهرلال أمينًا عامًّا لها، وبعد عدة أشهر من النقاش والنزاع المحتدم أصدرت اللجنة وثيقة عُرفت باسم «تقرير نهرو»، ولم تكن هذه الوثيقة من بنات أفكار جواهرلال بل من بنات أفكار موتيلال؛ فقد كانت تتناقض تمامًا مع قرار الاستقلال الذي أعلنه شقيقه الأصغر في مدراس وأعلنت أن الهدف السياسي هو أن تنعم الهند بالحكم الذاتي وفي الوقت نفسه تدين بالولاء للإمبراطورية البريطانية.

ما عناه كل هذا لإنديرا هو أن والدها وجدها مشغولان وبعيدان خلال ربيع ١٩٢٨، ويعني وجود توتر لم يسبق له مثيل في المنزل، ويصف بريج كومار نهرو الموقف في ذلك الحين بقوله: «أصبحت الاختلافات بين الأب والابن الآن عميقة.»[11] وأصبحت أوقات تناول الطعام تتسم بالتوتر الشديد، وكان جواهرلال يحاول تجنب النقاشات السياسية على المائدة، ولكن الجو كان لا يزال مشحونًا، وأثناء تناول العشاء ذات مساء ألقى موتيلال بعضًا من مقاطع شعر فارسي على مسامع ضيوفه وطلب من ابنه ترجمتها، رفض جواهرلال ولكن موتيلال أصر، في النهاية تمتم جواهرلال في صعوبة بترجمة غير دقيقة، فعنفه موتيلال بتعنيفه على عدم معرفة الفرق بين كلمتين فارسيتين متشابهتين في النطق، فرد عليه جواهرلال بقوله: «إنني على الأقل أعرف الفرق بين الدولة التي تنعم بالاستقلال التام والدولة التي تنعم بالحكم الذاتي ولكنها تدين بالولاء للإمبراطورية البريطانية!» عندئذ استشاط موتيلال غضبًا وهب واقفًا ثم قلب مائدة الطعام بكل ما عليها على الأرض.[12]

لم تحضر كامالا وإنديرا هذا الموقف، ولكنهما شهدا مواقف أخرى، أما كامالا فهذا وقت حرج لسبب آخر أيضًا فهي تحمل طفلًا للمرة الثالثة وتريد الطفل بشدة، ومما زاد من حزنها أنها فقدت الطفل في الشهر الثالث من الحمل في آخر ربيع ١٩٢٨، وفور إجرائها عملية الإجهاض أصيبت كامالا بآلام شديدة في معدتها استدعت خضوعها لجراحة لاستئصال الزائدة الدودية،[13] وعندما عادت من المستشفى إلى المنزل بعد العملية سيطرت عليها مشاعر الاكتئاب والمرض، وبعث غاندي بنصيحته الطبية الشخصية لنهرو من صومعته في سابارماتي إذ قال: «ثقتي معدومة في تقارير الأطباء عن كامالا … وأتمنى أن تفكر أنت ووالدك وكامالا في أن تتلقى كامالا علاجًا طبيعيًّا، أقصد أن تتعرض لحمامات كوهني وحمامات شمس، لقد أصبحت حمامات الشمس الآن رائجة حتى ضمن المهن الطبية، ويقال إنها تحقق نتائج مذهلة.»[14]

ظلت كامالا في حجرتها حيث كانت إنديرا تقضي معظم وقتها قبل المدرسة وبعدها، وأصبح بريج كومار نهرو الزائر المنتظم الوحيد لها، صُدم

بريج كومار من الطريقة التي تجاهل بها باقي المنزل كامالا والتي بدا منها عدم اهتمامهم بحالتها النفسية والبدنية المتدهورة.[15] عندما أصبح الجو أكثر دفئًا نُقل سرير كامالا إلى الشرفة خارج حجرتها حيث كانت تستلقي فاترة الهمة طوال اليوم، وكان بريج كومار يعود إلى المنزل من محاضراته بعد الظهر ويصعد إلى حجرتها، ويقرأ لها ولإنديرا مقتطفات من أعمال الأديب الروسي إيفان تورجينيف، وتقول ابنة أخت زوج كامالا — ابنة نان بانديت — إنها تتذكر كيف كانت كامالا تستلقي على ظهرها في الشرفة، دائمًا برداء أبيض صامتة وتحوم إنديرا حول جسدها الهزيل حامية له.[16]

وفي مايو/أيار عندما ارتفعت درجة حرارتها ذهبت كامالا وإنديرا والنساء الأخريات في العائلة — سوراوب راني، وبيبي آما، وبيتي، ونان بانديت وطفلتها الصغيرة تشاندراليخا — مع زوج نان، رانجيت بانديت، إلى موسوري، وهناك اتخذوا جناحًا في مقرهم الصيفي الرئيسي، في فندق سافوي، ومنه كتبت إنديرا لوالدها في ١٦ مايو:

أبي الحبيب،

وصلنا هنا الساعة الثانية عشره، وسافرنا بالقطار حتى ديهرادون، ونزلنا في ديهرادون وذهبنا في عربة ... ثم امتطى زوج عمتي [رانجيت بانديت] وعمتي [نان بانديت] الخيل وركبت أنا وأمي وتشاندراليخا على مقعد يجره أربعة من الحمالين. كنت أود ركوب الخيل كثيرًا ولكن عمتي قالت إنه من الأفضل ألا أفعل لأنني لم يكن معي ثياب مناسبة لركوب الخيل.

لقد انتهيت توًّا من تناول غدائي. كيف حالك؟ ... اكتب إلي قريبًا، وأخبرني متى ستأتي.

مع الحب من ابنتك، إندو[17]

ولكن جواهرلال كان مشغولًا للغاية في عمل لجنة نهرو، ولأنه لم يستطع زيارة إنديرا في موسوري فقد حاول أن يحافظ على الصداقة الحميمة التي كانا قد أنشآها في أوروبا عن طريق الرسائل، وفي أثناء صيف ١٩٢٨، حين كان جواهرلال يتبادل النقاشات مع موتيلال وباقي أعضاء

لجنة نهرو، كان يظل ساهرًا حتى وقت متأخر من الليل ويكتب سلسلة من الرسائل الطويلة لإنديرا نُشرت بعد عامين في كتاب صغير حمل اسم «رسائل أب إلى ابنته»[18] كانت هذه الرسائل التي كُتبت على هيئة فصول تهدف لأن تصحح لإنديرا أفكار التعليم البريطاني الذي كانت تتلقاه في مدرسة سانت ماري؛ في الفصل الأول من الكتاب، الذي جاء تحت عنوان كتاب الطبيعة كتب:

> «من عاداتك حينما نكون معًا أن تسأليني أسئلة كثيرة عن موضوعات شتى أحاول الإجابة عليها، والآن أنت في موسوري وأنا في الله آباد، لا أستطيع أن أحدثك أو تحدثيني. لذلك سأكتب إليك ... رسائل قصيرة أقص عليك فيها قصة كرتنا الأرضية، وقصة البلدان التي انقسمت إليها سواء أكانت هذه البلدان كبيرة أم صغيرة. لقد قرأتِ القليل عن التاريخ الإنجليزي والتاريخ الهندي، لكن إنجلترا ليست إلا جزيرة صغيرة والهند، مع أنها دولة كبيرة، ما هي إلا جزء صغير من سطح الأرض. فإذا كنا نريد أن نعرف شيئًا عن قصة هذا العالم الذي نعيشه علينا أن نفكر في جميع الدول وجميع الشعوب التي سكنته، ليس فقط في دولة صغيرة منفردة ... أنا ... أستطيع ... أن أخبرك في هذه الرسائل عن القليل [فقط] ... ولكن هذا القليل، على ما أتمنى، سيثير اهتمامك وسيجعلك تفكرين في العالم ككل، وفي الشعوب الأخرى كإخوة وأخوات لك.»[19]

في رسائله بدأ نهرو بأصل الأرض منذ كونها شظية محترقة من الشمس في بداية الخليقة، ثم تطرق إلى تطور الكائنات الحية، وظهور الإنسان العاقل، والعصور الجليدية والحجرية والحديدية، والأجناس المختلفة، واللغات والحضارات. ولم يكن يقتصر الأمر على المعلومات، فقد أراد نهرو أن يوصل رؤية معينة. وعندما تعلق الأمر بمناقشة الدين قال نهرو: «في البداية جاء الأمر على صورة الخوف وكل ما يتم بسبب الخوف هو شيء سيئ ... فنحن نرى اليوم أن الشعوب تحارب بعضها وتهشم رءوس بعضها باسم الدين.

و... الكثير من الناس ... يقضون أوقاتهم في محاولة إرضاء كائنات خيالية عن طريق تقديم الهدايا في المعابد و... الأضاحي من الحيوانات.»[20] وفي مناقشته الأشكال المختلفة من الحكومات والملوك والثورات، يقول: «لا يزال لدينا في الهند الكثير من الملوك والأمراء والحكام (الذين يطلق عليهم بالترتيب اسم الراجا والمهراجا والنواب)، ترينهم يجولون بأرديتهم الفخمة في عرباتهم الثمينة وينفقون الكثير من الأموال على أنفسهم ... يعيشون هم في ترف وتموت شعوبهم التي تكدح وتعطيهم المال من الجوع ولا يجد أطفالهم المدارس ليذهبوا إليها.»[21] ويستمر جواهرلال في مناقشة النظام الطبقي، ويشجب استغلال الطبقات العليا والنبلاء للفلاحين والعمال.

وبعيدًا عن الأمثلة الأخلاقية والسياسية التي تُشكل جوهر الرسائل نجد موضوع الحفريات موضوعًا رئيسيًّا يُذكر على نحو متصل، فيُذكر نهرو إنديرا بالحفريات التي رأوها معًا في متحف جنيف وفي متحف التاريخ الطبيعي في لندن، وأيضًا الحفريات الجميلة لآثار نبات السرخس ونباتات أخرى وجدوها في أثناء تنزههما في الهند. شجعت المعاني الضمنية المفهومة من بين سطور هذه الرسائل إنديرا على النظر إلى ما وراء الكفاح السياسي الذي يعيشونه، للحصول على أكبر قدر من المشاهدة للوقت والحياة على كوكب الأرض.

بقي نهرو نفسه متورطًا في الأحوال السياسية في الله آباد، وبعد عودة إنديرا وكامالا والآخرين من موسوري كانت الأزمة بينه وبين موتيلال والعناصر المختلفة في حزب المؤتمر — من متطرفين ومحافظين ومحليين — قد وصلت إلى ذروتها في الجلسة السنوية للجنة حزب المؤتمر لعموم الهند التي كان انعقادها في كلكتا في ديسمبر/كانون الأول ١٩٢٨.

سافرت الأسرة بأكملها بالقطار إلى كلكتا، فريق كبير من الأفراد بمن فيهم ناينتارا، المولود الجديد لنان بانديت. انتخب موتيلال رئيسًا لحزب المؤتمر وعومل هو وحاشيته كالملوك،[22] وفي كلكتا أقامت الأسرة في قصر مزين بالبيارق والأزهار والأعلام الوطنية، يحرسه متطوعون من حزب المؤتمر ممتطين خيولهم، وأثناء توجههم لحضور الجلسة الافتتاحية لاجتماع حزب المؤتمر استقل موتيلال وجواهرلال وكامالا وإنديرا عربة يجرها أربعة

وثلاثون حصان أبيض وخلفهم المتطوعون من حزب المؤتمر على ظهور الجياد، بالإضافة إلى النساء اللاتي كن يمشين في الموكب مرتديات ساري لونه أخضر طرفه أحمر ومصنوع من قماش الخادي، ووحدة طبية، وفي النهاية أسطول من سائقي الدراجات النارية يقودهم الزعيم البنغالي المتطرف في حزب المؤتمر سوباس تشاندرا بوس.[23]

وكان أحد مشاهدي هذا الموكب المهيب طفل في الثامنة من عمره يدعى سيدهارتا شانكار راي، وهو حفيد شيتارانجان داس صديق موتيلال القديم، ورفيقه في حزب السواراج الذي كان قد توفي في ذلك الوقت. في مؤتمر كلكتا عام ١٩٢٨ كان سيدهارتا وأطفال مندوبي حزب المؤتمر وأحفادهم الآخرون يريدون الاشتراك، ولهذا نظم مائة منهم أو نحو هذا العدد أنفسهم لعمل رايات حمراء كبيرة مكتوب عليها شعارات باللون الأبيض تقول «يعيش المهاتما غاندي» و«النصر لحزب المؤتمر.» وفي الاجتماع الثاني أو الثالث لمجموعة الأطفال أعلن أن إنديرا نهرو أوشكت على الوصول، كان الأطفال يتوقون لرؤية كيف تبدو حفيدة وابنة بطليهما موتيلال وجواهرلال نهرو، وصلت إنديرا بردائها الخادي الأبيض الفضفاض وأصابتهم خيبة أمل كبيرة؛ إنها ضعيفة وضئيلة للغاية، ولكن بعد أيام عدة انتشرت شائعة بأن إنديرا قد أكلت في إفطارها ستة ثمرات موز، وكان لهذا أبلغ الأثر في تحسين صورتها.[24]

في ٢٧ ديسمبر/كانون الأول ١٩٢٨، أي بعد سنة من اليوم الذي أعلن فيه نهرو قرار الاستقلال في مدراس، اقترح غاندي في جلسة مغلقة في كلكتا أن يُطبق تقرير نهرو — بما في ذلك ما يضمنه من دعم لمسألة أن تنعم الهند بالحكم الذاتي وتدين في الوقت نفسه بالولاء للإمبراطورية البريطانية — إذا وافق البريطانيون على التقرير ونفذوا ما فيه من مطالب خلال عامين. أما جواهرلال فقد رفض بشدة هذه المسألة التي وصفها بأنها «فعل أحمق وخاطئ» يُذعن لما تريده «سيكولوجيا الإمبريالية»، تلت هذا جلسة طارئة استمرت طوال الليل، وفي اليوم التالي قلل غاندي حد الوقت المسموح للندن من عامين إلى عام واحد. كان نهرو لا يزال يشعر بضيق مرير وكذلك كان حليفه سوباس تشاندرا بوس، ولكنه رضخ في النهاية،

وبدلًا من التصويت لمصلحة رغبة غاندي أو ضدها، تعمد جواهرلال الغياب في هذه الجلسة، ونُفذ اقتراح غاندي بموافقة ١١٨ صوتًا في حين عارضه ٤٥ صوتًا.

وكشفت ذروة النزاع بين هؤلاء المؤيدين للاستقلال التام وأولئك المفضلين للحكم الذاتي تحت السيطرة البريطانية — وهو الصراع الذي هدد بانشقاق حزب المؤتمر وعائلة نهرو — عن صفات مهمة في نهرو؛ وقد وصف أحد كتاب سيرته هذا الأمر بقوله: «تردده عندما قوبل بوجوب الاختيار بين خيارين أحلاهما مر؛ فإما إخلاصه لغاندي ولوالده على حساب الرجوع عن مبادئه، وإما اقتناعه العميق بأن وحدة الحزب لها الأولوية السياسية العليا.»[25] ومع ذلك فلم يكن نهرو عندئذ قد توصل إلى حل وسط بين هذين الخيارين، ولم يرد في ذهن أحد — سواء جواهرلال أو موتيلال أو غاندي — احتمال بأن البريطانيين سيوافقون على تقرير نهرو ويمنحون الهنود الحكم الذاتي تحت السيطرة البريطانية خلال سنة أو اثنتين أو حتى خمس سنوات، ونص قرار غاندي أن العصيان المدني سيُعاد تنشيطه إذا لم يفعل البريطانيون، ومن ثم علم جواهرلال أن السنة القادمة ستكون سنة تجهيزية لتجديد ضخم للحركة الوطنية.

ومن هنا أصبح عام ١٩٢٩ قنبلة موقوتة تدق بانتظام كل يوم في السنة الواحدة المحددة للبريطانيين، كانت هذه أشهرًا محمومة لنهرو يتم فيها إعداد حزب المؤتمر لاتخاذ فعل مباشر، فجال البلاد معظم الوقت، ولم يكن في المنزل عندما انتقلت الأسرة إلى آناند بهافان الجديد المكتمل في الربيع، وبرغم اعتراضات سواروب راني وبيبي آما رفض موتيلال القيام بأداء شعائر «البوجا» التقليدية. كان آناند بهافان الجديد أصغر حجمًا من القصر الأصلي، ولكنه كان لا يزال متسعًا، بل يحتوي على مظاهر أكبر للترف في بعض الأمور؛ حيث إنه كان مزينًا بأشياء أحضرها موتيلال معه من أوروبا؛ مقابض أبواب من البورسلين، ومصابيح نحاسية، وحمامات، ومراحيض، وشطاف [بيديه] (يشاع أنه أول شطاف في الهند)، وهناك سلالم حلزونية مزينة تصل الطابقين، وشرفات واسعة ذات أرضيات مصنوعة من الأحجار الحمراء والبيضاء تحيط بالمنزل، في حين غطت قبتان بيضاوتان

من العصر المغولي السقف فكانتا أشبه بفطر عيش غراب حجري جاثم على السقف. كانت لإنديرا حجرة كبيرة في آخر الطابق الأول، بجوار حجرة ملابس والدها وحجرة نوم والديها، وبالحديقة الخارجية تفتحت الأزهار الإنجليزية. وفي اليوم التالي لانتقال الأسرة نشرت صحيفة «بايونير» في صفحتها الأولى صورة آناند بهافان الجديد المهيب تحت عنوان «كيف يعيش السياسيون الفقراء في بلدنا.»[26]

كالمعتاد رحلت نساء عائلة نهرو بمن فيهن إنديرا إلى موسوري في الصيف، وعندما عُدْن في الخريف كان السؤال المهم الذي يطرح نفسه على الساحة السياسية هو من سيخلف موتيلال رئيسًا لحزب المؤتمر في اجتماع لاهور السنوي المقرر عقده في ديسمبر/كانون الأول ١٩٢٩، في ذلك الوقت تكون السنة التي تمثل المهلة «الممنوحة» للبريطانيين قد انقضت، وأيًّا كان من سيصبح رئيسًا لحزب المؤتمر سيُطلق حملة العصيان المدني الجديدة، كان غاندي هو الخيار الواضح، ولكنه رفض الأمر بشدة في لجنة حزب المؤتمر الهندي في لوكناو، وبدلًا من هذا دعم غاندي بشدة جواهرلال رئيسًا لحزب المؤتمر؛ الأمر الذي نتج عنه انتخاب جواهرلال، على حد وصفه، «ليس ... عن طريق المدخل الرئيسي أو حتى المدخل الجانبي، فقد ظهرت فجأة من باب سحري وأربكت المشاهدين للموافقة علي.» شعر جواهرلال بالمهانة؛ إذ أحس بأنه بات مثل «حبة الدواء الضرورية»، التي على المرء أن يبتلعها بشجاعة، ولكن موتيلال، ومع كل خلافاتهما، شعر بالابتهاج لكون ابنه قد خلفه.[27]

لم تكن إنديرا قد ذهبت إلى البنجاب من قبل، وكان البرد قارصًا عند وصولها إلى لاهور بصحبة أسرتها في أواخر ديسمبر/كانون الأول ١٩٢٩، وبدلًا من الإقامة في قصر مزخرف — مثل ذلك الذي كانوا قد سكنوه العام السابق في كلكتا — اتجهت عائلة نهرو مباشرة من محطة المترو إلى معسكر كبير من خيام بيضاء — موقع اجتماع حزب المؤتمر — المنصوبة على ضفاف نهر رافي، وهناك أقاموا طيلة ستة أيام مع ٣٠٠ ألف شخص يأكلون وينامون ويعقدون الاجتماعات.

رفض نهرو الحضور إلى الجلسة الافتتاحية في عربة تجرها الثيران كما طُلب منه، وإنما كان يود أن يمشي دونما مرافقين، دون موكب، ولكنه

في النهاية وافق على أن يمتطي جوادًا أبيض عبر شوارع لاهور المحتشدة بالجموع التي تهتف له وتلوح بالرايات. امتلأت الشوارع والأسطح والأشجار المصفوفة في الطرق بالجموع التي انتظرت لساعات حتى تلمح لنهرو، وقد عبّر غاندي، المحرك الحقيقي وراء هذه المكانة لنهرو، عن الروح المهيمنة على هذه اللحظات عندما وصف نهرو بأنه يسير وكأنه «ملك بلا خوف أو خجل»،[28] فقد بدأ موكب من التمجيد، بل يصل إلى حد التعظيم.

في الجلسة الافتتاحية التي حضرتها إنديرا سلم موتيلال عباءة رئاسة حزب المؤتمر إلى جواهرلال وهو يتلو بيتًا من الشعر الفارسي: «ما يعجز الأب عن تحقيقه سيحققه الابن.»[29] كانت هذه الكلمات بمنزلة بذور أسطورة جديدة، تلك الخاصة بسلالة نهرو (وفيما بعد بسلالة نهرو- غاندي). كانت هذه هي المرة الأولى التي يخلف فيها ابن والده في رئاسة حزب المؤتمر، فكان فخر موتيلال لا يُقدر، وكانت سواروب راني «في حالة من النشوة»، وبالطبع كانت إنديرا تشعر بالإثارة هي الأخرى، وبعد ثمان وعشرين عامًا ستقوم هي بدورها «بوراثة» رئاسة حزب المؤتمر، غير أن ظروف توليها الرئاسة ستختلف تمام الاختلاف عن ظروف أبيها.

وفي خطبة توليه الرئاسة عام ١٩٢٩ أعلن نهرو بشجاعة عن روح حزب المؤتمر الجديدة إذ قال: «إننا نرى الاستقلال على أنه الحرية الكاملة من الإمبريالية والسيطرة البريطانية.»[30] وكان من المتوقع أن يصل اجتماع حزب المؤتمر إلى ذروته عندما يصل الأمر إلى اتخاذ قرار الاستقلال التام الذي كان نهرو قد قضى ساعات في كتابته في لاهور؛ كانت إنديرا بالصدفة معه عندما ناوله سكرتيره المسودة النهائية المطبوعة، فأعطى نهرو على الفور النسخة لها وطلب منها قراءته بصوت عال، بدأت في القراءة متلعثمة فقاطعها بقوله «اقرئيه على نحو سليم.» فبدأت ثانية، وأخذت تقرأ ببطء وتؤدة:

> «إننا نؤمن بأن الحرية والتمتع بثمار العرق وضرورات الحياة حق من حقوق الشعب الهندي شأنه في ذلك شأن شعوب العالم كافة — وهو حق لا يجوز التفريط فيه — بحيث يستطيع الاستفادة من جميع فرص التنمية، نؤمن أيضًا بأن أي حكومة تسلب هذه

> الحقوق المشروعة من شعبها وتقهره فإن هذا الشعب له مطلق الحرية في أن يغيرها أو يسقطها، وإن الحكومة البريطانية لم تسلب الشعب الهندي حريته فحسب، بل دعمت نفسها من خلال استغلال الجماهير، ودمرت الهند اقتصاديًّا وثقافيًّا وروحيًّا، ومن ثم فإننا نؤمن أن الهند يجب أن تقطع كل ما يربطها ببريطانيا، وتحصل على الاستقلال التام ...»[31]

عندما أنهت إنديرا قراءة النص بأكمله قال لها نهرو: «حسنًا لقد قطعت على نفسك هذا العهد الآن بعد أن قرأته بصوت عال.»[32]

ولكن إنديرا لم تكن تدرك أنها أول إنسان في الهند يقطع على نفسه هذا العهد حتى أصدر غاندي القرار أمام مندوبي حزب المؤتمر المجتمعين في لاهور، وطالب غاندي أيضًا بمقاطعة الهيئات التشريعية ولجان الحكومة، وأعاد إطلاق حملة العصيان المدني. أصدر القرار في منتصف ليل ٣١ ديسمبر/كانون الأول في نفس لحظة بدء عام وعقد جديدين، وفي الساعة التي أعلن فيها انتهاء الإنذار النهائي للسنة الواحدة التي أمهلها حزب المؤتمر للبريطانيين، ورُفع علم الاستقلال على ضفاف نهر رافي في ظل ترديد هتافات وصيحات «عاشت الثورة»، استمر كل هذا لساعة أخرى من منتصف الليل، ولم يكن أحد يعلم كم سنة ستستمر تلك الهتافات.

عندما عادت عائلة نهرو إلى الله آباد كانوا قد أصبحوا من المشاهير ولم يعد آناند بهافان منزلًا خاصًّا، فلم يكن جواهرلال رئيسًا لحزب المؤتمر فحسب، بل كان بطلًا قوميًّا وحصل كل من هو قريب منه على جزء من مجده المنعكس. ومن جميع الأنحاء البعيدة والقريبة كان التابعون المحبون يسافرون إلى آناند بهافان؛ «جموع من الحجاج»، كما وصفهم نهرو، تحتشد على الأرض، وعجت الشرفات بالناس، «وأمام كل باب وخلف كل نافذة عيون محدقة»، وأصبح من الصعب الحديث أو العمل أو تناول الطعام في ظل هذه الظروف من المراقبة المتطفلة التي «لم تكن محرجة فحسب»، كما وصف نهرو فيض المعجبين، ولكنه كان أيضًا مدعاة «للضيق والإزعاج»، واستطرد قائلًا: «ولكن ها هم أولاء هناك متطلعون بأعينهم اللامعة المليئة

بالحب ... مغدقون شعورهم بالعرفان والحب ويطلبون القليل في المقابل، لا يريدون شيئًا سوى الشعور بالأخوة والعطف.»[33] وكان نهرو يخرج في فترات منتظمة خلال اليوم لمقابلة الجموع والاستماع إلى مشكلاتهم، وتقبل ثنائهم، ويشعر بالخجل من شعوره الأول بعدم الصبر والتبرم.

ذاعت الأغاني والأساطير حول نهرو وعائلته وطُبعت سواء على شكل أوراق كبيرة ذات وجه واحد أو على شكل كتيبات صغيرة، وكانت الملصقات المزخرفة التي تحوي صورهم تُباع في الأسواق، في البداية وجد نهرو تبجيل البطل أمرًا يدعو إلى النشوة؛ فقد أعطاه «الثقة والقوة»، ولكنه أدرك بعد ذلك أن «سمعته كبطل [كانت] بأكملها زائفة» ومرتكزة على تصور غير حقيقي لعائلة نهرو كأبناء الطبقة الأرستقراطية والنبلاء بل كأنصاف آلهة، وكثرت الشائعات أنه قد ذهب إلى المدرسة مع أمير ويلز في إنجلترا، وأنه وموتيلال كانا يرسلان ملابسهما كل أسبوع من الهند إلى لندن لتُغسل، وقالت الأسطورة إن أسرة نهرو فيما بعد تخلت تمامًا عن الترف والمكانة والثروة من أجل الشعب الهندي.[34]

بمرور الوقت أصبحت هذه الحالة من العبودية راسخة ومدمرة، مثل انطباع السلالة الحاكمة لنهرو-غاندي، ولكن في الأيام الأولى كانت مصدرًا للدعابة لكامالا وأخوات نهرو، فكانوا في تقليدهم لعبارات الثناء التي تنهال عليه يخاطبونه «جوهرة الهند» و«الشمعة التي تحترق من أجل الآخرين»،[35] أما إنديرا، فقد كانت شهرة والدها والشعور بفقدان الخصوصية الذي اجتاح آناند بهافان أمورًا مربكة، ولم تُعف هي الأخرى من مظاهر عبادة البطل، فكما ظهر إنجازها الفذ في تناولها للموز في كلكتا أصبحت إنديرا مدركة أنها تُمثل الأسرة وأن لها صورة عامة يجب الحفاظ عليها.

في جلسة حزب المؤتمر في لاهور، اتخذ يوم ٢٦ يناير/كانون الثاني عيدًا للاستقلال، حيث يقام الاحتفال به عبر البلاد، وفي الله آباد، في ذلك اليوم عام ١٩٣٠، وقع الاختيار على إنديرا — أصغر طفلة (مع استثناء أطفال نان بانديت) — لترفع العلم الوطني في آناند بهافان أمام أعضاء الأسرة والخدم المجتمعين، وقف الجميع في الشرفة والعلم ذو الألوان الثلاثة يرفع، ثم رددوا عهد الاستقلال والنشيد الوطني، وهو مشهد تكرر في ربوع البلاد كافة.

في الأسابيع والشهور التالية غمر الاحتجاج والعصيان المدني الهند، وتقدمتها المقاومة السلمية الشهيرة لضريبة الملح التي قام بها غاندي للاحتجاج على ضريبة الملح التي فرضتها الحكومة؛ إذ إن هذه الضريبة خاصة تعد غير عادلة لأن الملح أحد متطلبات الحياة الرئيسية. وفي مارس/آذار ١٩٣٠ قام غاندي مع ثمان وسبعين من المشاة الآخرين بالمشي لمسافة ٢٤٠ ميلًا من صومعة سابارماتي إلى داندي على الساحل حيث استخرجوا الملح من مياه البحر الموحلة، في حقيقة الأمر كان هذا «العمل الخطير الأبله الخاص بالملح»، كما وصفه لورد إيروين نائب الملك، استراتيجية عبقرية أثارت البلاد كلها.

وكانت إحدى التبعات الملحوظة لمسيرة الملح وعودة العصيان المدني على المستوى العام سنة ١٩٣٠ المشاركة الكبيرة التي أتيحت للنساء الهنود اللاتي لم يلعبن دورًا سياسيًّا مهمًّا في العشرينيات، وفي أوائل سنوات الكفاح القومي كانت النساء على شاكلة آني بيسانت وسروجيني نايدو يعدون من الاستثناءات، أو بالأحرى رجالًا شرفيين في حزب المؤتمر، ولكن الآن لم تقم «كتلة» النساء مثلما كتب نهرو «بأخذ الحكومة البريطانية فحسب على حين غرة بل كذلك كان الأمر لرجالهم أنفسهم ... نساء من الطبقات العليا والطبقات المتوسطة، والنساء العاملات، والثريات يندفعن في العشرات منهن في تحد لنظام الحكومة وهراوات الشرطة.»

وكان من ضمن هذه الحشود من النسوة ممن كانوا يقودونهن في الله آباد، نساء عائلة نهرو، خاصة كامالا التي تركت فراش المرض، وارتدت زي الخادي بلونه الأبيض الذي يرتديه متطوعو حزب المؤتمر، وخرجت للمشاركة في الوقفة الاحتجاجية أمام المتاجر التي تبيع الأقمشة الأجنبية والكحول، وأمام المحاكم والمدارس الحكومية، اختفت الأمراض والإعياء الجسدي الذي كان يصيب كامالا أو تجاهلته هي، وبعد وقت كبير أدرك نهرو أنها كانت تشتاق «لممارسة دورها الشخصي في الكفاح الوطني، وأنها لا ترغب في أن تكون تابعًا وظلًّا لزوجها فحسب.» وقال نهرو إن الأشهر الأولى من عام ١٩٣٠ شهدت بداية إحساسه «برغبتها وعملنا معًا ووجدت في هذه التجربة متعة كبيرة.»[36]

وبجانب النساء طالب الأطفال بدور لهم، ومن كان ليقودهم أفضل من إنديرا نهرو؟ ومن ثم أنشأت جيش القردة في مارس/آذار ١٩٣٠، وبعد سنوات من هذا الحدث نُسب لإنديرا كل الفضل، حيث شرحت كيف أنها شكلت وحدها فرقة أطفال من عمال حزب المؤتمر حيث قيل لها إنه بغير استطاعتها أن تنضم إلى المتطوعين الدائمين حتى تصبح في الثامنة عشرة من عمرها.[37] ولكن جيش القردة كان في حقيقة الأمر فكرة مشتركة بين كامالا وبيشامبار ناث باند، وهو أحد أمناء لجنة حزب المؤتمر في الله آباد الذي كان يعمل عن قرب مع كامالا، ففي أحد الأيام كانت كامالا تتجول في أحد الأجزاء الفقيرة من المدينة مع بيشامبار ناث باند حيث الأطفال في الشارع، كالمعتاد، يتبعونهم ويصيحون «النصر لكامالا نهرو»، قالت امرأة عجوز تقف بالجوار لكامالا إن الأطفال يشبهون جيش القردة في ملحمة الرامايانا، حيث بني جيش الإله القرد هانومان جسرًا بين لانكا (سريلانكا الآن) والهند بهدف إنقاذ الأميرة سيتا، زوجة لورد راما بعد أن اختطفها الملك الظالم رافان. اقترحت كامالا على بيشامبار ناث باند عندئذ أن يُكوِّنوا جيش قردة من أطفال حزب المؤتمر واقترح هو أن يجعل إنديرا البالغة من العمر اثنتي عشرة عامًا قائدتها، مع ذلك كانت إنديرا — حسبما قال بيشامبار ناث باند — مترددة وقبل أن توافق على الخطة تأكدت من أنه سيساعدها، ومعًا نظما برنامج وزيارة مدارس الله آباد في وقت قصير جدًّا وتمكنا من تجنيد نحو ألف طفل.

في ربيع ١٩٣٠ طالب حزب المؤتمر بأسبوع من المظاهرات في مختلف أنحاء البلاد، وفي الله آباد قادت إنديرا موكبًا ضخمًا من ١٥ ألف طفل، وشاهد هذا الموكب ٥٠ ألف شخص في شوارع الله آباد، انتهى الموكب باجتماع جماهيري في آناند بهافان حيث خاطبت إنديرا حشود جيش القردة، ونظرًا لأن صوت إنديرا ضعيف للغاية، كان على بيشامبار ناث باند أن يكرر على الجماهير أقوالها وتعليماتها جملة جملة بصوته الجهوري المرتفع وكأنه مكبر صوت بشري، حثت إنديرا الجماهير من خلال صوت بيشامبار ناث باند الجهوري على جمع المؤن لمعسكرات الساتياجراها، وتوزيع نشرات الساتياجرها، وأن يجمع كل منهم بيزا واحدة من كل أسرة كل يوم لتمويل جيش القردة.[38]

وبرغم تردد إنديرا في أول الأمر فقد استحوذت أنشطة جيش القردة عليها بسرعة، في الأصل كانت الفكرة ترتكز على أن يساعد الأطفال عمال حزب المؤتمر الكبار من خلال أداء المهام الصغيرة مثل حمل الرسائل وتحضير الطعام وحياكة الأعلام وتوزيع المنشورات، ولكن الأطفال أدركوا على الفور أن بإمكانهم أن يكونوا مفيدين عن طريق قيامهم بوظيفة استخباراتية؛ حيث يكون بإمكانهم التظاهر بأنهم يلعبون في الشارع بالقرب من نقاط الشرطة ويسترقون السمع لأوامر الاعتقال وأماكن حملات الشرطة التالية، ومن ثم يكون بإمكانهم الإسراع بتحذير أعضاء حزب المؤتمر المعنيين، وكما شرحت إنديرا الأمر فيما بعد: «لم يكن أحد منهم يلقي بالًا لأطفال صغار يلعبون الحجلة أمام قسم الشرطة، فلم يكن هناك أحد يعتقد أن مثل هذا الطفل البريء يؤدي مهمة، كان الطفل يحفظ عن ظهر قلب رسالة ثم يذهب إلى من يعنيهم الأمر ويخبرهم «بما سيحدث أو بما لن يحدث، وأن الشرطة تحاصر أحد البيوت، وسيقبضون على فلان وفلان.»[39]

أصبحت إنديرا الآن مشهورة لذاتها، بوصفها قائدة جيش القردة، كانت ترتدي زي المتطوعين الذكور من حزب المؤتمر المصنوع من الخادي بالإضافة إلى قبعة حزب المؤتمر، وفي ذلك الوقت التقطت لإنديرا ووالديها صورة ظهرت في صحف الهند؛ كان ثلاثتهم في حديقة آناند بهافان، وجواهرلال يرتدي زي حزب المؤتمر الأبيض من الخادي، وكامالا ترتدي ساري من الخادي غير المزين، وارتدت إنديرا معطفًا وصديرية وقبعة مصنوعين من الخادي، وقد صففت شعرها بطريقة البوب [إحدى الطرق الشهيرة لتصفيف الشعر القصير]، كانت هذه الصورة تحمل معنى سياسيًّا وشبه ديني؛ فهي تُظهر الأسرة الشابة الجميلة ذات الحضور الطاغي التي تتسم بالنقاء والبساطة في الخادي الأبيض، وتبدو متأهبة لمعركة دونما عنف، وتظهر الصورة أيضًا أن إنديرا لم تعد خارج نطاق الأحداث بل باتت في بؤرتها وهي تقف طويلة القامة مرتدية ثياب حزب المؤتمر: الولد إندو.

كان مارس/آذار ١٩٣٠ الشهر الذي تشكل فيه جيش القردة، هو الوقت الذي التقيت فيه كامالا وإنديرا مع فيروز غاندي عندما ذهبا مع مجموعة

من نساء حزب المؤتمر للمشاركة في وقفة احتجاجية أمام في جامعة «إيونج كريستيان» في الله آباد، كان فيروز، الطالب ذو الثمانية عشر عامًا في الجامعة، يقف متكئًا على حائط يشاهد النساء المتظاهرات كنوع من التسلية عندما فقدت كامالا وعيها تحت شمس الظهيرة، عندها أسرع إليها فيروز حاملًا معه الماء ومروحة لإفاقتها، وفي أثناء مساعدته كامالا واصطحابها إلى منزلها تحول فيروز إلى أحد المناصرين لقضية كامالا، أو ربما بالأحرى من المناصرين لكامالا نفسها. في اليوم التالي ترك جامعة إيونج كريستيان، وظهر مرة أخرى في آناند بهافان وسجل نفسه ضمن متطوعي حزب المؤتمر، ومنذ ذلك الحين أصبح فيروز ظلًّا لكامالا وتابعًا لها، ومما لا شك فيه أن هذا يعني أنه عرف الكثير عن إنديرا أيضًا، مع أن إنديرا ظلت طوال عدة أشهر غير قادرة على التمييز بين هذا الرجل المجوسي الممتلئ الثرثار والمساعدين الملهمين الآخرين الذين جذبتهم كامالا.

في أبريل/نيسان ١٩٣٠ بعد شهر من دخول فيروز إلى حياتهم حاولت الحكومة كبح جماح العصيان المدني عن طريق اتخاذ إجراءات صارمة على نطاق الدولة بأكملها، فأعلن أن اللجنة العاملة بحزب المؤتمر غير قانونية وقُبض على مسئوليها وزج بهم في السجن، وقُبض على نهرو في ١٤ أبريل/نيسان وحُكم عليه بالسجن ستة أشهر في سجن نيني بتهمة استخراج الملح، وسُجن كل من غاندي في ٥ مايو/أيار وموتيلال نهرو في ٣٠ يونيو/حزيران، وبوجود جواهرلال وموتيلال في السجن في الجانب الآخر من النهر في نيني، عانت نساء آل نهرو لهيب حرارة شمس الصيف الطويل في الله آباد، مع أن كامالا لم تكن لتتاح لها الفرصة للذهاب إلى موسوري بسبب نشاطها السياسي، فقد كانت في ذلك الوقت تعمل ثمان عشرة ساعة في اليوم، وأنشأت مستشفى لمتظاهري حزب المؤتمر الجرحى في أحد أجنحة قصر آناند بهافان القديم كان موتيلال قد تبرع به لحزب المؤتمر وسماه بهافان السواراج (قصر الحرية).

في مطلع سبتمبر/أيلول كتبت كامالا لجواهرلال أنها تتمنى لو تُعتقل وتدخل السجن، لتهرب إلى حد ما من اندلاع العداء القديم بالمنزل، قرر رانجيت بانديت أن ينضم إلى مستشفى السواراج بهافان ولكنه ونان بانديت،

كما تزعم كامالا، كانا يقضيان الصيف «جالسين بارتياح بالداخل، تحت المظلات الواقية من الشمس، ويستمتعان بالنسيم البارد للمروحة، ولم يكونا يتحركان قيد أنملة في الحر للعمل.»[40]

في ٨ سبتمبر/أيلول أطلق سراح موتيلال من السجن لأنه كان مريضًا بشدة، وأطلق سراح جواهرلال في الحادي عشر وسافر على الفور إلى موسوري مع كامالا وإنديرا لزيارة موتيلال، غير أنه اعتقل مرة ثانية في التاسع عشر من نفس الشهر، وكانت تهمته هذه المرة التحريض على إنتاج الملح وعدم دفع الضرائب والتشجيع عليهما، وحُكم عليه بالسجن عامين ونصف إلى جانب السجن مدة خمسة أشهر أخرى لإدانته بالتخلف عن دفع الغرامات، أدت هذه الأحكام القاسية إلى مظاهرات على نطاق الدولة يوم عيد ميلاده، الرابع عشر من نوفمبر/تشرين الثاني، الذي سُمي «يوم جواهر.» وفي الله آباد قادت سواروب راني ونان وبيتي وإنديرا موكبًا إلى الحديقة العامة حيث خاطبت كامالا الحشود المجتمعة وقرأت عليهم الخطبة «التحريضية» التي دخل نهرو السجن بسببها.

كانت سبع سنوات تقريبًا قد مرت منذ آخر مرة حُبس نهرو في «منزله الآخر»، كما أشار هو إلى السجن في رسائله، افتقد نهرو كامالا وإنديرا بشدة ودون بدقة في مذكراته بالسجن زياراتهما له التي كانت تحدث كل أسبوعين، وعندما أعيد إلى سجن نيني في أكتوبر/تشرين الأول، وكانت أمامه تقريبًا ثلاث سنوات طويلة قبل أن يفرج عنه، أفزعته فكرة الانفصال الطويل وقرر أن يكتب سلسلة من الرسائل إلى إنديرا، استكمالًا لخطاباته الأولى التي كانت بعنوان «رسائل أب إلى ابنته»، والتي نُشرت في مطلع ذلك العام.

وهكذا بدأ نهرو في ٢٦ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٣٠ — عيد ميلاد إنديرا تبعًا للتقويم الهندي — في كتابة ما سيصبح فيما بعد واحدًا من أكثر كتب نهرو كشفًا وجاذبية، وحمل اسم «لمحات من تاريخ العالم»، وقد تلقت إنديرا مظروفًا من سجن نايني مكتوب أعلاه: «إلى إنديرا بريادارشيني في عيد ميلادها الثالث عشر.» منذ البداية، كان نهرو يعد «لمحات» هبة أو إهداء إلى إنديرا، أو كما قال «هدية للعقل والروح.» ومما لا شك فيه أن

الكتاب الذي ضم بين دفتيه ١٩٦ فصلًا واحتوى كل فصل على خطاب، وبلغ عدد صفحات الكتاب ٩٧٠ صفحة ممتلئة لآخرها، التي كُتبت على مدار الثلاث سنوات التالية، يعد أحد أطول الهدايا وأضخمها.

وفي الخطاب الذي افتتح به الكتاب استحضر نهرو جان دارك وذكّر إنديرا أنها ولدت في نفس الشهر الذي بدأ فيه لينين الثورة الروسية، وتحدث عن الثورة التي يعد غاندي ملهمها وقائدها في الهند. فمن ناحية يصادق نهرو هكذا على نظرة توماس كارلايل للتاريخ المرتكزة على فكرة أن التاريخ يتكون من أفعال الرجال العظماء أو الأبطال، وهي الفكرة التي عرضها في كتابه الذي حمل اسم «عن الأبطال وعبادة البطل والبطولات في التاريخ.» وفي حقيقة الأمر يلقي كتاب «لمحات» النظر على أعمال مجموعة من أشهر وأهم الأبطال في التاريخ مثل الفيلسوف اليوناني سقراط، والملك الهندي أشوكا، والإمبراطور المغولي جلال الدين محمد أكبر، والإسكندر الأكبر، والجنرال الإيطالي جوزيبي جاريبالدي، وبسمارك، وهتلر، وفرانكلين روزفلت، وغيرهم من المشاهير، ولكن نهرو في الوقت ذاته أصر على أن «التاريخ الحقيقي» ليس «سجلًّا لأعمال الرجال العظماء، ملوكًا وأباطرة، فحسب.» بل هو يخص «جميع الأفراد المكونين للأمة.»[41] كان الموضوع الحيوي الآخر الموجود الذي تناوله هذا الخطاب الافتتاحي والكتاب ككل أن التاريخ لا يتوارى ويندثر في الماضي، بل إنه يحدث، كما يصر نهرو، الآن حول الجميع: «في الهند اليوم نحن نصنع التاريخ، وأنت وأنا نعد محظوظين لأننا نراه يحدث أمام أعيننا ولأننا نمارس ... بأنفسنا دورًا في هذه المسرحية الضخمة.»[42] وقد استوعبت إنديرا بعد ذلك بكثير مفهوم «الرجال العظماء» عن التاريخ، وإيمان نهرو بأن هناك قدرًا تاريخيًّا ينتظر إنديرا يتحتم عليها أن تتبعه، وإن لم يحدث بالطريقة نفسها التي أرادها نهرو.

وكتاب هربرت جورج ويلز «موجز تاريخ العالم» الذي أخذه نهرو معه في سجنه مع مجموعة من دفاتر القراءة أحد مصادر إلهام كتاب «لمحات»، وبعيدًا عن هذين المصدرين استُمِد هذا الكتاب الضخم الذي يحتوي على شتى أنواع المعرفة من قراءات نهرو المكثفة (والكثير منها كان في السجن وأوروبا). وعلى عكس ويلز يقدم نهرو صورة للعالم تغاير تلك النظرة التي

تعتبر أوروبا مركز ثقل العالم إذ وضع جنوب آسيا مرة أخرى على الخريطة التاريخية. كان الهدف من كتاب «لمحات» أن يكون ترياقًا ضد سم التاريخ الأوروبي الذي تتجرعه إنديرا في مدرسة سانت ماري، وبالإضافة إلى كونه تأريخًا آسرًا للعالم من عصر اليونان القديمة وحتى قيام ألمانيا النازية، يركز كتاب «لمحات» على الرؤية السياسية الخاصة بنهرو. وأشاد بالأبطال الوطنيين من أمثلة الإمبراطور المغولي جلال الدين محمد أكبر والجنرال الإيطالي جوزيبي جاريبالدي، وأشاد أيضًا بزعيمات وطنيات على شاكلة جان دارك، وملكة جانسي. ويتتبع نهرو انهيار الرأسمالية، والتأثير السلبي للدين (فيما عدا البوذية التي أبهرته وجذبته)، وتطور الحركات والمذاهب الفكرية من أمثلة الديمقراطية والاشتراكية والماركسية والفاشية. ولم يعدم ذكر الحركات الثقافية والفنية والعلمية إلا أن هذه الحركات لم يكن لها نصيب كبير من صفحات الكتاب.

وبعيدًا عن هدف توفير نوع من الثقافة التاريخية والسياسية لإنديرا، ينبع كتاب «لمحات» من مصادر شخصية ووجدانية عميقة. وعندما بدأ نهرو في كتابة هذه الرسائل بدأ على نحو فعال في تنفيذ طريقتين منفصلتين ولكنهما متوازيتان من طرق المراسلة مع ابنته، وهي الرسائل التي كانت تصل بالفعل إليها من سجن نايني والمراسلات الوهمية لرسائل كتاب «لمحات» التي لم تكن ترسل أو تتسلمها ابنته. ففي حقيقة الأمر لم تكن إنديرا تعرف شيئًا عن رسائل كتاب اللمحات حتى عام ١٩٣٢، أي بعد عامين من بدء نهرو في كتابتها، ولم يتسن لها قراءتها إلا عندما نُشر الكتاب عام ١٩٣٤.

ولعل الأمر لا يدعو للدهشة إذ تعد الرسائل الطويلة غير المرسلة التي شكلت كتاب «لمحات» — تلك التي يقول عنها نهرو في إحدى المرات «لا أحد يرى سواي» والتي أدرك أن إنديرا لن تستطيع قراءتها إلا «بعد شهور أو سنوات» — أكثر نوعي المراسلات تلقائية،[43] ففي هذا النوع يتحدث نهرو من القلب كما لو كان في مذكرة، إلى كل من إنديرا (التي لا تستطيع سماعه) وإلى نفسه. وما لبث أن أصابته حالة من الاكتئاب والإحباط بسبب الأخبار السياسية والعائلة التي تتسلل إليه في السجن؛ إنديرا مريضة، ووالدته

وكامالا لم تستطيعا زيارته، وتساءل هل ذلك المخطوط الضخم الذي يؤلفه سيصل إلى إنديرا. في بعض الأيام تبدو كتابة الرسائل عملية بسيطة، ولكنه في البعض الآخر لا يجد في نفسه القدرة على الكتابة، في الوقت نفسه لم يكن يستطيع التخلي عن الكتاب؛ فهو يمثل هدفًا قويًّا له في السجن، فهو يولد نوعًا من الألفة القوية المؤازرة له مع ابنته الغائبة كما أنه يهدئ فيه شعورًا بالذنب اتجاه انفصاله عنها، ففي أثناء الساعات الطويلة التي كان يقضيها في الكتابة كان يشعر تقريبًا وكأنهما معًا، وفي الوقت نفسه تعد الرسائل التي يحويها كتاب «لمحات» فرصة للابتعاد والانشغال عن الشكوك ودواعي القلق الشخصية والسياسية، فـ«العمل المتواصل» على التأليف والانتقال بالعقل إلى أوقات بعيدة يسمح لنهرو «بالتحكم» في عقله و«العيش لمدة ما بعيدًا عن ... المشكلات الحاضرة.»[44]

وكان نهرو محبوسًا في نايني يكتب رسائل لن تصل إلى ابنته، كانت هي منهمكة في العمل مع جيش القردة، وتساعد في تمريض المرضى في مستشفى السواراج بهافان، وكانت لا تزال تذهب إلى دير سانت ماري، وفي ١٧ نوفمبر/تشرين الثاني، وقبل يومين من عيد ميلاد إنديرا الثالث عشر، أصحبت هي وكامالا وسواروب راني وبيتي موتيلال إلى كلكتا لاستشارة طبيب مختص في علم الآيورفيدا (علم الطب الهندي) يدعى كافيراج شيامداس فاشاسباتي، كان موتيلال الذي بلغ في ذلك الوقت تسعة وستين عامًا يعاني أمراضًا عديدة، مثل: الربو وتليف في الرئتين والضغط المرتفع والفشل الكلوي، ولم يكن أي منها يستجيب للعلاج الطبيعي. وفي السجن فقد موتيلال الكثير من وزنه وفور خروجه ظل ضعيفًا واهنًا، وكأنه ظل لما كانت عليه نفسه الضخمة.

أخذت إنديرا كمًّا كبيرًا من الكتب لتقرأها في كلكتا وأخبرت موتيلال أنها انتهت من قراءة كتاب الأديب البلجيكي موريس ميترلنك المسمى «حياة النحلة» وبدأت كتابه الآخر الذي يحمل عنوان «حياة النملة»، والذي وعدت بعده أن تقرأ «الكتاب الذي أعطيتني إياه عن جاريبالدي. في هذا الوقت، بدأ كل من جدي [موتيلال] والصغيرة [بيتي] فيه ولكن أي منهما لم

يتمه إلى النهاية.» ووقعت على رسالتها «من ابنك إندو المحب» وأضافت ملحوظة: «لقد اكتمل السروال القصير الخاص بي»، على ما يبدو ذلك الخاص بالرياضة البدنية والجري.[45]

بحلول عيد الميلاد كانت إنديرا وكامالا قد عادتا إلى الله آباد وفي يوم ٢٧ كانتا قد التقتا نهرو في سجن نايني. في عشية عيد الميلاد كانت إنديرا وكامالا وحيدتين في آناند بهافان تقرآن معًا بصوت عالٍ قصيدة الشاعر الفرد تينيسون التي تحمل اسم «في ذكرى» [التي كتبها في رثاء صديقه]، عندما رن جرس الهاتف، أجابت إنديرا ووجدت صوتًا غير مألوف يخبرها على عجل أن كامالا ستُعتقل في اليوم التالي ثم أغلق الهاتف، نُسي تينسون، وذهبت إنديرا لتحزم حقيبة والدتها وحادثت كامالا العاملين بحزب المؤتمر المحلي وأعطتهم بعض التعليمات، ثم أحرقت هي وإنديرا أكوامًا من الورق والكتيبات حتى وقت متأخر من الليل بسبب خوف كامالا من أن يُفتش المنزل، ولم تنم أي منهما.

في تمام الساعة الخامسة صباحًا في أول أيام العام الجديد اعتقلت الشرطة البريطانية كامالا وهي واقفة على سلم قصر آناند بهافان بينما إنديرا واقفة بجوارها، علمت الصحافة بالأمر ونقلته للجماهير، قالت كامالا في بيان مقتضب: «أشعر بسعادة لا توصف وبالفخر لكوني أسير على خطى زوجي.»[46] ثم اقتيدت إلى سجن مالاكا في مدينة الله آباد، وبقيت إنديرا وحيدة في ذلك المنزل الضخم ليس معها أحد سوى الخدم.

وفيما لا يكاد يبعد عن سجن كامالا بميل ونصف، في سجن نايني، سمع نهرو عن خبر اعتقالها وكتب في مذكرته: «اعتقلت كامالا! يا لها من بداية سعيدة للعام الجديد. لا بد أنها سعيدة الآن ومن الممكن جدًّا أن الراحة في السجن ستفيدها. إندو المسكينة وحيدة، تُرى ما الانطباعات التي يمكن أن تتركها كل هذه الأحداث على عقل طفلة صغيرة؟»[47] وفي اليوم نفسه كتب رسالة في كتاب «لمحات» لم تُبعث إلى «إنديرا المسكينة» يخبرها أن خبر اعتقال كامالا «هدية سارة لي في رأس السنة الجديدة ... ولا يخالجني الشك في أن أمك راضية وقريرة العين، ولكنك بلا ريب تشعرين بالوحدة.»[48]

كانت إنديرا بالفعل تشعر بالوحدة، وما إن سمع موتيلال وسواروب راني والآخرون عن اعتقال كامالا حتى عادوا من كلكتا، ولكن إنديرا ظلت

تشعر بالوحدة في ظل وجود والديها في السجن، وبعد الحكم بسجن كامالا ستة أشهر ونقلها من الله آباد إلى السجن المركزي في لوكناو كتبت كامالا إلى جواهرلال تقول: «عندما اعتقلت كنت قلقة حيال إندوجي، وتساءلت ما تفعل وحدها. ولكني الآن أشعر بالطمأنينة نوعًا ما بأنها تستطيع الاعتناء بنفسها، لقد وعدتني بأنها ستظل مرحة وستعتني بنفسها.» أما عن كامالا نفسها فقد كانت مصممة على أن تستفيد من حياتها اليومية في السجن:

> «بعد كوب من الشاي بعد الاستيقاظ في الصباح أمشي تقريبًا مسافة تتراوح بين ميل ونصف إلى ميلين، وبعد تلاوة الصلوات أقرأ. يأتي العشاء في السادسة مساء، ثم نُحتجز حتى الليل. وننام في التاسعة أو العاشرة. ثم نستيقظ ثانية في الخامسة … كنت أود أن أغزل داري (سجادة خشنة) ولكن الأمر يتطلب وقتًا لتعلمه، لذلك أركز الآن على عمل نيوار (شريط سميك من القطن) وسأقارنه بالنيوار الذي تصنعه، لنر أيًّا منهما أفضل. الحياة في السجن غريبة؛ فأنت تتعرف على أنواع مختلفة من البشر هنا وتتاح لك الفرصة كما لن تجدها في أي مكان آخر لدراسة طبائعهم … أنا مصممة على استمداد القوة وأنا في السجن والقتال بقوة أكبر عندما أخرج منه.»[49]

في ١٢ يناير/كانون الثاني ذهبت إنديرا مع جديها لزيارة نهرو في سجن نايني، وفي اليوم التالي كتب نهرو رسالة «لمحات» أخرى غير مرسلة توضح كيف كان اللقاء مقلقًا: «لقد كان من الجميل لقاؤكم جميعًا بالأمس، ولكني صُدمت من منظر جدك. إنه يبدو ضعيفًا ومريضًا للغاية … ولم تتسن لي الفرصة للتحدث معك البارحة. فماذا يمكن للمرء أن يفعل في لقاء قصير كهذا؟ إني أحاول الاستعاضة عن كل هذه اللقاءات والأحاديث التي لم نفعلها عن طريق كتابة هذه الرسائل، لكنها بديل ضعيف، ولا يستمر الادعاء طويلًا.»[50]

بعد أسبوع تلقى نهرو رسالة من إنديرا تخبره فيها أنها قرأت كتبًا كثيرة من مكتبة آناند بهافان وتطلب منه أن يقترح المزيد، وفي رسالة لم تصلها

من رسائل «لمحات» وبخها على عدم إخباره بالكتب التي قرأتها تحديدًا، ثم استمر في تأنيبها قائلًا: «إن القراءة عادة جيدة، ولكن الشك ينتابني في هؤلاء الذين يقرءون كتبًا كثيرة بسرعة، فأنا أشك في أنهم لم يقرءوها كما ينبغي وإنما تصفحوها فحسب ثم نسوها في اليوم التالي.»[51] ومع أن هذه الرسالة لم ترسل، فإن قراءات إنديرا — أو بالأحرى ثقافتها — أصبحت مدعاة للجدل، كان نهرو يريد التحكم في نموها الفكري ورغبت هي في نيل حرية قراءة ما تريد، بما في ذلك حكايات الجن عندما كانت صغيرة والروايات الرومانسية عندما كبرت. وكان نهرو يجبرها على قراءة أعمال هربرت جورج ويلز، وكتب عن جاريبالدي أيضًا. في بعض الأحيان كانت إنديرا تقرأها طواعية — بفهم قليل كما صرحت فيما بعد — وفي البعض الآخر كانت تُعارض، كان من الواضح أنها تقاوم الضغط عليها لقراءة نوع معين من الكتب القيمة، وعندما تُذعن وتقرأ ما يُملى عليها وتكون نتيجة ذلك أنها لم تفهمه تشعر بالبطء والنقص.

في الأسبوع الثالث من يناير/كانون الثاني استلمت إنديرا أخيرًا رسالة من كامالا في سجن لكناو جاء فيها ما يأتي:

الحب لإندوجي،

منذ أن وصلت إلى السجن ولم تصلني أخبار عن أحد. وصلني خطاب والدك في الخامس عشر وقد تمنيت أن تحتوي الرسائل على واحدة منك أيضًا. تسمح سلطات السجن بخطابين فقط كل أسبوعين. ومن ثم يمكنك أن تكتبي لي، ولكنني لا أدري كم عدد الخطابات التي يمكن أن أرسلها أنا … أخبريني عن حياتك اليومية. رجاء ابعثي لي بالتقارير النصف شهرية الخاصة بدراستك التي يرسلها المعلمون إلى والدك. أتمنى أن تتذكري ما أخبرتك إياه عندما كنت أغادر المنزل. في كل مرة أغادر فيها الثكنة للتجول أفكر فيك، عليك أنت أيضًا القيام بالمشي كل يوم. عندما أغادر السجن سنذهب معًا للتنزه، مع أن هذا سيكون بعد ستة أشهر، ولكن الستة أشهر ستمر دون أن أشعر أنا أو أنت بها.[52]

كان هذا يعد مزيدًا من الضغط عليها فيما يتعلق بدراستها، وكانت رسائلها لا تصل إلى كامالا، وكانت إنديرا تعلم أن ستة أشهر لن تمر سريعًا على الإطلاق.

لحسن الحظ كان على إنديرا أن تنتظر بضعة أيام، وفي ٢٦ يناير/كانون الثاني ١٩٣١ أعلنت الحكومة البريطانية أن جواهرلال وكامالا وغاندي والأعضاء الآخرين العاملين في لجنة حزب المؤتمر العاملة سيُطلق سراحهم جميعًا في الحال من السجن، عاد كامالا وجواهرلال إلى آناند بهافان ليشهدوا ما بات في الأساس منزل الموت، فقد كان من الواضح أن مرض موتيلال شديد وأنه لن يعيش طويلًا، وعلى إثر هذا بعث جواهرلال إلى غاندي الذي رحل على الفور من بومباي، ووصل في وقت متأخر من الليل إلى مدينة الله آباد، بقي موتيلال يقظًا طوال اليوم في انتظاره، وأخبر غاندي أنه كان يعلم أنه لن يستطيع «رؤية الاستقلال رأي العين، ولكنني أعلم أنك [أي غاندي] ستفوز بالحرية وستحصل عليها قريبًا.»[53]

في الأيام التالية انتفخ وجه موتيلال وحنجرته، وفقد القدرة على الحديث، وفي ٤ فبراير/شباط، أُخذ إلى لكناو للحصول على علاج باستخدام الأشعة السينية، وصحبه في هذه الرحلة جواهرلال وغاندي وسواروب راني وبيتي وعائلة البانديت، بلا إنديرا أو كامالا، مات موتيلال في المستشفى هناك في ساعة مبكرة من صباح السادس من فبراير/شباط عام ١٩٣١، وكان بجانبه جواهرلال وسواروب راني، وفي اليوم نفسه أحضروا جسده بالسيارة إلى مدينة الله آباد.

أذهل إنديرا خبر وفاة جدها وظلت وحيدة في خضم الحزن الذي استحوذ على العائلة، والهند بأسرها. كانت ابنة عمتها نايانتارا بانديت واحدة من القلائل الذين شاهدوا إنديرا يوم جنازة والدها؛ إذ شاهدتها وهي تقف وحيدة بجوار نضد المائدة في حجرة الطعام بآناند بهافان، وتبكي في صمت.[54] وكان بورشتام نارايان هاكسار، الذي كان عندئذ طالبًا في جامعة الله آباد في السابعة عشر من عمره، ضمن الحشود الموجودة خارج المنزل عندما أحضر جسد موتيلال إلى الخارج، وقد شاهد هو الآخر إنديرا، لم يكن قد رآها منذ عشرة أعوام. كانت طويلة وشديدة النحافة وشاحبة

الوجه، وعيناها أوسع عما شاهدهما في الماضي وأحاطت بهما ظلال سوداء كثيفة.[55]

ومع أنه لم يكن من المعتاد مشاركة النساء الهندوسيات طقوس الجنازات فقد صاحبت كل نساء عائلة نهرو — سواروب راني، ونان بانديت، وبيتي، وكامالا، وإنديرا — الجثمان ملفوفًا بعلم حزب المؤتمر والموكب الجنائزي يشق طريقه عبر شوارع مدينة الله آباد — محاطًا بالمعزين — حتى نهر الجانج حيث تجرى مراسم الحرق. وصف جواهرلال الأمر بقوله: «مع حلول الظلام على ضفاف النهر في ذلك اليوم من الشتاء اندلعت النيران والتهمت داخلها ذلك الجثمان الذي مثل الكثير لنا ممن كنا بقربه وكذلك للملايين في الهند.»[56] وبعد خمسة أيام جرى نثر الرماد المتبقي من جسد موتيلال في سانجام، وهي بقعة مقدسة يلتقي فيها نهر الجانج ونهر يامونا ونهر ساراسواتي الأسطوري، كانت هذه أول حادثة موت تشهدها حياة إنديرا، وأول رابط في سلسلة طويلة من الأحزان الممتدة عبر السنوات.

الفصل الخامس

ظهور فيروز في حياتها

في أحد أيام شهر أبريل عام ١٩٣١ سافرت إنديرا بصحبة والديها — بالإضافة إلى سائق وخادمة وخادم جواهرلال الذي يدعى هاريلال — من مدينة كولومبو إلى مدينة كاندي في سيلان (سريلانكا الآن) عندما استداروا بسرعة كبيرة عند أحد المنعطفات في الطريق، ليجدوا سيارتهم تسير في منعطف آخر أكثر انحدارًا وحدة، وانجرفت عجلتا السيارة الخلفية إلى حافة الجرف، وبينما السائق يضغط على كوابح سيارته ويحرك عجلة القيادة بسرعة نحو الاتجاه العكسي إذ بإنديرا الجالسة بجواره تفتح باب السيارة وتقفز منه، تاركة الباقين في السيارة — لمدة خمس دقائق كما أشار والدها — يندفعون أسفل المنحدر ليلاقوا مصيرهم المحتوم لولا براعة السائق وردود فعله السريعة التي أنقذتهم، وبرغم شعورها بالخجل الشديد من هذا التصرف، ففيما بعد لم يُصِب إنديرا الهلع أبدًا أثناء مواجهتها الخطر.[1]

كانوا قد ذهبوا إلى سيلان لقضاء عطلتهم، فقد كانت صحة نهرو في تدهور تام بعد وفاة والده، وبعد «الاستسلام التام غير المشروط» وهو الوصف الذي أطلقه على المعاهدة التي وقعت بين غاندي والحاكم البريطاني اللورد إيروين في مارس/آذار ١٩٣١، كانت شروط هذه الهدنة تنص على أن يلغي غاندي العصيان المدني، ويوافق على العمل في سبيل إنشاء حكومة ذاتية بالتدريج ويطلق البريطانيون سراح المعتقلين السياسيين، ويسمحون للفلاحين بإنتاج الملح للاستهلاك المحلي. كان من المفترض أن تكون سيلان مهربًا من الحزن وتسويات النزاع السياسي، ورأت إنديرا أنها مكان «خصب للغاية يتميز بالخضرة والجمال الآسر.» أما نهرو فقد شبهها بأرض آكلي

اللوتس التي ذكرها هوميروس في الأوديسا إذ قال نهرو عنها: «إنها مكان فاتن ... الطقس دائمًا رائع ... حيث يكاد المرء أن ينسى الكفاح والتعاسة الموجودين في العالم الواقعي.»[2]

ولكن الأمر كان أبعد ما يكون عن الهدوء والسكينة، فحتى في وقت العطلة تظل عائلة نهرو محتفظة بشهرتها فكأنهم ملكية عامة، فالصحافة ترصد جميع تحركاتهم، ووجوههم مألوفة للعامة الذين رأوهم في ملصقات حزب المؤتمر أو في الصور التي تنشرها الصحف، وفي «آنورادهابورا»، المدينة القديمة المقدسة، كان يأتي لزيارة جواهرلال وكامالا وإنديرا «مجموعات من العمال والعاملون بحقول الشاي وآخرون ... ممن يأتون إليهم سيرًا على الأقدام لمسافة عدة أميال حاملين معهم ... الهدايا [من] ... الزهور البرية والخضروات والزبد المعد في المنزل.»[3] ومع تجوالهم في باقي ربوع سيلان ليزوروا الآثار البوذية والمعابد والقصور والقلاع القديمة، كانت «الحشود [وراء] الأخرى» تتبعهم، وكانوا يتورطون في «دوامة من الارتباطات وإلقاء الخطب والاجتماعات وحفلات الاستقبال.» سافرت عائلة نهرو إلى أقصى مكان جنوب الجزيرة ومنه إلى أقصى شمالها بالقطار حتى وصلوا إلى مدينة جافنا حيث كان في انتظارهم هناك أيضًا «برنامج حافل.»[4]

ومع هذا الجدول المليء بالأعمال والحشود شهد زواج جواهرلال وكامالا — الذي كان في عامه السادس عشر آنذاك — تحولًا في سيلان أثر فيهما بعمق وأدهش كليهما، فكما يصفه نهرو، كان يبدو وكأن «أحدنا قد اكتشف الآخر من جديد، فكل الأعوام التي قضيناها معًا ما كانت إلا تجهيزًا لهذه العلاقة الجديدة الأكثر حميمية وألفة.» فقد كان يدهشهما — وهما يشاهدان حطام زيجات أخرى عديدة — كيف استطاعا أن يبقيا على «تلك الشرارة مشتعلة.»[5] ولم تكن تلك الشرارة مشتعلة من منطلق الحب العذري فحسب؛ فقد قال نهرو فيما بعد لغاندي إن لمسة كامالا (وحدها بخلاف جميع البشر) «دائمًا ما تهز كيانه.» وكانت علاقتهما «غالبًا مؤلمة»، ولكنها كانت في الوقت نفسه «مثيرة.»

لم يكن حب نهرو لزوجته، كما أدرك في ذلك الوقت، إلا خليطًا نادرًا، فقد كانت هناك تلك الحالة اللذيذة من الانجذاب الجنسي، ولكنه ما لبث

أن تصاعد وازداد شدة منذ أن ظهر نشاط كامالا السياسي قبل عامين مع زيادة احترام نهرو وإعجابه، فقد كان نهرو رجلًا لا يمكن أن ينجذب إلا لامرأة يشعر أنها مساوية له، وأدركت كامالا هذه الحالة مؤخرًا عندما خرجت في شوارع الله آباد للتظاهر عام ١٩٣٠، والآن في سيلان يتشاركان في نوع متضاد من أنواع الألفة العاطفية، فمن جانب كانت كامالا هي «الشخص الوحيد الذي يستطيع الدخول في ثنايا الحياة الخاصة المنعزلة» لزوجها، وهي الشخص الوحيد القادر على اختراق عزلته، وفي الوقت نفسه ظلت شخصية كل منهما للآخر محيرة ومجهولة إلى حد ما، قال نهرو عن زوجته في هذا الشأن: «إنها كانت غامضة علي وكنت غامضًا عليها و... لم تتوقف أبدًا المفاجآت ولا الاكتشافات.»[6]

كيف كان وضع إنديرا في هذه الحالة الجديدة من الحميمية التي انتابت والديها؟ كان العدد ثلاثة بالطبع يعد مجموعة كبيرة، كانت عائلة نهرو الآن تمثل ثلاثيًّا مختلفًا حيث إنديرا كالمشاهد، تحوم حول جوانب علاقة والديها، وربما هي متأثرة بها، ولكنها إلى حد ما بعيدة عنها.

أما الآخرون فقد كانت الأسرة تدهشهم، ففي عمر الثانية والأربعين أصبح نهرو أصلع تحيط عينيه الهالات السوداء، أما كامالا، التي تصغره بعشرة أعوام، فقد كانت هيفاء ذات بشرة صافية وناعمة، لا تزال تبدو وكأنها فتاة صغيرة. أما إنديرا، التي كانت تبلغ الرابعة عشر، فكانت قد بلغت أقصى طول لها وهو خمسة أقدام وبوصتين (١٥٧,٥سم) وكانت أطول من والدتها ببوصة أو بوصتين. كان كل من يرى نهرو يتعرف عليه في الحال، في حين كان هناك التباس في التفرقة بين كامالا وإنديرا، فكما كتب نهرو إلى أخته: «يُنظر إلى كامالا غالبًا على أنها ابنتي، ولكن ما قولك في أن يُنظر إلى إندو على أنها الأم! لقد حدث هذا الأمر مرارًا وتكرارًا!»[7]

عادت الأسرة إلى الله آباد عبر جنوب الهند والولايات الهندية المستقلة اسمًا لا حقيقة وهي ولايات ترافاكور وكوشن ومالابار وميسور وحيدر آباد حيث الحشود «المتجمهرة» ثانية، ومن ثم كانوا يندفعون «من مكان إلى آخر، ومن عمل إلى آخر دونما راحة أو سكينة.»[8] ولكن ما أدهش إنديرا بشدة في الجنوب هو الحاجز الطبقي الموجود في كل مكان، فقد تربت إنديرا على

عدم التفرقة بين الطبقات، وهي تربية غير معتادة في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، وعائلة نهرو بها العديد من الخدم الذين ينتمون إلى طائفة الهاريجان «المنبوذين» في قصر آناند بهافان والذين كانوا يعيشون ويأكلون معهم، ومن ضمنهم هاريلال الخادم الشخصي لموتيلال، وأصبح بعد وفاته خادمًا لجواهرلال. ولأول مرة في جنوب الهند تجد إنديرا التحيز الطبقي في كل مكان ذهبوا إليه، فهناك «شوارع بأكملها»، على حد قولها، محظورة على الهاريجان أو «المنبوذين» بلافتات كبيرة مكتوب عليها «للبراهمة فقط»، ومع ذلك كان المنبوذون يسيرون فيها مع الآخرين.[9]

كانت الذكرى الحية الأخرى في مخيلة إنديرا في رحلة عودتهم هي مشهد كامالا وهي تلقي خطبة في حيدر آباد تحث فيها النساء على الخروج عن سياسة حجب النساء وعزلهن، تأثرت إنديرا كثيرًا بأداء والدتها، ولكنها لم تكن تفهم وقتها اتجاهات كامالا المناصرة لحقوق المرأة، حيث إنها لم تختبر بنفسها قط أي عيوب في أنها فتاة، ولم تر إنديرا حولها أي اضطهاد للنساء، وهذا الاضطهاد بالطبع لم يكن في حيدر آباد حيث أقاموا مع قائدة حزب المؤتمر سروجيني نايدو التي تتسم بكونها امرأة ذكية وقوية ومؤثرة هي وابنتاها ليلاماني وبادماجا.

بعد عودة أسرة نهرو إلى الله آباد في أوائل مايو/أيار بوقت قصير حدث أمر ما، واحد من تلك الأحداث الخفية غير الملحوظة التي مع ضآلتها تُشكل حياة وتترك جروحًا؛ كانت نان بانديت عمة إنديرا كثيرًا ما تصفها بأنها «دميمة وغبية» وتردد ابنة عمتها هي الأخرى هذه الكلمات مرارًا وتكرارًا، ونظرًا إلى طول قامة إنديرا الذي يسبق سنها ونحافة جسدها وكبر أنفها، بالإضافة إلى لون بشرتها الذي كانت تشعر أنه داكن للغاية، تسببت «الكلمات المدمرة» لعمتها في تحطيم إنديرا عاطفيًّا، كانت إنديرا بالفعل خجولة وتشعر بعدم الطمأنينة، وتحولت على إثر رأي عمتها المؤلم فيها إلى مراهقة صامتة ومتقلبة المزاج، وظلت لفترة من الوقت لا تشعر بالسكينة ولا بالرضا عن جسدها، وبعد خمسين عامًا كان رأي عمتها الذي لم يراع مشاعرها «لا يزال نابضًا في مخيلتها» فقد «دمرت شبابها»، حسب كلمات إنديرا نفسها.[10]

تقاسي نساء كثيرات من جراء التعرض لتجارب «تدميرية» مشابهة في سن المراهقة، ولكن إنديرا لم يكن لها سوى قليل من الدعامات التي يمكنها الاتكاء عليها، هذا إذا لم تكن منعدمة، ولا يوجد أحد تتجه إليه في الواقع؛ فوالداها منشغلان بالسياسة وأحدهما بالآخر، وجدها توفي، ولم يكن لديها أصدقاء وأولاد عمومتها لا يزالون أطفالًا صغارًا، وبالإضافة إلى هذا كانت إنديرا على وشك الرحيل إلى المدرسة، حيث تقرر هذا الأمر قبل عطلة سيلان، فقد كان جواهرلال وكامالا يعتقدان أن هذا هو الحال الأفضل بالنظر إلى وضعيهما واحتمالية أن يسجنا معًا مرة أخرى.

ومن ثم نُفيت إنديرا في مايو/أيار عام ١٩٣١ إلى «مدرسة الطلبة» في بونا جنوب بومباي التي يديرها زوجان بارسيان يدعيان آل فاكيل، واللذان كانا قريبين من غاندي، ودرسا في مدرسة رابيندراناث طاغور الشهيرة في شانتينيكيتان؛ كان جيهانجير فاكيل رجلًا اشتراكيًّا تلقى تعليمه في أكسفورد، ويتبع مثله مثل نهرو مذهب اللاأدرية، أما زوجته كونفيرباي فكانت مغنية موهوبة وفنانة من فناني الباتيك (الطباعة بالشمع)،[11] ويدير الزوجان معًا روضة أطفال ومدرسة لأطفال أعضاء حزب المؤتمر تعد مشروعًا قوميًّا يشجعه الشعب في شانتينيكيتان في البنغال. كان الطلاب وهيئة التدريس جميعهم يرتدون الخادي، وعندما يُعتقل أعضاء حزب المؤتمر يمنح الطلاب عطلة، ويجري التدريس في الهواء الطلق تحت ظلال الأشجار وفي الحدائق التي تُحيط منزل آل فاكيل المكون من طابق واحد والشبيه بمساكن الإنجليز المستعمرين، والكائن في ٣ شارع ستافلي في منطقة الثكنات العسكرية في بونا. كان المنهج الدراسي المتبع يُعد الطلاب لامتحان الحصول على شهادة الثانوية العامة الهندية، ولكن كانت الفنون، وخاصة الرقص والموسيقى، كما كان الحال في شانتينيكيتان، من المجالات التي يتم التركيز عليها.

كان لآل فاكيل ابنتان، الصغرى تدعى إيرا كانت بالمنزل عندما وصلت إنديرا، ولم تر هذه الفتاة في إنديرا سوى فتاة طويلة نحيلة عصبية تحت عينيها هالات سوداء ويعلو رأسها شعر طويل غير مصفف، أما الكبرى التي تدعى جاي، والتي أصبحت صديقة حميمة لإنديرا، فقد لمحتها فيما بعد تبكي خلف إحدى الأشجار، ولمدة طويلة ظلت إنديرا بائسة، يخالجها

شعور بالحنين الشديد إلى المنزل والاشتياق الحاد لوالديها. كان في المدرسة سبعون طالبًا من الجنسين، (زاد هذا العدد إلى ١٢٠ في السنتين التاليتين مع تدفق طلاب المعتقلين السياسيين، بمن في ذلك أطفال أسرة البانديت.) ومع ذلك ظلت إنديرا لبعض الوقت الطالبة الوحيدة المقيمة إقامة كاملة بالمدرسة، هذا بالإضافة إلى كونها الأكبر والأطول بين طلاب المدرسة، ولديها أكثر أبوين مشهورين إلى حد بعيد، فلم تستطع الخروج من دائرة الملاحظة من جميع النواحي.[12]

كانت الأفكار التجريبية والاشتراكية هي أساس التدريس في المدرسة، ومع ذلك ظلت المواد البعيدة عن الفنون هي نفسها المواد التقليدية التي تُدرس في المدارس البريطانية في الهند؛ فإنديرا تدرس التاريخ والجغرافيا والتربية المدنية والفيزياء والكيمياء، ويدفع نهرو لإنديرا تكاليف إضافية من أجل حصولها على دروس في اللغة الفرنسية والسنسكريتية، هذا بالإضافة إلى تعلمها الرقص الشعبي واللغة الجوجاراتية، ومع أن المدرسة كانت مؤسسة على ميزانية صغيرة والطلبة غير المقيمين بالمدرسة يدفعون ٧ روبيات شهريًّا فمصاريف إنديرا الشهرية، بما في ذلك التعليم الإضافي، تصل إلى ١٠٠ روبية، وهو مبلغ لا يستهان به بالنظر إلى أحوال نهرو المادية غير المستقرة.

تُرى هل استفادت إنديرا من هذا التعليم باهظ التكاليف؟ مع كون إنديرا جيدة في اللغة الفرنسية كانت طالبة غير مبالية، ربما لكونها ظلت حتى ١٩٣٢ دونما أقران، ودون أحد تنافسه أو تتعلم معه إلى أن التحقت بالمدرسة فتاة بارسية تدعى شانتا غاندي (لا تمت بصلة للمهاتما غاندي أو فيروز). كانت إنديرا تكبر طالبات المدرسة بعدة سنوات والمواد الدراسية التي تُدَرّس في الفصول على مستوى غالبية الطلبة الأصغر سنًّا منها، ومن ثم ظلت إنديرا دون منافسة.

لكن إنديرا تطورت وتقدمت تدريجيًّا، خاصة بعد التحاق بنات نان بانديت الثلاث (التي لم تبلغ صغراهن سنتين) إلى المدرسة في ١٩٣٢، قامت إنديرا بدور الأم لبنات عمتها الثلاث اللائي شعرن بالتعاسة والحنين إلى المنزل أكثر منها، اتسمت إنديرا وهي مراهقة بأنها «صعبة المراس»، وهي

بالغة بأنها باردة ومنعزلة، ولكنها منذ نعومة أظافرها لم تستطع تحمل رؤية الضعفاء، فتتخلى عن جميع تحفظاتها وتقدم المساعدة لمن يحتاجها، وعندما كانت إنديرا صغيرة كان الأطفال والحيوانات هم من يمسون فيها هذا الوتر ويحصلون على مساعدتها، وفيما بعد أصبحت هذه العاطفة دعامة وقوة كبيرة وأساسًا لشعبيتها الهائلة، فكان الفقراء والمرضى والمضطهدون والمظلومون — وهم يمثلون الغالبية العظمى من الشعب الهندي — ينظرون إليها ويؤمنون أن بإمكانها مساعدتهم، وأهم درس تعلمته إنديرا في مدرسة بونا أنها تمتلك القدرة على العناية بالآخرين، وكما وصفتها شانتا غاندي: «كانت عاطفة الأمومة عندها قوية للغاية.»[13] فلم تكن فقط بنات عمتها، بل الطلاب الأصغر سنًّا وطلاب الهاريجان الذين التحقوا بالمدرسة وقت «إضراب» غاندي في سبتمبر/أيلول ١٩٣٢، جميعهم ينمون تحت جناح رعايتها.

شعر الطلاب وهيئة التدريس في مدرسة آل فاكيل بالوحدة القوية مع غاندي في أثناء صيامه ولم يوافقوا فقط على التحاق عديد من الطلاب ممن ينتمون لطبقة الهاريجان فحسب، بل خرجوا لتعليمهم في أحياء بونا، وحسبما قالت شانتا غاندي، التي التحقت بالمدرسة وأصبحت في ذلك الوقت صديقة مقربة لإنديرا، صارت إنديرا مرتبطة على وجه الأخص بفتاة من طبقة الهاريجان ترفض تعلم كيفية العد، فكانت إنديرا تجعلها تستحم وتلتقط القمل من شعرها وتعلمها كيف تجدل شعرها، ثم يعدان معًا القمل الذي وجداه في فروة رأسها، وبهذه الطريقة علمت إنديرا الفتاة كيفية العد.

وكما هو الحال في معظم حياة إنديرا كانت إنديرا وقت صيام غاندي الشهير في ١٩٣٢ في المكان المناسب والوقت المناسب، بل في حقيقة الأمر كان لإنديرا وضع متميز، في بداية ١٩٣٢ بعد فشل مؤتمر المائدة المستديرة الثاني في لندن الذي حضره غاندي، وعلى إثر القلاقل التي أثارها الفلاحون في الأقاليم الهندية المتحدة، اعتقل غاندي وفالابهباي باتيل وآلاف آخرون بموجب سلطات قانون الطوارئ الذي طبقه نائب الملك، اللورد ويلنجدون، كان نهرو سيقضي الأربعة أعوام التالية كلها، فيما عدا ستة أشهر، في السجن، يبدؤها بمدة طويلة في سجن نايني بمدينة الله آباد، وقد أطلق عليه

اسم «منزلي الآخر»، أما غاندي فكان محتجزًا خلف قضبان سجن يرفادا بالقرب من بونا حيث كانت إنديرا وبنات بانديت في بعض الأحيان يزرنه في عطلة نهاية الأسبوع.

وفي ١٣ سبتمبر/أيلول أعلن غاندي أنه سيبدأ «اعتبارًا من ٢٠ سبتمبر إضرابًا عن الطعام حتى الموت» احتجاجًا على الأمر المحلي الذي أعلنه رئيس الوزراء البريطاني رمزي ماكدونالد بتخصيص دوائر انتخابية مستقلة للمنبوذين (الهاريجان)، أرعب هذا القرار الوطنيين الذين اعتبروه محاولة مرتبة من البريطانيين لأتباع مبدأ «فرق تسد»، ولكن اعتراض غاندي على فصل الدوائر الانتخابية ارتكز على أساس ديني ومنبعه التزامه بإلغاء تصنيف المنبوذين، أما طائفة المنبوذين أنفسهم، تحت قيادة شخصية بارزة هي دكتور بيماراو رامجي أمبيدكار، فقد دعموا القرار لأنه سيعطيهم ثقلًا وهوية سياسية.

ومن ثم كان هناك مأزق، وفي سجن ييرافدا اختار غاندي أن يتبع واحدة من الطرق القليلة التي يستطيع بها الضعفاء الرد؛ فأضرب عن الطعام، ومع أن هذا لم يكن صيامه العام الأول، هذا بالإضافة إلى أن الصيام جزء لا يتجزأ من الحياة الهندوسية، كان لأداء غاندي «الصوم حتى الموت» عام ١٩٣٢ أثر هائل، فكتب نهرو المحبوس في سجن نايني إلى إنديرا (في واحدة من الرسائل غير المرسلة التي نشرها في كتابه «لمحات من تاريخ العالم»): «أنا متأثر كلية ولا أعرف ماذا أفعل، لقد واتتني الأخبار، تلك الأخبار الفظيعة، أن بابو قرر أن يجوع حتى الموت. إن ... عالمي ... يهتز ويرتج حتى إن الظلام والفراغ يبدوان في كل أرجائه.»[14] كذلك كانت السلطات البريطانية مرتاعة، ولكن لأسباب مختلفة تمامًا، فلم تكن السلطات تريد أن يموت غاندي بين أيديهم، فحاولوا إقناعه بالذهاب إلى المجتمع الذي أقامه للمدة التي حددها لصيامه، ولكن غاندي رفض أن يُطلق سراحه من السجن.

يومًا بعد يوم، والهند كلها (مع الحكومة البريطانية) تترقب، كان غاندي يرفض الطعام، ومع زيادة ضعفه الجسدي لم تفقد روحه ابتهاجها، ذهبت إنديرا وبنات عمتها لزيارته كالمعتاد في عطلة نهاية الأسبوع يومي ٢٣و٢٤

سبتمبر/أيلول، على إثرها أرسل غاندي برقية مرحة إلى نهرو المذهول تطمئنه على الأحوال قائلًا: «رأيت إندو وبنات نان بانديت، بدت إنديرا سعيدة للغاية وزاد وزنها.»[15]

بحلول اليوم الخامس من الصيام، الذي أصبح فيه غاندي ضعيفًا للغاية، منع أمبيدكار المأساة بأن وافق مع غاندي على معاهدة بونا التي تعني تخلي الهاريجان عن دعواهم للحصول على دوائر انتخابية مستقلة ورضوا بأن يكون لهم عدد من المقاعد المحجوزة للهندوس.

في ٢٦ سبتمبر، وعلى نحو مؤثر، كسر غاندي صيامه أمام مجموعة من المتفرجين وصل عددها إلى ٢٠٠ في سجن ييرافدا ومن ضمنهم رابيندراناث طاغور وكامالا نهرو وسواروب راني نهرو وإنديرا. وفي الواقع كانت إنديرا هي من عصرت البرتقال وقدمته لغاندي وقد كان هذا أول غذاء يدخل جوفه حينها، وكما كتبت إنديرا لوالدها ترك هذا الحدث:

«تأثيرًا كبيرًا في نفسي كما علمني درسًا ... لقد كانت هذه ... الأيام الأخيرة فظيعة ... عندما رأيت حالته، لم أكن أعتقد أنه سيحيا، كان الوقت من الثامنة صباحًا حتى الثانية عشرة أسوأ ساعات مرت علي في حياتي، ولكني الآن مطمئنة تمامًا لأن بابو باستطاعته القيام بأكثر الأعمال غرابة [لا يمكن تصورها].»[16]

كان الدرس المهم الذي تعلمته إنديرا من صوم غاندي هو قوة المقاومة السلبية، فبينما هو محبوس في سجن بريطاني استطاع غاندي الحصول على قدر عظيم من السلطة السياسية والمعنوية؛ فمن ناحية كان آخر ما تصبو له السلطات البريطانية الاستعمارية أو تحتاجه أن يكون هناك شهيد، ومن الناحية الأخرى لم يكن باستطاعة الهنود الحصول على الاستقلال دون قيادة غاندي، فهو فرد لا يمكن الاستغناء عنه، وغاندي، على كل تواضعه، يعلم كل هذا. وهكذا فإن ما شهدته إنديرا كان طريقة مثيرة لنيل السلطة والسيطرة بواسطة شخص ضعيف على المستويين القانوني والجسدي وتحت إمرة الآخرين، ومن ثم استطاع غاندي برفضه للطعام والتهديد باستعداده للموت أن يجبر دكتور أمبيدكار على تحقيق أهدافه، وانتصر غاندي.

الأمر الذي كان مدهشًا حول انتصار غاندي — الذي كان درسًا لفتاة مراهقة — هو وسيلته العبقرية: اللافعل، كان الصيام طقسًا شائعًا من الطقوس الهندوسية، ومن ثم لم يكن من المدهش أن يتحول إلى أداة مستخدمة غالبًا للاحتجاج السياسي في الهند، فقد كان للإضراب عن الطعام تاريخ في التأثير السياسي المحقق، وقد استقى غاندي هذه الفكرة إلى حد ما من أعضاء حركة الفينان الثورية الأيرلندية في القرن التاسع عشر، وكذلك من الوطنيين الأيرلنديين في مطلع القرن العشرين إلى جانب البريطانيين المنادين بحق المرأة في الاقتراع.

بعد إضراب غاندي المؤثر عن الطعام بدأت إنديرا في التفكير في اتباع طريقة أخرى من الإضراب، واختارت الإضراب عن الحديث وليس عن الطعام، اعتادت إنديرا وهي طفلة صغيرة أن تتحدث بلا انقطاع بل تتحدث بطريقة غير لائقة؛ فقد تحدثت بصوت عال في المحكمة، واعترضت أثناء المظاهرات وأثناء قبض الشرطة على أقاربها، واحتكرت مقابلات السجن، ولكنها تعلمت عندما كبرت كيف يمكنها الإمساك بزمام الأمور من خلال عدم الرد على الآخرين سواء باللسان أو بالخطابات، وفي ذلك الحين تحول هذا إلى عبقرية أسطورية للصمت.

وبعدما ذهبت إنديرا إلى مدرستها في بونا لم تعد لها حياة مستقرة مع والديها في قصر آناند بهافان، أو في أي مكان آخر، وفي وقت ما بدا الأمر وكأنهم ربما يفقدون منزل العائلة، ففي يناير/كانون الثاني عام ١٩٣٢ استولت الحكومة على قصر سواراج بهافان وأغلقت المستشفى التي أنشأتها كامالا فيه، وانتشرت الشائعات بأن الحكومة ستستولي أيضًا على قصر آناند بهافان الجديد لأن نهرو امتنع عن دفع ضريبة الدخل للبريطانيين، كان القلق يجتاحه بشأن أمه المسنة ولم يرغب بكل تأكيد في أن تتشرد وتصبح بلا مأوى، غير أنه اعترف في سيرته الذاتية بأنه لن يشعر بالندم إذا فقد آناند بهافان في وقت جرى فيه تجريد كثير من الفلاحين من ممتلكاتهم.

ساءت صحة كامالا من جديد عام ١٩٣٢ وظلت معظم ذلك العام تتلقي العلاج بعيدا عن منزلها؛ في البداية في بومباي ثم في كلكتا حيث

اعتنقت التعاليم الدينية لراما كريشنا،[17] وبعد أن هزل جسدها زاد حماسها الديني مما أثار غضب زوجها الذي لم يعلم بمسألة اعتناقها لتلك التعاليم إلا فيما بعد.

وفي ذلك الحين نُقِلَ نهرو من سجن نايني إلى سجن بيريلي ثم نقل فيما بعد إلى مكان أبعد وهو سجن ديهرا دون. أما عن إنديرا فوجودها في بونا على بعد مئات الأميال من والديها جعلها تفتقدهما تمامًا، وبطبيعة الحال كانت تعرف أخبارهما من الصحف، وذهبت ذات مساء بصحبة آل فاكيل لمشاهدة أحد الأفلام الخاصة بحزب المؤتمر وفيه ظهر جواهرلال وكامالا بوضوح، وتحدثت إنديرا عن هذه الواقعة في أحد خطاباتها إذ قالت: «كلاكما بدا رائعًا.»[18]

وفي مايو/أيار عام ١٩٣٢ ذهبت إنديرا مع والدتها وجدتها لزيارة رانجيت بانديت في سجن نايني، وحملت معها خطابًا من جيهانجير فاكيل بخصوص تقدم مستوى بنات آل بانديت في المدرسة، واعترض حارس السجن على تسليم إنديرا الخطاب إلى عمها في حين احتجت سواروب راني (التي تعرضت لضرب مبرح في مظاهرة اشتركت فيها خلال الشهر السابق) مما تسبب في طرد نسوة آل نهرو الثلاثة، وكانت نتيجة هذه الحادثة إخبار السلطات نهرو بمنعه من الزيارات لمدة شهر، وردًّا على ذلك أرسل نهرو خطابًا إلى مدير إدارة السجون قال فيه إنه يرفض تعرض أمه وزوجته وابنته لأي إهانات في المستقبل، ولذلك فإنه يتنازل عن جميع الزيارات، ويعني هذا التنازل أن إنديرا لن تتمكن من رؤيته سبعة أشهر أخرى.

وخلال هذه المدة أرسلت كامالا إلى جواهرلال خطابًا تخبره فيه أن إنديرا مكتئبة جراء بعدها عنهما، ولهذا كتب على الفور خطابًا لابنته قال فيه: «ما من سبب يدعو أيًّا منا، ولاسيما أنت، للاكتئاب أو أن يبدو عليه ملامح الاكتئاب. أحيانًا تشعرين بالوحدة بعض الشيء، وكلنا مثلك، ومع ذلك يجب أن نستمر في رسم الابتسامة على شفاهنا.» وحذرها من أنه عندما يلتقيان من جديد «يجب عليك ألا تنسي أن أباك يمكن أن يتحمل أي شيء إلا شيئًا واحدًا؛ أن يرى إنديرا مكتئبة ووجهها تعلوه علامات الأسى.»[19] ويبدو أن هذه النصيحة قد أتت بثمارها؛ فإما أن إنديرا أصبحت أكثر ابتهاجًا

وأملًا وإما أنها أصبحت ممثلة رائعة، فعندما التقت بوالدها بسجن ديهرا دون يوم ١٢ يناير/كانون الثاني ١٩٣٣ كتب في يومياته بالسجن عقب هذه الزيارة قائلًا: «كنت في غاية السعادة وأضحك من أعماق قلبي ... إنديرا باتت امرأة صغيرة في غاية الجاذبية ويبدو عليها الذكاء والألمعية ... إنني شعرت بالسعادة الغامرة وبالفخر لرؤيتي لها سليمة معافى وطبيعية وتنمو دون أي معوقات واضحة.»[20]

غير أن هذه اللقاءات كانت أشبه بواحات وسط الصحارى وسرعان ما خبت بهجتها، وبعد أربعة أشهر ذهبت إنديرا أثناء العطلة الدراسية لتقيم مع والدتها في ديهرا دون حيث استأجرت كاملا بيتًا لتكون بالقرب من نهرو، وكان في ذلك الوقت قد سُمح له بلقاءات نصف شهرية، لكنه ذكر في يومياته في السجن أنها لم تكن كافية، واعترف بأنه لم يكن يتوقف عن الحديث في هذه اللقاءات نظرًا لضغط الوقت كأنه على حد تعبيره «صنبور تُرِك مفتوحًا». كانت إنديرا تقابل ثورات أبيها العاطفية بالصمت وعدم الرد إلا نادرًا، وزاد عجز نهرو عن التواصل مع ابنته بعد أن أنهى كتابه «لمحات من تاريخ العالم» *Glimpses of the World History* في أوائل شهر أغسطس/آب في سجن ديهرا دون، وقال عن ذلك: «كتبت جبلًا هائلًا من الخطابات، وأرقت كمية هائلة من الحبر الهندي الجيد على أوراق هندية.» لم يختلف مصير هذا الخطاب الأخير عن الخطابات السابقة فلم يرسل قط، غير أن نهرو شعر في نهاية هذه المراسلات الغزيرة الخيالية مع ابنته — هذه المراسلات التي أبقته حيًّا قرابة ثلاث سنوات — بأن الرابطة بينه وبين ابنته لم تنفصم بل ذابت.[21]

وفي نهاية شهر أغسطس/آب، أي بعد عودة إنديرا إلى المدرسة، أطلق سراح نهرو من السجن بسبب حالة والدته الصحية الحرجة، وظل نهرو ينعم بحريته طوال الأشهر الخمسة المقبلة، وفي سبتمبر/أيلول زار إنديرا في بونا (وكذلك غاندي في بومباي)، وزار مدرسة الطلاب في بونا محملًا بالكتب وبنماذج ميكانيكية منحها كهدايا لإنديرا وغيرها من الأطفال الذين قضى معهم ساعات يبني فيها هذه النماذج ويعرضها، غير أن الجميع كانوا يشعرون في قلوبهم بالرهبة من نهرو، ولم لا فهو رجل لا يسبقه في مكانته

فيما يخص النضال من أجل الحرية سوى المهاتما غاندي، وعلاوة على ذلك فقد شعروا أيضًا بالتوتر بسبب رجال الشرطة الذين أحاطوا به في فناء المدرسة وقد ارتدى بعضهم ملابسهم الرسمية وارتدى البعض الآخر ملابس مدنية.

وفي شهر أكتوبر/تشرين الأول، أي قبل شهر من عيد ميلاد إنديرا السادس عشر، تقدم فيروز غاندي لخطبة إنديرا، وربما يكون ذلك قد حدث من خلال رسالة لها بهذا المعنى؛ إذ إنه كان في بونا، أو ربما يكون قد تقدم لها بشخصه إذ حضر إلى بومباي لزيارة أقاربه وبعدها ذهب إلى بونا حتى يرى إنديرا، وجاء تقدم فيروز لخطبة إنديرا مفاجئًا؛ كانت إنديرا تنظر إلى فيروز باعتباره لا يختلف كثيرًا عن الشبان الأعضاء في حزب المؤتمر الذين رأتهم في آناند بهافان في مدينة الله أباد، لم تكن قد رأته إلا مرات قليلة منذ التحاقها بالمدرسة، ومع ذلك فمن غير المحتمل أن فيروز — الذي أصبح شديد التمسك بكامالا وعائلة نهرو — قد أقدم على هذه الخطوة بتهور، والأرجح أنه اتخذ قراره بالزواج من إنديرا منذ بداية ارتباطه بعائلة نهرو، ولكن انتظر حتى يحين الوقت المناسب عندما تكبر.

ومهما كان تفكير فيروز فإن طلبه قوبل بالرفض على الفور، وردت إنديرا وكامالا على طلبه بطريقة دبلوماسية فأخبراه أن إنديرا لا تزال صغيرة للغاية على الزواج، ومن غير المعروف إن كان نهرو قد علم بتقدم فيروز لخطبة إنديرا، غير أن هذا السبب لم يكن مقنعًا لرفض طلب فيروز إذ إن معظم الهنديات آنذاك كن يتزوجن في سن السادسة عشرة، وكامالا نفسها كانت عروسًا في السادسة عشرة بل إن المهاتما غاندي تزوج من كاستوربا وكان الاثنان في الثالثة عشرة من عمريهما، إذن فالزواج في سن المراهقة هو القاعدة في ذلك الحين. وبعد بضعة أيام من تقدم فيروز لخطبة إنديرا أرسل غاندي رسالة إلى نهرو يخبره فيها أنه وجد زوجًا مناسبًا لإنديرا،[22] كان الرد بالرفض على طلب غاندي أكثر صعوبة من رفض طلب فيروز، لكن جواهرلال وكامالا وإنديرا كرروا حجة أن إنديرا لا تزال صغيرة على الزواج. ولم تحظ فكرة تزويج إنديرا آنذاك بالقبول إلا من جدتها سواروب راني التي قضت وقتًا طويلًا في محاولة العثور على زوج مناسب لحفيدتها.

على أن الزيجة التي حدثت بالفعل في العائلة آنذاك تمت في ٢٠ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٣٣ وهي زواج كريشنا أو بيتي نهرو من راجا

هوثيسنج، وعقدت المراسم في قصر آناند بهافان، كانت هذه الزيجة من الزيجات المدنية غير المعتادة، والسر في ذلك أن هوثيسنج يدين بالديانة الجانية في حين تدين بيتي بالهندوسية، وفي ذلك الحين كان القانون البريطاني والتقاليد الهندية تحظر عقد مراسم الزواج الدينية إذا كان الزوجان ينتميان إلى عقيدتين أو طبقتين مختلفتين، ومن المفارقات أن بيتي — أكثر أعضاء أسرة نهرو تمسكًا بالأعراف والتقاليد — هي أول من خطت هذه الخطوة الثورية بالزواج من رجل غير برهمي، وهي خطوة استشرفت عددًا من الزيجات المثيرة للجدل التي ستشهدها الأسرة فيما بعد.

صحيح أن هذه الزيجة عُدت زيجة في الخفاء بالنظر إلى المعايير الهندية غير أن هذا لم يمنع إقامة حفل زفاف جرى فيه تقديم الطعام للحضور بالإضافة إلى دفع ثمن جهاز العروس. وخلال هذه الفترة القصيرة التي حظي فيها نهرو بالحرية عام ١٩٣٣ حاول أن ينظم احتياجات الأسرة المالية بعد أن تعرضت للاختلال والفوضى منذ وفاة موتيلال قبل عامين، نظر نهرو إلى المال والممتلكات باعتبارهما «عبئًا» وكان «يتطلع إلى الوقت الذي يصبح فيه بلا مال.» ومع ذلك فقد احتاج للمال لسببين: الأول هو عدم رغبته في أن تصبح أمه فقيرة في شيخوختها، والثاني هو تصميمه على أن تتعلم إنديرا وهو أمر من وجهة نظره لا يتأتي إلا بحصولها على شهادة من جامعة بريطانية أو أوروبية. قرر نهرو وكامالا أن يبيعا كل متاع العائلة الموروث، وآنيات المائدة الفضية وصفها نهرو أنها «أشياء متنوعة ملأت حمولة عربات»، التي بقيت ولم يصادرها البريطانيون عبر السنين عوضًا عن الغرامات.

وكانت مجوهرات كامالا هي أنفس ما يمتلكان، وكانت محفوظة في خزانة بأحد البنوك، وتعود هذه المجوهرات إلى الأيام الأولى لزواجها إذ حصلت كامالا عليها من موتيلال الذي لم يبخل عليها بأي نفقات بل صمم بنفسه الكثير من هذه الحلي الثمينة، وبعد ممانعة كبيرة تخلت كامالا عن هذه الحلي للمرة الأولى في خريف عام ١٩٣٣ ولكن هذه الممانعة لم يكن سببها حبها الشديد لهذه المجوهرات؛ فلم تكن قد تحلت بها طيلة سنوات إلى جانب أنها فشلت في نيل إعجابها، وقالت إنديرا فيما بعد إن

أمها «كرهت» المجوهرات، وكانت تنظر إليها على أنها رمز لعبودية المرأة، أما السبب الحقيقي لرغبتها في الاحتفاظ بمجوهراتها فهو رغبتها في أن تترك لابنتها هذه الحلي المصنوعة من الذهب والجواهر من قلادات وأساور وأقراط وغيرها كميراث مالي آمن،[23] غير أنه ما من شيء قدر له أن يكون آمنا في حياة إنديرا، وقد بيعت كل هذه المجوهرات فيما عدا بعض القطع القليلة.

كتبت إنديرا خطابًا إلى أمها في مطلع عام ١٩٣٤ من مدرسة الطلبة التي جرى نقلها في ذلك الحين إلى حي «فيل بارل» في بومباي في أعقاب تفشي وباء الطاعون الدبلي ببونا، قالت إنديرا:

أمي الحبيبة،

لا بد أنك قد عدت من كلكتا الآن. ما رأي الأطباء؟ أخبريني من فضلك. هل ذهبت إلى شانتينكيتان؟ ... هل شعرت بالزلزال الذي وقع في مدينة الله آباد؟ ... عليكم أن تكتبوا لي كثيرًا ... أبلغي سلامي لأبي وجدتي [سواروب راني]، وحبي لكِ.

حبيبتك للأبد إندو[24]

وفي ١٥ يناير/كانون الثاني ذهب نهرو وكامالا إلى كلكتا حيث تعاود كامالا تلقي علاج طبي متخصص بالإضافة إلى زيارتها مدرسة طاغور في شانتينكيتان التي تبعد نحو مائة ميل شمال غرب كلكتا، ولكن في اليوم الذي كان من المقرر فيه أن يرحلوا من مدينة الله آباد شعر نهرو بأن الأرض تهتز تحت قدميه وهو يقف في شرفة آناند بهافان عندما كان يلقي خطبة في حشد من الفلاحين، وفي تلك الليلة غادر قطارهما المتجه إلى كلكتا عبر ولاية بيهار التي دمرها الزلزال ووصلت حصيلة الموتى فيها إلى عشرين ألف قتيل ودمر أكثر من مليون منزل، كان هذا الزلزال كارثة طبيعية مروعة على الرغم من أن غاندي وصفه بأنه قصاص «إلهي» يعاقب به الرب الهنود على خطيئة وجود طبقة المنبوذين. وبعيدا في بومباي انتاب إنديرا القلق على والديها سواء على حالة أمها الصحية أو مدى الضرر الذي لحق

بهم من جراء الزلزال، وانتابها القلق في الوقت نفسه أيضًا بشأن مستقبلها إذ إن الهدف من زيارة شانتينكيتان هو تحديد هل ستذهب إلى هناك بعد أدائها لامتحان الثانوية العامة في الربيع.

أرسل إليها والدها برقية بعد ذلك قال فيها: «إنني سأعود إلى منزلي الآخر لفترة وجيزة. تقبلي حبي وتمنياتي الطيبة. مع السلامة. أبوك.»[25] وقد قُبض على نهرو يوم ١٢ فبراير/شباط في مدينة الله آباد بتهمة إلقاء خطب تحريضية في كلكتا وأعيد إلى السجن حيث حكم عليه بالسجن لمدة عامين، وعندئذ انتقلت كامالا وحماتها إلى كلكتا لكي يكونوا على مقربة منه، وفي الوقت نفسه أمضت كامالا كثيرًا من الوقت في التعبد في المقر الذي أعده لذلك راما كريشنا، واعتادت كامالا الذهاب لهذا المقر كل يوم، وعلى الرغم من درجة الحرارة المرتفعة فقد رفضت كامالا وسواروب راني استخدام مروحة في مكان إقامتهما لأن نهرو لا يمتلك مروحة في السجن. وفي الوقت نفسه على الجانب الآخر من شبه القارة كانت إنديرا تذاكر استعدادًا لامتحانها الذي أدته في شهر أبريل/نيسان ثم لحقت بهم في كلكتا حيث قضت كل أوقاتها بصحبة والدتها عند راما كريشنا، وذهبا إلى زيارة نهرو في سجن اليبوري، وهي الزيارة التي لم يكن يسمح بها إلا مرة واحدة كل أسبوعين لمدة عشرين دقيقة.

كان وقتًا عصيبًا؛ فكامالا ليست بصحة جيدة، ونهرو في السجن، وإنديرا قلقة بشأن نتيجة امتحانها وبشأن أبويها وأيضا بشأن مستقبلها، وكان لقاؤها مع والدها في السجن مجهدًا لها ويتسم بالتوتر وفيه تظل صامتة لا تتحدث. بدت إنديرا في عيون الآخرين فتاة لا مبالية ومحبَطة ولم تبد أي حماس بشأن إمكانية التحاقها بالجامعة في شانتينكيتان إذا تقرر أن تلتحق بها في حال نجاحها في الامتحانات، ووصفت إنديرا هذه الفترة من حياتها فيما بعد قائلة: «كنت مرهفة الحس، وعنيدة، وأنانية ... وتسبب ذلك في شعوري أحيانًا بالشفقة على نفسي وبالإحباط وعندما كبرت ووصلت إلى سن الرشد تحول هذا الشعور إلى اكتئاب.»[26]

ولكن نهرو لم ير في ابنته سوى أنانيتها وعدم تحملها المسؤولية وأغفل وحدتها وحزنها، وأرسل خطابًا إلى نان بانديت يشكو فيه من

أن إنديرا لا ترسل خطابات لوالديها إلا نادرًا «إنها تتجاهلنا ... تمامًا.» وشعر أنها أصبحت «أنانية بصورة مذهلة، وهي تعيش في الأحلام والأهواء، وتسبح في عالم الخيال.» ومن ثم لم يكن من المستغرب أن يقول إن إنديرا «تغضبني.» نظر لها باعتبارها تتجه أكثر وأكثر لأن تكون «فتاة كسولة واهنة.»[27] وفي خطاب آخر استطرد نهرو في هذه المسألة قائلًا: «إذا كان بإمكاني كراهية صنف معين من الفتيات فسوف أكره ذلك النوع الواهن الذي يمضي حياته متكاسلًا مترددًا حيرانًا لا يعرف ماذا يفعل وينتظر من الجميع الانصياع لرغباته وتأدية احتياجاته، وقد تكونت في إنديرا الكثير من صفات هذا النوع ... إنها لا تبالي بالآخرين. هذا عيب في غاية الخطورة ... وإندو ... تتمحور حول ذاتها ... أنانية، ولا تفكر في الآخرين إلا لمامًا.»[28]

زادت إنديرا الأمور سوءًا عندما كتبت إلى أبيها خطابًا بشأن ترتيبات إقامتها في شانتينكيتان، زعمت إنديرا في خطابها أن جيهانجير فاكيل — الذي كان يدرس في شانتينكيتان — أخبرها أن نُزل إقامة الطالبات هناك لن تكون «مناسبة خصوصًا فيما يتعلق بالطعام.» وأعربت عن خشيتها من تعرضها للمرض، وسألت أباها إن كان بمقدورها الإقامة في منزل بالقرب من الجامعة يمتلكه أحد الأصدقاء وأن تأخذ معها خادمة من آناند بهافان لتطبخ لها وتنظف المكان، اعترض نهرو على هذه الفكرة ورد عليها بخطاب قال فيه: «لا تعجبني فكرة أن تنفصلي عن [قطيع العوام] وأن تطلبي معاملتك معاملة خاصة على غرار أمير ويلز عندما يذهب إلى الجامعة ... إنني على ثقة من أن الحياة هناك لن ترهقك، وأعتقد أنك يجب أن تقيمي في المكان الذي تخصصه لك إدارة الجامعة ... تناولي الطعام الذي يعطونه لك ... واعلمي أنني لا أخشى من أن يعاملك الجميع بقدر قليل من الاهتمام، بل أخشى معاملتك بقدر أكبر من الاهتمام، وهذه المعاملة المتميزة التي من المتوقع أن تحصلي عليها لا يمكن منعها لأنك تنتمين إلى عائلة مشهورة.»[29]

كان لهذا التوبيخ أثر عظيم على إنديرا يعادل ما أحدثه من قبل توبيخ نهرو لها عندما قفزت من السيارة وهم على حافة الجرف في سيلان، وبعد ذلك لم تطلب قط (على الأقل علنًا) أن تحظى بمعاملة خاصة.

وقبل التحاقها بشانتينكيتان سافرت إنديرا إلى كشمير لقضاء أربعة أسابيع مع عمتها لاكشيمي بانديت وزوجها رانجيت بانديت وبناتهما الثلاثة تشاندراليخا، ونايانتارا وريتا، وكانت معهم أيضًا مربية الأطفال الإنجليزية السيدة بيلشر، وفي ذلك الحين كان رانجيت بانديت قد انتهى لتوه من ترجمة كتاب عن تاريخ كشمير في القرن الثاني عشر مكتوب باللغة السنسكريتية (أنجز معظم الترجمة في السجن) وأراد أن يلتقط بعض الصور الفوتوغرافية ليتضمنها الكتاب. أقاموا جميعًا في سريناجار في منزل أحد الأقرباء الذين عزف أحفاده عن الرحيل للجنوب مع باقي العائلة قبل قرنين من الزمان، عاش هذا القريب في منزل ضخم مبني على مساحة كبيرة تحيطه أشجار الكرز، وله إطلالة رائعة من جميع الجهات على جبال الهيمالايا.[30]

كانت كشمير مدهشة، وبعد أن ظل أبواها وجداها يتحدثان عن هذا المكان طيلة سنوات وقعت إنديرا نفسها في هوى كشمير، أرسلت إلى أبيها خطابًا تحدثه عن هذه: «الأرض الرائعة التي أينما سار المرء يرى أمامه منظرًا بديعًا من القمم التي تكسوها الثلوج ... والينابيع الجميلة ... ومنذ أن وقعت عيناي على التشينار [شجرة تشتهر بها كشمير] أعجبت بها أيما إعجاب، إنها شجرة فاتنة.»[31] وما شعرت به إنديرا من سحر في كشمير كان حقيقيًّا وأثر فيها تأثيرًا عميقًا، ومنذ هذه الزيارة الأولى لها لكشمير اختارت شجرة التشينار لتكون رمزًا مقدسًا، رمزًا للمكان الذي يمثل لها السلام والجمال والتنوير.

اتسمت كشمير بالصفاء؛ فالهواء بارد ونقي ويمكن للمرء أن يرى ببصره لمسافة عدة أميال، وفيها تسير مياه الجداول والأنهار سريعة ويغطيها الثلج بعكس مياه نهر الجانج الملوثة، وكانت الجبال البعيدة تلوح في الأفق بلونها الأبيض وبضخامتها الشديدة الجلية للعين، يا لها من روعة! شعرت إنديرا بالنشاط والحيوية تدب في أوصالها في هذا المكان الذي لا يوجد به سوى عدد قليل من السكان بعد أن عاشت وسط زحام البشر في الشوارع والمدن الواقعة في السهول. قامت إنديرا وبنات آل بانديت بجولات طويلة في الغابات لم يروا خلالها شخصًا واحدًا لساعات، وفي ظل هذا الصمت الرهيب كان بوسعهم سماع أصوات الحيوانات الصغيرة، وتغريد الطيور، وحفيف الأشجار، وتراتيل الرهبان البوذيين على البعد.

وسوف تعود إنديرا لتزور كشمير مرارًا وتكرارًا في السنوات التالية وسيسود تلك الزيارات مشاعر متناقضة من الفرح والتوتر والخطر والهزيمة والحزن، شعرت أن كشمير لم تخذلها قط وباتت تعشقها بشدة بل امتد عشقها وإخلاصها للمكان ليكون أشبه بنوع من الإيمان بالخرافات، وقد جاءتها كل معتقداتها الدينية على أرض كشمير مثل فكرتها عن الفردوس، وهي إحدى الأفكار النادرة التي استمرت متمسكة بها طوال حياتها، وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت كشمير مكانًا لم تطله معارك السياسة لسنوات طويلة ولهذا كانت نظيفة وصافية فيما يخص السياسة أيضًا، ومن ثم باتت مصدرًا للراحة والسعادة. لم يراود إنديرا مثل هذا الشعور بالارتباط بالمكان سواء في الأقاليم المتحدة [التي أصبحت فيما بعد ولاية أوتار براديش] أو حتى في آناند بهافان، وتعمدت إنديرا أن تكون فيها كل صفات الهنود مستخدمة استراتيجية تجعلها سريعة التغير في المواقف المختلفة حيث ارتدت الساري وتناولت الطعام الهندي، وتحدثت باللغات التي تتكلمها مناطق الهند المختلفة، وبطبيعة الحال كانت تلك استراتيجية سياسية متعمدة غير أنه يمكن القول إنها فعلت ذلك بدافع حقيقي صادق في شخصيتها؛ فإنديرا غاندي لم ترتبط بكافة ربوع الهند وإنما كانت كشمير تسكن قلبها، وكان هذا بمنزلة اكتشاف مذهل في مايو/أيار ومطلع شهر يونيو/حزيران عام ١٩٣٤.

عندما كانت إنديرا في كشمير كتب نهرو — وهو حبيس في سجن ديهرا دون — الرسالة التالية لترفق مع طلب تقدمها إلى شانتنكيتان الذي قُدِّم مرفقًا به نتيجة امتحان القبول (جيد في اللغتين الإنجليزية والفرنسية، ومقبول في باقي المواد) عندما وصلت نتيجة الامتحان في شهر يونيو/حزيران:

> اضطرت منذ نعومة أظافرها أن تتحمل مشقة المشكلات السياسية الوطنية والثورات المحلية التي تسببها هذه المشكلات، وتأثر تعليمها بسبب ذلك إذ لم يكن فيه أي استمرارية، ولفترات طويلة كان الجو حولها يفتقر إلى السلام والهدوء نتيجة انشغال أبويها أو أقاربها بالشؤون العامة التي أدت كثيرًا إلى الزج بهم

خلف قضبان السجون والابتعاد عنها، وبطبيعة الحال تركت هذه الأحداث انطباعات قوية في ذهنها الناشئ ...

يود أبواها أن تتخصص في دراسة إحدى المواد أو بعضها وهذا من شأنه أن يمكنها فيما بعد من أداء بعض المهام الاجتماعية المفيدة وفي الوقت نفسه يمكنها من أن تعتمد على نفسها ماليًّا ما دام النظام الحالي للطبقات قائمًا، ومن غير المحتمل أن تعيش بمال لم تكسبه بجهدها وعملها بالإضافة إلى أن أبويها لا يرحبان بفكرة أن تعتمد في حياتها على زوجها أو على أي شخص آخر كائنًا من كان ...

حاولنا التعرف على ميولها ولكننا حتى هذه اللحظة لم يحالفنا النجاح في التعرف على أي ميول مميزة، ومن سوء الطالع فإنني كنت طوال السنوات الأربع الماضية خلف قضبان السجن وهو الأمر الذي أبعدني عنها وحرمني من متابعة تطورها. وإن لديها رغبة غامضة في أداء الأعمال الاجتماعية والعامة، وهذه الرغبة مردها على الأرجح إلى إعجابها الشديد بأنشطة أبويها، ومما لا شك فيه أن هذه الرغبة من الأمور المحمودة غير أن الرغبة وحدها لا تكفي وإنما ينبغي عليها التسلح بالمعرفة المتخصصة في مادة بعينها، وسوف تختار هذه المادة فيما بعد.

وفي الوقت نفسه إذا قُبِلت للدراسة في شانتنكيتان فمن المفترض أن تلتحق بمعهد العلوم بجامعة ويسفابهارتي وتدرس المنهج المخصص لمستوى الطالب المتوسط، وبالإضافة إلى المواد الدراسية الإجبارية الأخرى (مثل اللغة الإنجليزية، والتاريخ، والتربية المدنية ... وخلافه) فإنني أقترح أن تدرس اللغة الهندية باعتبارها إحدى اللغات التي يتحدث بها الناس في الهند، وأن تدرس اللغة الفرنسية كإحدى اللغات الحديثة.

إن إنديرا تتمتع بحالة صحية ممتازة وإن كانت قد تعرضت بين الحين والآخر لبعض المتاعب البسيطة ولكنها ليست ذات أهمية، وهي تعاني من حين لآخر مشاكل في الحلق، فعندما كانت

طفلة صغيرة — تقريبًا في العاشرة من عمرها — أجرت جراحة إزالة اللوزتين ومع ذلك فقد تعرضت لمشاكل في الحلق فيما بعد، وإلى جانب ذلك فإن عينيها تتعبها تعبًا بسيطًا من حين لآخر، وقد نُصحت العام الماضي أن ترتدي نظارة طبية أثناء القراءة ولكنها لم تتبع هذه النصيحة إلا نادرًا، وتعتمد هذه المشاكل على صحتها العامة؛ فعندما تكون بصحة سليمة تختفي كل هذه المشاكل، أما عندما تكون سقيمة فإن هذه الأعراض تظهر. وتتمتع إنديرا في الوقت الحالي، وأيضًا في الماضي القريب، بصحة جيدة، وإن عدم أدائها التدريبات البدنية يجعلها عادة واهنة ومتوعكة الصحة.[32]

وبصيغة أقل رسمية من الرسالة السابقة كتب نهرو رسالة إلى آنيل شاندا سكرتير الشاعر رابيندراناث طاغور قال فيها إن «أفكاري الشخصية عن التعليم غريبة بعض الشيء ... فإنني أمقت التعليم الذي يعد الفتاة لأن تلعب دورًا في غرفة الصالون فقط وليس في أي مكان آخر، فعلى المستوى الشخصي ... أود أن يتضمن تعليم ابنتي قضاءها عامًا في مصنع شأنها شأن أي عامل، ولكنني أعتقد أن حدوث مثل هذا في الهند في الوقت الحالي لهو أمر من قبيل المستحيل.» وما أراده نهرو لإنديرا هو نظام تعليمي صارم، وكان نظام التعليم البريطاني في ذهنه هو النظام الأمثل في هذا المجال. واستطرد في رسالته لشاندا أنه وكامالا «ليس لديهما الرغبة لأن يُلحقا [إنديرا] ... بأي من الجامعات الهندية الرسمية فإنني أمقت هذه الجامعات بشدة.»[33]

وعلى الرغم من إجلاله الكبير لطاغور فإن نهرو ساورته الشكوك بشأن المعايير الأكاديمية في شانتنكيتان، ونظر إليها باعتبارها نوعًا من الإعداد التعليمي لإنديرا بحيث تظل تدرس هناك إلى أن يستطيعوا إلحاقها بالدراسة في جامعة أوروبية. والمفارقة هي أنه من بين جميع المدارس التي التحقت بها إنديرا — سواء هندية أو أوروبية — كانت شانتنكيتان هي الوحيدة التي أثرت فيها كطالبة خلال مشوارها التعليمي المتقلب، وتعلمت فيها كل الأمور المهمة والمفيدة.

وفي بداية شهر يوليو/تموز استقلت إنديرا وكامالا القطار من شمال غرب كلكتا إلى مدينة صغيرة اسمها «بولبور» تبعد ميلين تقريبًا عن شانتنكيتان، كانت المدرسة تقع في وسط منطقة برية جميلة بها بساتين من النخيل والمانجو، وطريق مرصوف بتراب أحمر، والأرض كأنها مستديرة وليست مسطحة، والسماء الزرقاء الشاسعة تمتد لتملأ الأفق، وفي كل مكان توجد قرود ذات وجه أسود، ويُسمع نعيق البوم في الغسق، وعندما يحل الليل تظهر مئات اليراعات التي تنير في الظلام، كانت هذه الفترة هي أول مرة تعرف فيها إنديرا حياة الريف.

كان طاغور — وهو شاعر وفيلسوف من البنغال — قد أسس مدرسة في شانتنكيتان التي يعني اسمها «دار السلام» عام ١٩٠١ في محاولة منه للمزج بين الثقافتين الهندية والأوروبية، وقد وصفها لغاندي في خطاب بأنها «سفينة تحمل شحنة من أنفس كنوز حياتي.» وأن ما كان «مجرد قطعة جرداء من الأرض في حي يهيمن عليه الفقر في البنغال تحول في ذهنه إلى مدينة فاضلة.»[34] وعام ١٩٢١ تحولت هذه المدرسة إلى جامعة فيسفابهراتي واحتوت على ثلاثة أقسام: قسم للفنون الجميلة، وقسم للموسيقى، وقسم لدراسة تاريخ الهند وثقافتها ولغاتها، وتضمنت رؤية طاغور إحداث تعاون مثمر بين الطلاب والأساتذة سعيًا إلى تعليم يدمج بين قيم الشرق والغرب، وفي المدرسة جرى تشجيع الطلاب — بنين وبنات — على العمل بأيديهم وإطلاق العنان لمواهبهم الفنية، وكانت الدروس تعطى في الهواء الطلق ويجلس الجميع — طلاب وأساتذة — حفاة الأقدام، وقد كان من الضروري وجود جو رومانسي من التواصل الحميم مع الطبيعة في شانتنكيتان.

تلك كانت الأهداف المثالية التي أقام طاغور من أجلها دار السلام، غير أن الحقيقة بدت مختلفة تمام الاختلاف؛ فعام ١٩٣٤ عندما التحقت بها إنديرا كان طاغور — أو جورديف كما كان يطلق عليه — في الثالثة والسبعين من عمره، ومحل تقدير هائل سواء من الهنود أو من الأوروبيين إذ حصل على جائزة نوبل في الآداب عام ١٩١٣ وحصل على وسام الفارس من الملك جورج الخامس بعدها بعامين، كان الكثيرون ينظرون إليه وكأنه شخص مقدس، وتقول إنديرا عنه إنه «شخص تحب النظر إليه بشعره

المتموج المسترسل إلى كتفيه، وبلحيته الطويلة، وعينيه الغائرتين ذات النظرة الثاقبة، وجبينه العريض، كان صورة مثالية للشاعر الرومانسي.»[35] شجعت هذه الجاذبية والمكانة المرموقة على وجود جو من النفاق والتملق حول طاغور الذي لقب بالرجل العظيم، وأشارت معظم السير الحديثة التي تحدثت عن حياة طاغور إلى أن دار السلام في ثلاثينيات القرن العشرين كانت «مناخًا كريهًا من التملق والنفاق والسخرية.»[36] غير أن إنديرا لم تبق هناك فترة طويلة أو تمتلك من النظرة الناقدة التي تؤهلها لأن تلاحظ ذلك.

وفي حقيقة الأمر فقد شعرت إنديرا بسعادة غامرة منذ لحظة وصولها في السابع من يوليو/تموز، وأرسلت خطابًا لوالدها قالت فيه: «وأخيرًا ها أنذا في شانتينكيتان! ... كل شيء هنا بديع وفاتن وعلى طبيعته.»[37] رأت إنديرا أن المكان والمدرسة والبيئة المحيطة بل طاغور نفسه، كل شيء يروق بالفعل لمستوى اسم دار السلام، وأصبحت شانتينكيتان ملاذًا وملجئًا، وللمرة الأولى في حياتها، حسبما قالت فيما بعد، تخلصت من «مناخ الحياة السياسية الملتهب.»[38] وأضافت «لم أعش أبدًا في مكان هادئ ... عشت دائمًا في الزحام ... وكان ذلك ... إلى حد ما السبب في شعوري بالمرارة الشديدة ... نما بداخلي قدر هائل من الكراهية والمرارة، وأظن أنني غسلت هذه المرارة والكراهية من نفسي في شانتينكيتان.» وقد كانت شانتينكيتان المكان الذي تقتح فيه عقلها وروحها.»[39] وكشفت البيئة والناس والمناخ — كل القوى الخارجية — لإنديرا مركزًا ثابتًا بداخلها حيث جعلها تشعر بالأمان كما في كشمير، وقالت عن ذلك: «ما تعلمته في شانتينكيتان هو المقدرة على الحياة بهدوء داخل نفسي بصرف النظر عمّا يحدث بالخارج، ولقد ساعدني هذا الدرس كثيرًا على مواصلة الحياة.» وكان ساتياجيت راي، المخرج السينمائي الشهير، الذي كان بهذه المدرسة في مطلع أربعينيات القرن العشرين قد تحدث عن المدرسة بكلمات مشابهة إذ قال: «إذا لم تكن شانتينكيتان قد قدمت لنا أي شيء فإنها شجعت التأمل والتعجب في أقل العقول إبداعًا.»[40]

وعلى الرغم من مخاوف إنديرا فقد تكيفت بسرعة مع الطعام وظروف المعيشة في نُزل الطالبات المعروف باسم «سري بهافان أشرام» حيث شاركتها

الغرفة، المطلية باللون الأبيض وأرضيتها من الحجر، ثلاث فتيات،[41] كانت الفتيات ينمن على حصير على الأرض، ويستحممن بمياه باردة ويصببن الماء على أجسادهن من دلو، ويستخدمن مرحاضًا بالخارج، لم يكن بالنُّزل كهرباء، وكان جرس المدرسة يوقظهن في تمام الساعة الرابعة والنصف صباحًا، وكن يرتبن فراشهن ويستحممن ويطبخن ويتناولن إفطارهن، ويكنسن ويمسحن أرضية الغرفة قبل أن يحل موعد اجتماع التأمل وتلاوة التراتيل في تمام الساعة السادسة والنصف صباحًا، وتبدأ الدروس بعد ذلك بنصف ساعة. درست إنديرا اللغتين الإنجليزية والهندية والتربية المدنية والكيمياء واللغة الفرنسية التي درسها لها كاهن بوذي ألماني اسمه لاما جوفيندا (اسمه الأصلي إيرنست هوفمان). كان من بين هيئة التدريس مدرس ألماني آخر يدعى فرانك أوبردورف، كان أوبردورف وجوفيندا مدرسين دائمين، وضمت المدرسة أساتذة أوروبيين دائمين مثل مؤرخ فن مجري اسمه فابري، نجحت إنديرا في تنظيم حملة لمقاطعته بعد رفضه خلع حذائه والبقاء حافي القدمين شأنه شأن الآخرين.

وفي سجن ديهرا دون كان نهرو يتوق إلى معرفة أخبار إنديرا في شانتينكيتان، وكتب إليها خطابًا في ١٢ يوليو عما يراه عيوبًا في النظام الأكاديمي بالجامعة قائلًا: «إنها لا تقدم تعليمًا حديثًا يناسب الحياة ... العصرية، بل تركز كثيرًا على الجانب الفني.»[42] وحثها على أن تدرس مادتين علميتين على الأقل ولكنها لم تدرس سوى الكيمياء وسرعان ما تركتها لكي تتجنب الرسوب في الامتحان. كان مستوى إنديرا ضعيفًا أيضًا في اللغة الهندية التي درسها لها عالم شهير يدعى «هزاري براساد دويفيدي» الذي كان يقضي معظم الوقت في محاضراته يتلو قصائد الشعر، وكتبت إنديرا إلى أبيها خطابًا تخبره بمشاكلها قائلة: «ليست لدي أي خلفية عن اللغة الهندية، وإنني لا أعرف شيئًا بالمرة عن قواعدها.»[43] غير أن اللغة الهندية لم تكن كالكيمياء إذ كانت مادة إجبارية، ولذلك فقد ثابرت ونجحت بصعوبة.

كانت المادة المحببة لإنديرا هي الرقص المانيبوري وهو رقص هندي كلاسيكي، وهي المادة التي أصبحت تعشقها، والرقص المانيبوري يمتاز بأنه

الأكثر رشاقه وجمالًا للعناصر الإيقاعية من بين الرقصات الهندية الكلاسيكية الأساسية الأربعة، أحرزت إنديرا تقدمًا سريعًا في الرقص وسرعان ما أصبحت تشارك في عروض الجامعة، وقد كان التحيز الفني في شانتينكيتان من الأسباب المهمة التي دفعتها للنجاح بها، وباستثناء الآداب لم تكن الفنون تمثل أهمية لأسرة نهرو. وفي شانتينكيتان لم تتعرف إنديرا على الرقص فحسب بل تعرفت أيضًا على الموسيقى (الكلاسيكية سواء الهندية أو الأوروبية)، والمسرح والرسم والنحت والحرف من كافة الأنواع، واكتشفت حساسيتها الجمالية وأيضًا قدرتها على الإبداع، كان الرسم أهم فن لها ولكن الفنون الأخرى أسعدتها. وفي شانتينكيتان أيضًا بدأت إنديرا ولعها بالألوان، ولم يكن هذا الولع متعلقًا بالفنون البصرية فحسب بل أيضًا بالعالم الطبيعي بل في مجالات عادية مثل الأقمشة؛ فكانت ألوان ملابسها، عادة الساري، بداية من ذلك الحين من اختيارها — إما على حسب حالتها النفسية، أو المكان الذي ستذهب إليه، أو الموسم، أو ما يحدث في العالم — وكأنها أصبحت جزءا من عمل فني أكبر، وظلت الألوان التي ترتديها إنديرا فيما تبقى من حياتها مسألة بالغة الأهمية فهي تتغير وتكشف عما يدور بداخلها.

استمر نهرو في النظر لتعليم إنديرا في شانتينكيتان من خلال منظور أكاديمي ضيق، وأراد متابعة تقدمها الدراسي، وطلب منها أن ترسل إليه أوراق امتحاناتها «بالبريد مباشرة إلى [ديهرا دون] فيجب أن أراها.»[44] وواصل نهرو مضايقتها بشأن لياقتها البدنية فقال لها: «وماذا عن التدريبات البدنية؟ لم تذكري لي أيًّا منها، إياك أن تصبحي مثل الفتيات البنغاليات الرقيقات والممشوقات القوام العاجزات عن أداء التمارين الصعبة، وإذا لم تكوني مرتبطة بفعل شيء في الصباح فقومي بالجري.»[45]

وفي مطلع شهر أغسطس/آب بعد مرور شهر من وصولها إلى شانتينكيتان وصلتها برقية تقول: «كامالا أصيبت بنوبة حادة من مرض ذات الجنب، وساءت حالتها الصحية بشدة، وارتفعت درجة حرارتها وعانت مشاكل في التنفس.» استقلت إنديرا أول قطار متجه إلى كلكتا ثم إلى مدينة الله آباد، وصلت في ٩ أغسطس لتجد المنزل يعج بأقاربها وبالأطباء والممرضات

يرتدين ملابسهن البيضاء، ونظرًا لحالة كامالا الصحية الحرجة أفرج عن نهرو وخرج من السجن بعد وصول إنديرا بيومين، أدرك نهرو وإنديرا أن كامالا ربما لن تتعافى، وعن هذه الفترة كتب نهرو فيما بعد يقول: «إن التفكير في أنها ربما ترحل وتتركني كان يمثل هاجسًا لا يحتمل.»، ولكن برغم قلقهما البالغ لم يتحدثا معا بشأن مخاوفهما.[46]

تحسنت صحة كامالا بعض الشيء في الأسبوع التالي، وفي ٢٣ أغسطس أرسلت السلطات البريطانية خطابًا لنهرو تخبره أن فترة الإفراج عنه قد انتهت ويجب أن يعود إلى سجن ديهرا دون، وبعد ذلك بعدة أيام رحلت إنديرا إلى شانتينكيتان وهي متلهفة على العودة برغم قلقها على صحة أمها، واعترفت فيما بعد قائلة: «الحقيقة أن حياتي [عندئذ] كانت قاسية وكنت بحاجة لأن أنعم بالحرية حتى أستطيع الاستمرار.» وفي أغسطس ١٩٣٤ كان لآناند بهافان نفس الرائحة ونفس المناخ القابض للصدر الذي كان به قبل ثلاثة أعوام عندما كان موتيلال يرقد فيه وهو يحتضر قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، ولكن إنديرا رأت أنها لا يمكنها أن تترك وراءها كل شيء بهذه السهولة. وفور عودتها إلى شانتينكيتان حلمت ذات ليلة أنها «تطفو فوق بحر شاسع مظلم ووجدت أنها لا تستطيع السباحة، ثم غشيها الموج وعندها استيقظت من نومها.»[47]

سيطرت على إنديرا فكرة أن أمها تُركت وحيدة وأهملت في غرفتها بالطابق الأعلى في آناند بهافان فكتبت الرسالة الآتية إلى نهرو وهو في سجن ديهرا دون:

> هل تعرف أي شيء عما حدث بالمنزل وأنت غائب؟ أتعرف أن المنزل امتلأ بالناس عندما كانت حالة أمي الصحية سيئة للغاية ومع ذلك فلم يقم أي منهم برؤيتها أو الجلوس معها بعض الوقت، وقد كانت تتألم وحدها ولم يوجد أحد ليمد لها يد العون، ولم تحظ ببعض الراحة إلا عندما قدم ابن عمها الطبيب مادان آتال، وعندما أُفرج عنك تغير كل شيء إذ وفد الناس من كل حدب وصوب يسألون عنها ويجلسون معها. أما الآن وقد عدت مرة أخرى إلى السجن ولم يعد مادان آتال يأتي للمنزل كثيرًا كما

> كان من قبل، فهناك خطر في أن تترك أمي وحيدة ... وفور أن تقوى أمي بالقدر الكافي ينبغي نقلها إلى أي مكان خارج مدينة الله آباد.

وقبل أن تنهي خطابها قالت لأبيها:

> «أنت نفسك لا تبدو بصحة جيدة.» وعلى النقيض من هذه الجملة الأخيرة جاءها خطاب من والدها قال فيه: «ساءني للغاية أن أعلم مدى ضعفك الجسماني حتى لم تعودي قادرة على أداء التدريبات الرياضية البسيطة ... كم أود لو لم تتركي لجسدك الفرصة في أن يصبح ضعيفًا ومترهلًا، وإن عدم اكتمال لياقتك البدنية هي لي بمنزلة خطيئة كبيرة يرتكبها المرء.»[48]

ومن الواضح أن قلقهما بشأن كامالا أثر على وجهة نظر كل منهما لصحة الآخر.

فزع نهرو من حديث إنديرا عن تعرض أمها للإهمال في آناند بهافان، ولكنه كره أن يلقي بإصبع الاتهام على أحد، رأى نهرو أن نان بانديت، بطبيعة الحال، هي السبب الرئيسي وراء هذا الإهمال ولكنه لم يذكر ذلك صراحة، وأثار نهرو الموضوع مع أخته، على مضض، في خطاب أرسله لها من سجن نايني في مطلع سبتمبر/أيلول إذ قال إنه لاحظ في آخر زياراته أن «هناك في بعض الأحيان اهتمامًا بتمريض كامالا والعناية بها، وفي أحيان أخرى يكون هذا الاهتمام أقل مما ينبغي.» وأضاف أنه بشكل عام يحزنه وجود «انعدام الانسجام الذي يحدث بين الحين والحين، وأي مقدار طفيف من عدم التعاون ... في أسرتنا ... ولذا فإنني أرجوك أن تتخلصي من أي نغمات متنافرة ربما تكون تسربت على نحو عفوي.»[49]

لم يكن من المستغرب أن تظل حياة كامالا في آناند بهافان منعزلة ومختلفة، استدعيت إنديرا من جديد للمنزل في شهر أكتوبر/تشرين الأول حتى ترافق أمها في رحلتها إلى بهوالي حيث ستعالج في مصحة الملك إدوارد الخامس التي يديرها البريطانيون، أعدت إنديرا حقيبة والدتها، وبدأت هي وأمها ومادان آتال وفيروز غاندي وهاري لال خادم نهرو رحلة طويلة

بالقطار ثم بالسيارة إلى مدينة بهوالي في ١٠ أكتوبر، وبعد ذلك بأسبوع نُقِل نهرو من سجن ديهرا دون إلى سجن ألمورا بالقرب من بهوالي حتى يمكنه زيارة كامالا مرة كل ثلاثة أسابيع (وليس مرة أو مرتين أسبوعيًّا مثلما أعلن صمويل هوار وزير الدولة لشؤون الهند في البرلمان في لندن).

قضت كامالا الشهور التسعة التالية على فراش المصحة في بهوالي، وأظهرت صور الأشعة أن رئتها اليسرى مصابة بدرجة كبيرة، وبدأت في تلقي العلاج بطريقة الاسترواح الصدري الصناعي، وهي طريقة بشعة وخطيرة للعلاج إذ يجري إدخال إبرة إلى صدر المريض كل بضعة أيام حتى يُقَلّل الهواء في الرئة [انخماص الرئة] عن طريق إدخال الهواء في الغشاء البلوري المحيط بالرئتين، تناولت كامالا المورفين في الليلة التي سبقت «تزويد رئتيها بالهواء»، وفي اليوم التالي خُدِّرت تخديرًا موضعيًّا قبل أن يضع الطبيب إبرة مجوفة في صدرها ويضخ فيه الأوكسجين، لم يكن تأثير الاسترواح الصدري الصناعي يظهر على الفور بل في بعض الأحيان لم يكن يظهر لها أي تأثير على الإطلاق، وعندما تنجح هذه العملية فإن الأمر يتطلب الحقن خمس أو ست مرات خلال أسبوعين حتى يقل الهواء في الرئتين ثم يتم بعد ذلك «إعادة ملء الرئتين.» وكان من الشائع أن تتسبب هذه العملية في آثار خطيرة مثل الانسداد الغازي للأوعية الدموية، وصدمة الجنبة، والتهاب الغشاء البلوري (وهي آثار كانت تؤدي كثيرًا للوفاة قبل ظهور المضادات الحيوية). ومع ذلك وعلى الرغم من كل هذه المخاطر فقد كان الاسترواح الصناعي من الجراحات الشائعة لأنه كان يُظَن أن الرئة لو فُرغت من الهواء فيمكنها أن تستريح وتشفي نفسها بنفسها وبذلك يشفى المريض تمامًا.[50]

أقامت إنديرا مع أمها في بهوالي لمدة قاربت على الشهر، وفي الثاني من نوفمبر/تشرين الثاني أرسلت لأبيها خطابًا قالت فيه: «لم تكن أمي بصحة جيدة خلال الأيام الأخيرة الماضية؛ فدرجة حرارتها ارتفعت ... وشعرت بالوهن والضعف، أجرت أمي أول أمس العلاج بالاسترواح الصدري الصناعي للمرة الخامسة.» ثم أضافت أن أمها رغم ذلك زاد وزنها ثلاثة أرطال وأصبح وزنها ثمانين رطلًا (٣٦٫٣ كيلوجرامًا)»[51] وخلال هذه الإقامة الطويلة في

بهوالي زارت إنديرا والدها مرة واحدة في سجن ألمورا، ولكن الاثنين تشاجرا أثناء هذه الزيارة غير أن سبب هذا الشجار غير معلوم، وهددت إنديرا «بعدم مجيئها مرة أخرى [لزيارته] لمدة ستة أشهر»، ثم التزمت الصمت وأدارت له ظهرها وغادرت المكان.[52]

لم يحظ فيروز باهتمام إنديرا ويصبح جزءا من حياتها إلا عندما ذهبت إلى بهوالي مع أمها والآخرين، مع أنه في ذلك الحين كان قد تقدم لخطبتها مرتين على الأقل، فمن يا ترى فيروز غاندي، ذلك الرجل الذي يوجد في كل مكان، الذي كان فيما سبق من الزوار الدائمين لآناند بهافان وأصبح الآن رفيق كاملا وملازمًا لها في المصحة؟ وفيروز هذا لا تربطه أي صلة قرابة بالمهاتما غاندي، فهو رجل بارسي مجوسي يحمل اسمًا لعائلة جوجاراتية، وهو آخر العنقود في أسرة مهندس بحري يدعى جيهانجير فاريدون غاندي وزوجته راتيماي، عاش جيهانجير غاندي وأسرته في بومباي ولكن فيروز قضى معظم حياته في مدينة الله آباد مع خالته غير المتزوجة الطبيبة «شيرين كوميسارات» التي تبنته وتولت مسؤولية تربيته، كانت خالته جراحة بارعة بمستشفى دافرين للسيدات بالمدينة، وتبوأت مكانة اجتماعية رفيعة في الله آباد، ولكن ترى لماذا تتحمل هي المسؤولية الكاملة عن ابن شقيقتها؟ الإجابة هي أن ابن أختها من المحتمل أن يكون في حقيقة الأمر ابنها هي شخصيًّا، وإذا ما صح هذا الأمر فإن أحد المرشحين المحتملين لأن يكون أباه هو محام شهير يمارس مهنته في المدينة ويدعى راج بهادور براساد كاكار.[53]

وحقيقة عدم العثور على شهادة ميلاد لفيروز غاندي، وأيضًا حقيقة أن مستشفى الولادة في بومباي لم تسجل في دفاترها أن راتيماي غاندي قد وضعت طفلًا بها في ١٢ سبتمبر/أيلول ١٩١٢ يشيران إلى أن شيرين كوميسارات قد تكون بالفعل أم فيروز الحقيقية، ومهما يكن والدا فيروز فإن جيهانجير فاريدون غاندي زوج راتيماي توفي في مطلع عشرينيات القرن العشرين، وبالتالي انتقلت راتيماي وأطفالها الأربعة إلى الله آباد ليعيشوا جميعًا مع شيرين وفيروز، كان فيروز طالبًا في مدرسة «بيديا ماندير» الثانوية، وبكلية إيونج كريستيان، ومن الواضح أن فيروز ليست له أي

اهتمامات سياسية بالمرة قبل مظاهرة كلية إيونج كريستيان التي ألقت به في مدار عائلة نهرو، وجعلت منه على الأخص تابعًا وفيًّا لكامالا.

غير أن فيروز لم يكن تابعًا وفيًّا لكامالا فقط؛ فعندما اتخذ البريطانيون عام ١٩٣٠ قرارهم بحظر حزب المؤتمر قُبض عليه وسجن في سجن فايزه آباد جنبًا إلى جنب مع لال بهادور شاستري، رئيس لجنة حزب المؤتمر في الله آباد، الذي سيشغل فيما بعد هذا الحادث بسنوات طويلة منصب رئيس وزراء الهند لمدة تسعة عشر شهرًا في الفترة بين رئاستي جواهر لال نهرو وإنديرا غاندي للوزراء. وعقب الإفراج عن فيروز صار من الناشطين في الحملة المنادية بعدم دفع إيجارات الأراضي الزراعية في الأقاليم المتحدة خلال مطلع ثلاثينيات القرن العشرين، وهكذا سُجِنَ فيروز للمرة الثانية عام ١٩٣٢ ثم سجن أيضًا عام ١٩٣٣ بعد أن أرسله نهرو إلى القرى ليعرف أحوال الفلاحين الذين شاركوا عام ١٩٣٢ في حملة عدم دفع الإيجارات، ويتحقق بنفسه من قدر معاناتهم على يد السلطات.[54]

يخلص كل البارسيين تقريبًا للحكم البريطاني في الهند، وقد غضبت أسرة فيروز بشدة بسبب مشاركته السياسية وتقربه من عائلة نهرو، زعموا أن نشاطه السياسي سيتسبب في تعريض منصب خالته الحكومي الطبي للخطر، وسيمنع شقيقه «فاريدوم» من إنهاء دراسة القانون، وسيحرم شقيقته «تيهمينا» من إمكانية الحصول على درجة الماجستير من جامعة الله آباد، وعندما جاء المهاتما غاندي إلى مدينة الله آباد عند موت موتيلال نهرو توسلت إليه راتيماي أن يقنع فيروز بالابتعاد عن السياسة ومواصلة دراسته، ولكن غاندي عندما سمع ذلك رد على الفور قائلًا باللغة الجوجاراتية: «إذا كان بالإمكان أن يعمل معي سبعة أولاد مثل فيروز فسأحصل على الاستقلال في سبعة أيام، وفي هند المستقبل لن يسأل أحد هل حصل ابنك على الليسانس أو الماجستير، ولكن الجميع سيسأل كم مرة سجن فيها بسبب أنشطته الوطنية.»[55]

وعلى نحو شخصي فإن فيروز كان يختلف اختلافًا شديدًا عن جواهرلال نهرو، ولعل الصفة الوحيدة المشتركة بينهما هي قصر قامتهما؛ ففيروز كان طوله خمسة أقدام وست بوصات (١٧٠ سم). ولكن على النقيض

من نهرو كان فيروز بدينًا ذا شعر أسود كثيف، واتصف بالوسامة، ولكن سلوكياته لا تمت بصلة لسلوكيات عائلة نهرو الارستقراطية المهذبة؛ لم يكن فيروز مثقفًا، وكان طالبًا لا يبالي بدراسته شأنه شأن إنديرا، غير أنه كان يشترك مع إنديرا في عشقها للموسيقى الكلاسيكية وللزهور، ويرى البعض أن فيروز كان قاسيًا يحدث صخبًا وضجيجًا في حين يرى البعض أيضًا أنه كان صريحًا على نحو محبب، وفي حقيقة الأمر فإنه بالطبع كان شخصًا عاطفيًّا، يحدث صخبًا وضجيجًا، ومقبلًا على الحياة بدرجة هائلة، ولدية شهية كبيرة للطعام والشراب والجنس.

ظل فيروز زير نساء طوال حياته، وهي حقيقة من الصعب أن تنسجم مع إمكانية إخلاصه لكامالا نهرو الزاهدة بالغة الرقة التي أصبحت في أيام مرضها متدينة للغاية، وفي حقيقة الأمر فإن المشاعر التي حملتها كامالا لفيروز غير واضحة، وقد جرى تفسير علاقتهما المثيرة للريبة على أنها أشبه بعلاقة الحب التي جمعت دانتي وبياتريس تلك المرأة الإيطالية العفيفة التي ألهمته كتابة الكوميديا الإلهية، حيث جرى تشبيه فيروز بعاشق كامالا الطاهرة الورعة، ومع ذلك قام أحد زعماء حزب المؤتمر ورفيق نهرو في السجن ويدعى مينو ماساني (الذي ترك حزب المؤتمر فيما بعد ولعب دورًا مهمًّا في تكوين حزب سواتانترا ذو الاتجاه اليميني) بترديد شائعات تفيد وجود علاقة غرامية تجمع بين كامالا وفيروز الذي يصغرها باثني عشرة عاما.[56] ولم يكن ماساني الوحيد في مدينة الله آباد الذي يعلم بأمر هذه الشائعات، ففي حقيقة الأمر وضعت ملصقات على الجدران في المدينة تؤكد على وجود هذه العلاقة غير الشريفة، والمفارقة أن من وراء حملة تشويه السمعة هذه لم يكونوا ممن يتعاطفون مع البريطانيين بل من أعضاء حزب المؤتمر.[57]

وفي حقيقة الأمر فإن الحديث عن وجود علاقة عاطفية تربط بين كامالا وفيروز هو أمر لا يصدقه عقل نظرًا لحالة كامالا الصحية وأيضًا لقيمها وللانعدام المطلق للخصوصية في قصر آناند بهافان وإن كان هذا لا يمنع أنهما سافرا معًا، وبالإضافة إلى ذلك فمن غير المحتمل أيضًا أن يكون فيروز قد تقدم لخطبة ابنة المرأة التي يرتبط معها بعلاقة عاطفية،

والاثنان في نهاية المطاف كانا يعيشان في ريف الهند خلال ثلاثينيات القرن العشرين وليس في باريس خلال القرن الثامن عشر التي صورها الروائي دي لاكلوس في روايته «علاقات خطرة» مكانًا للعربدة والفسوق، ومع ذلك فإن نيران الشائعات التي قالت بوجود علاقة حميمة بين كامالا وفيروز لم تخمد قط.

ولو تنامى إلى سمع إنديرا أنباء هذه الشائعات المزعومة (سواء في ذلك الحين أو فيما بعد) لما كانت ستصدقها، فعندما التقت بفيروز للمرة الأولى في بهوالي، وبدأت في النظر إليه بعين الاهتمام بدا كأنه وجود أساسي ينبض بالحياة وسط عالم من المرض والموت في مصحة، وفيروز كان وسيمًا مفعمًا بالأمل ونافعًا ومخلصًا لكامالا بنفس قدر إخلاص إنديرا لها، وهكذا فقد كان اقترابهما أمرًا محتومًا، وكان فيروز لإنديرا بمنزلة حليف هي في أمس الحاجة إليه.

وفي ليلة ٣١ ديسمبر/كانون الأول ١٩٣٤ كان جواهرلال وإنديرا مع كامالا (وفيروز) في بهوالي لاستقبال العام الجديد، ومن الغريب أنه مع وجود كامالا في المصحة ونهرو في السجن فإن معنوياتهما كانت مرتفعة وهما يتطلعان بأمل شديد لقدوم عام ١٩٣٥ وما يتلوه من أعوام، وفي اليوم التالي عاد نهرو إلى سجن ألموا وسجل في يومياته بالسجن الكلمات الآتية:

> «لم يسبق لي أن قضيت مثل هذا الوقت الطويل والممتع مع [كامالا] ... تحدثنا كثيرًا عن الماضي والحاضر والمستقبل ... تركتها اليوم وهي مشبعة بالرضا بالسلام ... أدهشتني حقيقة كم نحن مرتبطان كل إلى الآخر، وكم تعني لي وأعنى لها ... ولإندو يبدو أنها تتكيف جيدًا مع الجميع في شانتينكيتان، وبصفة عامة فإنها تكبر وتنضج كما ينبغي ... وفيروز، يا له من شخص حلو المعشر! فبدونه لتحول الأمر إلى كارثة ... ولم يعد لديها [كامالا] سوى أصدقاء قليلين، في الحقيقة لم يعد هناك سوى فيروز والممرضة.»[58]

لكن عندما زار نهرو كامالا بعد ذلك في نهاية شهر يناير/كانون الثاني وجدها قد تغيرت كثيرًا، في البداية كانت لا تستجيب له فحسب فظن أن ذلك بسبب مرضها، ولكن فيما بعد قالت له، كما أخبر بنفسه، أنها «تريد أن تعرف الرب حق المعرفة وستركز كل تفكيرها في ذلك، واستعدادًا لهذا الأمر ينبغي لعلاقاتنا أن يعتريها بعض التغيير. يبدو أنني كنت أسير في درب بعيد عن طريق الرب.» وقالت كامالا لنهرو إنها لا لن تقيم معه أي علاقة جنسية بعد ذلك، إذ إنها ترغب في الالتزام بعهد البراهمشاريا «العزوبة.» ذهل نهرو من رفضها له، وخاصة بعد العلاقة الحميمة بينهما في ليلة رأس السنة. ولطالما غضب نهرو من التزام كامالا الديني لأن هذا الالتزام ليس ذا فائدة للدين نفسه، وأنه في الوقت نفسه «أصبحت أشغل مكانًا أقل فأقل في ذهنها المعاد تشكيله، بدا الأمر كما لو كنت في طريقي لأن أفقدها، كانت تتسرب من بين أصابعي في الوقت الذي كرهت فيه هذا الأمر وشعرت باليأس.» وإذا عدنا إلى سجن ألمورا نجد نهرو يكتب في اليوم التالي: «الوحدة في كل مكان، لا شيء يمكن أن أتعلق به: لا قوارب نجاة أو ألواح خشب طافية يمكن أن أتشبث بها في مواجهة الأمواج العاتية.» كان يغرق ولكن ما من شيء يستطيع فعله ... سوى الجلوس في ثكنات السجن وحيدًا والتفكير في مدى الفظاعة التي يمكن أن تكون عليها الحياة.[59]

قد يساء تفسير مسألة رفض كمالا إقامة علاقة جنسية مع نهرو واتخاذ ذلك دليلًا على أنها كانت على علاقة عاطفية بفيروز، وخصوصا عند النظر إلى ما حدث خلال الزيارة التالية لنهرو إذ انتابت فيروز آلام شديدة في المعدة في المساء، واضطر نهرو إلى الجلوس معه وتمريضه طوال الليل بدلًا من قضاء الليل مع كامالا، وعن هذه الليلة قال نهرو: «كانت ليلة مرهقة لم أحظ فيها إلا بقدر يسير من النوم.»[60] غير أن إحدى الرسائل التي أرسلتها كامالا لصديقة مقربة لها تظهر أنها كانت تمر بمرحلة من التقوية لمعتقداتها الدينية، قالت كامالا في هذه الرسالة: «إن جواهرلال غاضب مني، لا يوجد أحد معي الآن إلا الرب. العالم شبكة وإذا وقع المرء في شراكها فلن يكون هناك سوى المزيد من الحزن والأسى. ولقد ارتكبت خطأ كبيرًا إذ قضيت ... سنوات من حياتي وأنا ربة بيت. فإذا كنت قد بحثت عن الرب خلال تلك الفترة كنت سأجده.»[61]

وبعد أن زاد اعتلال صحتها وأصبح احتمال اقتراب موتها أمرًا حقيقيًّا لها نأت كامالا بنفسها عن «شبكة» العالم، وبدأت تدريجيًّا في التخلي عمّا يربطها بالحياة بما في ذلك ما يربطها بزوجها وابنتها، وفي ذلك الحين بدأت كامالا تتصرف باعتبارها سترحل عن دنياهم، وباتت تفكر في أنها ستكون حرة عندما تموت، ولكن جواهرلال وإنديرا لا يزالان غارقين في هذه الشبكة وانحنيا «للمزيد من الحزن والأسى.»

وفي الوقت نفسه انشغلت إنديرا بعاصفة عاطفية هبت عليها في شانتينكيتان وهي فرانك أوبردورف، الألماني الذي يدرس لها اللغة الفرنسية بالجامعة، الذي صارحها بحبه، ووجدت إنديرا نفسها للمرة الأولى في حياتها منجذبة لرجل، لم يكن حبًّا من ذلك النوع الذي يحدث في سن المراهقة إذ كانت إنديرا ناضجة تبلغ من العمر سبعة عشر عامًا وأوبردورف في منتصف الثلاثينيات، وقد التقى أوبردورف مع طاغور في أمريكا الجنوبية عام ١٩٢٢ وجاء للتدريس في شانتينكيتان عام ١٩٣٣. بدا واضحًا أنه أحب إنديرا لشخصها وليس لأنها إحدى أفراد عائلة نهرو، وربما يكون هو أول رجل ينظر إليها باعتبارها إنسانة، ظلت إنديرا تردد على مسامعه مرارًا وتكرارًا أنها إنسانة عادية في كل شيء باستثناء مصادفة «ميلادها وكونها ابنة لرجل رائع وامرأة استثنائية.» وفي حقيقة الأمر فإن هذه الكلمات تعبر عن تقييم لاذع ودقيق للنفس.[62]

وفي مارس/آذار عام ١٩٣٥ أصدر المشرف الطبي على مصحة بهوالي تقريرًا بشأن حالة كامالا جاء فيه أن وزنها زاد من ٧٧ رطلًا (٣٥ كيلوجرامًا) إلى ٩٤ رطلًا (٤٣ كيلوجرامًا) في حين انخفض نبضها من ١٢٠ إلى ١٠٠ نبضة في الدقيقة، وتحسنت شهيتها وقدرتها على الهضم، وقلت نوبات عدم قدرتها على التنفس، ولكن في الوقت نفسه كان هناك ما يسوء إذ إن الأطباء لا يزالون «يتوقعون إصابتها بمرض السل ... وأظهرت صور الأشعة التي أجريت على صدرها انخفاضًا جزئيًّا في كمية الهواء الموجودة برئتها اليسرى ... وأظهرت أيضًا وجود التصاقات في الجزء العلوي من التجويف الصدري، إضافة إلى وجود السوائل حتى مستوى الضلع الرابع في الجزء القاعدي.»[63] وجعلت هذه الالتصاقات من المستحيل مواصلة الاسترواح

الصناعي، وهكذا تحولت كامالا إلى العلاج بالنوردولين، وأخبرت أنه إن لم يطرأ على حالتها تحسن بعد استخدامها النوردولين فسيتعين عليها السفر لأوروبا وإجراء جراحة.[64]

لم تكن حالتها قد تحسنت بحلول شهر أبريل/نيسان وبات من المحتم أن تسافر للخارج، كانت هذه المسألة صعبة إذ كان نهرو خلف جدران السجن ولن يكون قادرًا على مصاحبتها، وعندما علم نهرو بالأمر تطرق إلى مسألة أن تصاحبها ابنتها في رحلتها للخارج غير أن إنديرا لم تكن تريد الرحيل عن دار السلام، وكتبت إليه تقول: «لست حريصة على الذهاب … وإن كان هذا لا ينفي أنني أرغب في أن أكون بجوار أمي ولاسيما أثناء إجرائها الجراحة.»[65] لم يكن لدى إنديرا الرغبة في الرحيل عن قصر السلام أو ربما عن فرانك أوبردورف أو كليهما.

وفي ١٣ أبريل، عندما كانت إنديرا تتدرب على أداء أول رقصة بمفردها في أحد عروض الرقص الكلاسيكي الهندي المستمدة من ولاية مانيبور، ناداها طاغور إلى مكتبه وكان قد تسلم لتوه برقية من نهرو، أخبرها طاغور بحالة أمها السيئة وأن عليها الذهاب على الفور إلى أوروبا بأسرع ما تستطيع، وعندئذ توجهت من فورها إلى سكن الطالبات وحزمت حقائبها. غادرت شانتينكيتان في اليوم التالي واستقلت القطار إلى كلكتا ثم إلى بهوالي، وبعد ذلك بأسبوع كتب طاغور رسالة إلى نهرو يقول فيها: «ودعنا إنديرا بقلوب مثقلة فقد كانت مصدر زهو لهذا المكان … وإن جميع أساتذتها — بصوت واحد — يمدحونها وإنني أعرف أنها محبوبة للغاية لدى زميلاتها الطالبات، وكل ما أرجوه أن تتحسن الأمور وأن تعود إلينا لتستأنف دراستها.»[66] غير أن صفحة شانتينكيتان في حياة إنديرا ستطوى دون رجعة.

وجدت إنديرا في بهوالي فيروز وبالطبع كامالا، أخبرها فيروز أنه يحاول تدبر وسيلة للذهاب معهم إلى أوروبا، وفي الوقت نفسه كتب نهرو من سجن ألمورا إلى ابنته «رسالة وداع» على الرغم من أنه سوف يراها في بهوالي عند الرحيل، قال نهرو في هذه الرسالة: «إنني أود أن تغادري الهند وأنت في حالة ذهنية صافية ويحدوك الأمل. وفي عمرك هذا يجب أن تنشئي في سعادة وإلا فإن شبابك ستثقله الهموم والقلاقل … وإنني لا أريدك أن تصبحي عدوانية أو ساخطة.»[67]

وبالنظر إلى الظروف فليس من المنطقي أن يتوقع المرء أن إنديرا ما إن ترحل عن الهند حتى تغمرها روح الشباب وتشعر بالأمل وتصبح خالية من الهموم، لقد أبعدت إنديرا عن أول فترة في حياتها نعمت فيها بالسلام والبعد عن صخب السياسة، لم تكن ترغب في الرحيل عن شانتينيكتان والذهاب إلى أوروبا، وأبوها يقبع خلف قضبان السجن وأمها تعاني مرضًا شديدًا، وبالإضافة إلى ذلك فقد ألقيت مسئولية كبيرة على عاتق إنديرا حتى بالرغم من أن ابن عمها الطبيب مادان أتال سيسافر للخارج معهم، وقد كتب نهرو في خطاب لها: «أنت من سيتخذ جميع القرارات هناك ... أريدك أن تتولي [مسئولية] الترتيبات سواء فيما يخص حجز غرف الفنادق [أو] حجز الإقامة في القطار ... عليك أن تعتادي على تدبر أمورك وحدك.»[68]

ذهب نهرو إلى بهوالي في ١٥ مايو/أيار ليودع كامالا وإنديرا، وبينما يجلس أمام فراش كامالا كتب تاريخًا طبيًّا مفصلًا عنها ليأخذه معه إلى أوروبا ليطلع عليه الجراحين والأطباء هناك. لم يكن هذا اللقاء الأخير حميمًا أو حتى يتسم بالعاطفة المشبوبة إذ إنه تم تحت عين وبصر سواروب راني وبيتي هاثسينج اللتين حضرا إلى بهوالي ليصطحبا كامالا للمنزل، ورحل الجميع بالسيارة إلى مدينة الله آباد ظهر ذلك اليوم، وفي مذكراته التي كتبها في السجن قال نهرو: «ودعتهم وسرعان ما بدأت رحلتي إلى ألمورا. ذهبت عبر الطريق السريع بينما ذهبت هي عبر الطريق البطيء. ترى هل سنلتقي مرة أخرى؟ وأين؟»[69]

وبعد ذلك بعدة أيام استقلت إنديرا وكامالا القطار إلى بومباي ومعهم فيروز الذي كان عندئذ يخطط للسفر إلى أوروبا، وفي بومباي زاروا غاندي الذي أرسل لجواهرلال رسالة في ألمورا يخبره فيها أنه لم يسبق له رؤية كامالا بمثل هذا القدر الكبير من الإيمان، غير أن هذه الرسالة لم تسر عن عقل نهرو الذي يتبع مذهب اللاأدرية، وفي ٢٣ مايو/أيار أبحرت كامالا وإنديرا ومادان أتال إلى ألمانيا على متن الباخرة «كونتي روسو» التي يعني اسمها «الكونت الأحمر»، واستقل فيروز القطار عائدًا إلى مدينة الله آباد وهو عازم على أن يتبعهم بأسرع ما يمكن.

الفصل السادس

في الغابة السوداء

«الصحبة على ظهر الباخرة ليست مشجعة على الإطلاق.» هكذا كتبت لوالدها بعد خمسة أيام من الإبحار فور أن دخلت الباخرة الإيطالية الكونت روسو «أي الكونت الأحمر» البحر الأحمر. كانت معظم قمرات السفينة الخاصة بالدرجة الأولى مشغولة بالهنود الأغنياء، «والذين كانوا جميعًا يعانون مرضًا أو آخر وكانوا قاصدين فيينا لاستشارة ... الأطباء.»[1] أما البقية الباقية — المكونة من الإيطاليين والأوروبيين الأصحاء — فكانوا يبقون على مسافة بعيدة من المرضى الموجودين على متن السفينة.

لم تعرف إنديرا الكثير عن شخصيات الركاب الآخرين، فقد كتبت إنديرا: «كل يوم توجد إما حفلات راقصة متنوعة أو سينما أو أي شيء آخر [ولكني] لا أحضر هذه الأنشطة وأنا واثقة أني لم أفقد الكثير، مع أن أمي تعتقد أني محبوسة في القمرة بسببها.»[2] عندما وصلوا إلى قناة السويس انجذبت إنديرا لفكرة الذهاب إلى القاهرة وزيارة الأهرامات، ولكنها قررت ألا تفعل لأن هذا يعني أن تترك والدتها يومًا كاملًا بليلته، ولكن إنديرا زارت بور سعيد مع مادان آتال، وانطلقا للحصول على رسائلهم من مقر شركة توماس كوك، ولكنهما ضلا الطريق في متاهة من الأزقة الضيقة المتعرجة، وفي النهاية وجهت إليهما دعوة لدخول متجر هندي حيث قام الرجل السندي الجالس على طاولة البيع «بالتعرف عليّ وسأل عن أمي وعنك.» ثم قادهما بنفسه إلى شركة كوك، واصطحبهما للتسوق، ورافقهما في العودة إلى السفينة حيث قدم إليهما ثلاثة علب من حلوى الملبن، وقدم باقة من

الزهور لكامالا،[3] ولم تستطع هوية إنديرا الاختباء حتى في شوارع بورسعيد المتربة التي تبعد آلاف الأميال عن منزلها، فقد كانت من عائلة نهرو.

كان هناك العديد من الرسائل التي بعثها والدها من سجن ألمورا ضمن الرسائل التي حصلوا عليها في بورسعيد، كان نهرو يريد أن يعرف بالطبع أحوال كامالا وإنديرا، ولكنه كان شغوفًا أيضًا بمعرفة رأي إنديرا في كتابه «لمحات من تاريخ العالم» الذي كان قد نُشر لتوه عندئذ. حرص نهرو على أن تكون هناك نسخة جديدة تمامًا بيد إنديرا في رحلتها من بومباي، ووقتئذ سألها عن أي الأجزاء في رسائله أعجبتها أكثر، وأخبرها عن تخوفه من أن تجد شرحه للاقتصاد مملًّا؛ «إنه موضوع جديد عليك وسيستغرق وقتًا حتى تستطيعي تقبله.»[4] ومع دخولهم إلى البحر المتوسط كتبت له إنديرا: «أشتاق إليك كثيرًا. لا يوجد هنا من أتحدث إليه أو أتنزه معه، وعندما لا أكون مع أمي أشعر أنني وحيدة للغاية.»[5] وبرغم شعورها بالوحدة والملل على ظهر السفينة ظل كتاب «لمحات من تاريخ العالم» كتابًا مغلقًا في قمرتها، وبعد ذلك ظل مغلقًا أيضًا في حجرات الفنادق والقطارات والنُّزُل في أوروبا.

نزل الجميع في تريستي في ٣ يونيو/حزيران، وأقلت عربة الإسعاف كامالا وإنديرا ومادان آتال إلى محطة القطار حيث انطلقوا في الحال في عربة نوم في القطار متجهين إلى فيينا، وعند وصولهم في تمام الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي قابلهم سوبهاس تشاندرا بوس — العضو الراديكالي البنغالي في حزب المؤتمر — الذي قادهم إلى فندق بريستول واستمر في زيارة كامالا يوميًّا أثناء إقامتهم في فيينا، وكان الزميل والصحفي الهندي نامبيار (أو نانو كما كانوا يدعونه) يصحب بوس في زياراته لكامالا، كان نامبيار — الصديق المخلص لأسرة نهرو وأخو زوج القائدة الوطنية سروجيني نايدو — واحدًا من المجموعات الهندية المنفية لوقت طويل في أوروبا، أما بوس فكان في الخارج منذ عام ١٩٣٣ فقط، وجاء إلى فيينا في الأساس بسبب حالته الصحية الضعيفة، ولكنه استغل منفاه في الدفاع عن استقلال الهند، وقد كان في ذلك الوقت مشغولًا في تكوين حلفاء مع الفاشيين الإيطاليين والألمان.

في ١٠ يونيو/حزيران كتبت إنديرا لوالدها أنها اصطحبت كامالا مع مادان أتال لاستشارة العديد من الإخصائيين الطبيين في فيينا، ولكنها بعيدًا عن هذه الزيارات لم تعرف الكثير عن المدينة، فكانت تبقى حتى تلزم كامالا، ولكن أيضًا لأنه «كان من المرعب الخروج بالساري؛ فالكل يستدير ويحدق ويرمقني من أعلى لأسفل حتى أشعر وكأني أريد أن تبتلعني الأرض أو أعود ركضًا إلى الفندق.»[6] في الوقت نفسه صممت كامالا على أن تستكشف إنديرا فيينا وأن تتجنب شعورها بأنها غريبة، فذهبت إنديرا إلى محل ملابس وابتاعت ثوبين، ثم ذهبت إلى مصفف الشعر لتقص شعرها. لم يعد الآخرون يحدقون في إنديرا عندما كانت تخرج في ثيابها الأوروبية وقصة شعرها القصيرة. أما بوس ونامبيار فقد انتقدا إنديرا لقيامها «بخلع الساري»، مع أنهما بالطبع كانا يرتديان الثياب الغربية بالخارج، ولكن نهرو كتب إليها: «أنا سعيد بأنك قصصت شعرك ... إنه من الأفضل أن تلتزمي بارتداء الفساتين ... فالساري ... ليس رداء امرأة عاملة، بل هو رداء الكسالى.»[7]

لكن إنديرا لم تنظر أبدًا إلى الرداء من وجهة نظر وظيفية مطلقة، فقد كانت الملابس من وجهة نظرها تُمثل وسيلة من وسائل التنكر أو العرض، فكانت توفر لها إما الاختباء أو الظهور، لم تكن الخيلاء من سمات إنديرا، ومع ذلك فحسها الفني القوي — حساسيتها العالية لألوان الملابس وأنسجتها وملمسها — يعني أن الملابس دائمًا كانت تُمثل شيئًا مهمًّا للغاية لها حتى إنها لم تكن تهمل أبدًا فيما يخص ارتداءها الثياب؛ ففي فيينا ترتدي الثياب وتصفف شعرها بما يسمح لها بالاختلاط، وفي أوقات أخرى في أوروبا ترتدي الساري حتى تكون مميزة وسط الجميع، وبعد ذلك بكثير في الهند تطور معنى الأثواب من الساري الذي كانت إنديرا ترتديه — بألوانه وخامته وتصميمه — إلى شكل معقد من أشكال التعبير الشخصي والاتصال السياسي.

بحلول منتصف يونيو/حزيران ١٩٣٥ كانت إنديرا وكامالا ومادان أتال قد غادروا فيينا إلى برلين حيث نُصحت كامالا بإجراء جراحة، وفي التاسع عشر أجرى البروفيسور أونفريشت عملية كي وإزالة للأورام الليفية الملتصقة

والمتكونة في رئتيها، شاهد مادان أتال العملية المعقدة وكتب شرحًا مفصلًا بها إلى نهرو الذي أبهرته التكنولوجيا الطبية المتقدمة وكتب في مذكراته بالسجن يقول: «جرى إدخال مصباح كهربائي إلى الصدر عبر ثقب صغير، وهكذا شوهد ما بداخل الجسد، وأدخلت أيضًا عدسة مجهر.»[8] وبعد استئصال الأورام الليمفاوية الملتصقة في صدرها كان من المرجو أن تستطيع كامالا الاستفادة من إجرائها لجراحة استرواح الصدر التي كان من المفترض أن تجريها عندما كانت في بهوالي، أحالها الأستاذ أونفريشت إلى مصحة في بادن فيلر في جنوب غرب ألمانيا من أجل «إجراء جراحة استرواح صدري أخرى»، وبعد أسبوع من الجراحة غادرت كامالا ومادان أتال برلين مباشرة.

أما إنديرا فقد ظلت هناك من أجل تفصيل فساتين أخرى، هكذا أخبرت والدها، ولكن في حقيقة الأمر كانت إنديرا نفسها مريضة بآلام حادة في المعدة، مثلما كتب مادان أتال بالفعل إلى نهرو (دون علم إنديرا). قامت إنديرا بعمل أشعة إكس، وتناولت جرعة علاجية من مركب البزموت، وقيل لها إن عليها الخضوع لجراحة استئصال الزائدة الدودية، ولكن بعد رحيل والدتها ومادان أتال اختفت آلام معدة إنديرا فجأة وشعرت، لدهشتها، بأنها على ما يرام تمامًا، فأُلغيت عملية استئصال الزائدة الدودية، وحجزت لنفسها في فندق أدلون وقضت يومين من الإجازة في التسوق وزيارة حديقة الحيوان والتجول في الشوارع.

لكن جوًّا منذرًا بالسوء كان يجتاح برلين، وهو ما بدا لها «إيذانًا بالحرب.» فقبل ثلاثة أشهر، وردًّا على معاهدة فيرساي، أنشأ هتلر وغورينغ القوات الجوية الألمانية (لوفتواف)، وبحلول يونيو/حزيران كانت الطائرات تحلق فوق الرءوس طوال اليوم، وفي المساء «كانت الطائرات تحلق على مستوى منخفض وكان صوتها وأضواء البحث الصادرة منها تجعل النوم أمرًا صعبًا.»[9] هذا بالإضافة إلى أن الصحف كانت تعج بأخبار خطط هتلر لضم النمسا. كانت إنديرا مثقلة بإحساس أن أمرًا ما شؤما سيقع.

غادرت إنديرا فيينا وهي تشعر بالراحة لذلك واستقلت القطار الذي سيأخذها وكامالا بعيدًا إلى بادن فيلر في الغابة السوداء بالقرب من الحدود السويسرية

والفرنسية، كانت المدينة — وهي منتجع توجد به ينابيع مياه ساخنة تشتهر بخصائصها العلاجية — لا تزيد عن كونها قرية عدد سكانها نحو أربعة آلاف نسمة مقسمين بين سكان دائمين وزوار مرضى. كان الرومان قد بنوا فيها حمامات وصل عمرها إلى ألفي سنة، وفي القرن الثامن عشر أعيد اكتشاف الينابيع الحارة، ومنذ ذلك الحين وبادن فيلر تجذب إليها المعتلين والكسالى والأثرياء والمشاهير — والمحتضرين؛ حيث مات هناك عام ١٩٠٠ الروائي الأمريكي ستيفن كرين، وفيها أيضًا مات الأديب الروسي تشيكوف، أحد الكتاب المفضلين لكامالا، عام ١٩٠٤.

وجدت إنديرا كامالا تعيش في أكثر المصحات خصوصية في بادن فيلر وهي مصحة هانز فالديك، كانت كامالا ترقد في المصحة تحت رعاية دكتور ستيفان، وممرضة اسمها أنيت، ومرافقة بالأجر وهي امرأة ألمانية شابة مرحة اسمها لويز جيسلر. أصبحت كامالا وإنديرا مغرمتين بلويز ولم يمر وقت طويل على وصلوهما إلى بادن فيلر حتى تركت إنديرا البنسيون الذي كان مادان أتال يقيم به وأقامت في حجرة مشتركة مع لويز في بنسيون إيرهاردت. كان العيب الوحيد في ذلك المكان أن السيدة إيرهاردت رفضت أن يستخدم النزلاء الحمام؛ إذ إن «النزلاء» — كما نقلت إنديرا عن صاحبة العقار لنهرو قولها — «لا يجب أن يستحموا في مكانها.» لحسن الحظ، كان لكامالا حمامها الخاص في المصحة ومن ثم استطاعت إنديرا أن تستحم هناك عندما كانت تذهب لزيارتها.

وفيما بين الزيارتين اليوميتين لوالدتها تتجول إنديرا في المدينة، بين الفنادق والبنسيونات، والعيادات والمصحات، وتتنزه في حدائق فندق «كوربارك» حيث توجد فرقة موسيقية تعزف موسيقاها يوميًّا في الهواء الطلق، وتمشي أيضًا في الريف، عبر الحقول والبساتين ومزارع العنب، وداخل غابات الصنوبر. يُقال عن بادن فيلر إنها أكثر منطقة مشمسة في ألمانيا؛ حيث هواؤها النقي كاف لشفاء أكثر المرضى ضعفًا، ولكن الغابات مظلمة مما ذكر إنديرا بالقصة الأسطورية التي كتبها الأخوان جريم التي حملت عنوان «هانسيل وجريتيل» والتي قرأتها عندما كانت طفلة. لم تكن بادن فيلر مكانًا مناسبًا لشابة صغيرة ينتابها القلق بشأن صحة والدتها،

ويعتريها الخوف بشأن صحتها هي نفسها، فقد كانت الأطلال الرومانية والغابة السوداء المحيطة (شفارتز فالد) لا تقل فيما تضفيه من شؤم عن أضواء البحث الصادرة من الطائرات المحلقة فوق الرءوس في برلين.

هذا بالإضافة إلى أن الأجواء الاجتماعية والسياسية لم تكن توحي بالسرور، كانت بادن فيلر صغيرة جدًّا مما أجبر إنديرا على الذهاب إلى فرايبورج للتسوق، حيث شاهدت ما وصفته بـ«كيفية التعامل مع اليهود.» فقد صادقها زوجان ألمانيان كبيران في السن وأخبراها أنهما واثقان من كونها من «الجنس الآري الخالص.»[10] ولكن أسلوب هذين الزوجين كان استثنائيًّا، فإنديرا تعلم جيدًا أن الهنود في عقول الألمان ينقسمون إلى طبقتين: السود واليهود، فأخبرت والدها أيضًا أن «هناك دعاية كبيرة ضد الهنود في الصحف بسبب السياسة الخارجية لإنشاء صداقات مع بريطانيا، ومن ثم لم يكن الأمر مقبولًا في بعض الأحيان.»[11]

لغرابة الأمر لم يعلق نهرو حول الموقف السياسي الأوروبي في خطاباته لإنديرا في بادن فيلر مع أنه كان أحد النقاد المبكرين والحادين فيما يخص موسوليني وهتلر في كتابه «لمحات من تاريخ العالم» (الذي لم تعبأ إنديرا بفتحه حتى تلك اللحظة). وبدلًا من هذا بعث لها نهرو خطابًا وعظيًّا آخر — الأقوى في كل ما بعث حتى ذلك الوقت — يسدي فيه النصائح بشأن صحتها، ردًّا على تقرير مادان أتال عن مرض إنديرا في برلين، فكتب إليها: «أنا لا أظن أنك على الأخص ستختلطين ... بمعشر الأطباء.» وأعاد عليها عبارته القديمة التي اعتاد تكرارها أمامها بأن الصحة الجيدة تتحقق عن طريق «نسيان الجسد بدلًا من العناية به كثيرًا مثل نبات ينمو في الدفيئة.» في الماضي كان نهرو قد أخبر إنديرا أنه يعتبر المرض «خطيئة»، والآن ها هو يقترح أن «الكلام عن الأمراض والمرض، إذا لم تكن هناك ضرورة، يجب أن يحظره القانون»، وحثها على قراءة رواية «إيرون» Erewhon لصامويل بتلر التي يكون فيها المرض «جريمة، وكلما خَطُرَ المرض تغلظت عقوبته.»

كذلك كان نهرو يعتبر نفسه مثالًا مضيئًا لابنته فيما يخص سلامة الصحة إذ كتب لها قائلًا: «خلال السنوات العديدة التي قضيتها في هارو وكمبردج ولندن لم أقض يومًا في المنزل بسبب المرض، ولم أكن أعير صحتي

انتباهًا كبيرًا؛ لقد كنت أعيش حياة طبيعية ببساطة وأزدري هؤلاء الذين غالبًا ما يعانون المرض أو يشتكون كثيرًا من علل جسدية.» وفي النهاية أضاف نهرو أن مادان أتال قد أخبره أن الأطباء الألمان الذين فحصوا إنديرا «كان رأيهم أنك لا تعانين مرضًا خطيرًا.»[12]

كان نهرو وكامالا يشعران أن إنديرا لا يجب أن تبقى في جو بادن فيلر الكئيب، محاطة بالحالات المرضية المزمنة، دون أي نشاط غير زيارة والدتها والتجول في المنتجع والضواحي، ومن ثم انطلقت إنديرا في يوليو/تموز إلى سويسرا، استقلت إنديرا سلسلة من القطارات وحدها من بادن فيلر إلى مولهايم، ومن مولهايم إلى بازل ثم إلى لوزان، مارة بذلك على بحيرتي بيل ونيوشاتل بمنظرهما الساحر، وبعد لوزان ظل الطريق قريبًا من بحيرة جنيف مع اتجاهه في المنحدر شرقًا إلى مونترو وقصر تشيلون، «وبالنظر إلى البحيرة الجميلة، المليئة بالبجع والنورس وسلاسل الجبال ومن ورائها القمم الجليدية لجبال دونت دي ميدي،» كتبت إنديرا إلى والدها معبرة عن كيفية تذكرها لحياتهما معًا في سويسرا في جبال الألب، منذ تسعة أعوام من ذلك الوقت، و«تذكرتك أنت وأمي واشتقت إليك.» ومن مونترو انتقلت إنديرا إلى بيكس لزيارة مديرة مدرستها السابقة السيدة هيمرلين التي لم تكن قد رأتها منذ أن تركت مدرسة إيكول نوفيل منذ ١٩٢٧، كانت بيكس هي الأخرى مليئة بالذكريات، ودار بينها وبين والسيدة هيمرلين «حديث عن الأيام الخوالي (قد يعتقد المرء أني في الستين من العمر على الأقل) وعنك وعن بابو.»[13]

بعد بيكس ذهبت إنديرا إلى أسكونا في جنوب سويسرا على بحيرة ماجيوري لحضور مؤتمر يحمل اسم «لقاء بين الشرق والغرب.» وعن هذا المؤتمر كتبت إنديرا لنهرو تخبره أنه كان هناك جدول لما سيقوله «الكثير من الشخصيات المهمة التي وفدت من جميع أنحاء أوروبا»، من بينهم لفيف من أساتذة الجامعة أرادت إنديرا أن تناقش معهم إمكانية التحاقها بجامعة في سويسرا، ولكن نهرو عارض هذه الفكرة، فهو يريدها أن تلتحق بجامعة أكسفورد وبالفعل كتب لصديق غاندي المقرب تشارلز فرير أندروز يطلب منه أن يقوم ببعض الاستعلامات، وكان أندروز بدوره قد تحدث مع هيلين

داربيشاير، مديرة كلية سومرفيل التابعة لجامعة أكسفورد، التي عبرت عن «أنها ترحب بالتحاق إنديرا إذا كانت مؤهلة لذلك.»[14] وهنا تكمن المشكلة، هل إنديرا مؤهلة؟ فمنذ المرة الأولى التي تطرقا فيها لموضوع كلية سومرفيل، وهي ونهرو يملؤهما القلق حيال امتحان الالتحاق بجامعة أكسفورد الذي كان على إنديرا اجتيازه.

وعندما ذهبت إنديرا إلى سويسرا في صيف عام ١٩٣٥ أخذت إنديرا معها نسخة ضخمة من كتاب «لمحات من تاريخ العالم»، ولكنها كتبت إلى نهرو أنه «غير ملائم تمامًا للسفر [فهو] … يشغل نصف مساحة حقيبة سفر صغيرة. ومع ذلك فقد أعجبتني الأجزاء التي قرأتها — ولكني لا أقرأ من البداية — مع أني أعتقد أن هذا ما يجب أن تكون عليه الحال مع كتاب في التاريخ.»[15] كان هذا الرد المتميز بالفتور هو العائد الوحيد لوقت طويل لعمل نهرو الشاق الشغوف الذي وضعه في كتابه هذا لابنته.

وهناك في بادن فيلر في أغسطس/آب كانت إنديرا قلقة حول صحة والدتها لدرجة لا تسمح لها باستكمال قراءتها المتقطعة لكتاب والدها، فقد كانت كامالا «نحيفة و… وضعيفة للغاية،» وكتبت إنديرا إلى والدها في قلق: «إن أمي دائمًا مجهدة بشدة ومنهكة بسبب … الحرارة المرتفعة على نحو مستمر، وهي لا تتحدث، وتستمع بصعوبة عندما يتحدث إليها شخص آخر.»[16] وبرغم عدم تواصل كامالا وشرودها فإنديرا تذهب لرؤيتها كل صباح في المصحة ثم تعود مرة أخرى لزيارتها كل مساء. وبينما تمشي إنديرا في المساء عائدة إلى البنسيون الذي تقطنه «تشعر بأشجار الغابة السوداء تقترب وتحيط بها.» كانت هناك عواصف رهيبة في منتصف الليل طوال شهر أغسطس/آب، وعندما تعود إنديرا إلى غرفتها تجلس في حالة مزرية أقرب إلى الهلع وهي تستمع إلى صوت الرعد والرياح بينما ستائر غرفتها مغلقة. وبعد ذلك بسنوات عندما هبت عاصفة عنيفة على دلهي ذات مساء أخبرت أحد أصدقائها الذين هالهم رعبها: «منذ أن كنت في بادن فيلر وأنا لا أستطيع احتمال الرعد أو البرق أو صوت الرياح العالي في الأشجار … فقد كنت وحيدة في الغابة السوداء، أمي على فراش الموت … ولم أستطع أبدًا أن أحرر نفسي من هذا الرعب.»[17]

لم يكن هناك من يشارك إنديرا مخاوفها، فعن فيروز كتب أنه يود لو يقنع عمته بإرساله إلى كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، ولكن شيئًا لم يتم، وفي الوقت نفسه ظهر فرانك أوبردورف في أوروبا، غير أن سبب ظهوره غير واضح فقد يكون قد ذهب إلى هناك متبعًا إنديرا، وقد يكون فعل ذلك لكونه في إجازة من شانتينيكيتان. كان أوبردورف على اتصال بها، ولكنه لم يكن قد قابلها، ومن الواضح أنه لم يستطع الذهاب إلى بادن فيلر (ولم يعرف أي من كامالا أو مادان أتال بوجود أوبردروف) وكانت كامالا مريضة بشدة لدرجة لا تسمح لإنديرا بتركها.

وفي أواخر أغسطس/آب، حدثت المعجزة — التي من شأنها أن تبدأ سلسلة الأحداث التي قادت إلى إطلاق سراح نهرو من السجن — في شخص أميا شاكرافارتي، السكرتير السابق لرابيندراناث طاغور؛ كان شاكرافارتي — الذي قابل نهرو وكامالا عندما جاءا إلى شانتينيكيتان — يدرس في ذلك الوقت في كلية باليول في أكسفورد، وجاء إلى ألمانيا في إجازة، وعندما عرف من الصحف أن كامالا في بادن فيلر قرر زيارتها، صُدم شاكرافارتي بحالة كامالا وتحدث بصراحة مع الأطباء المسئولين عن حالتها والذين أخبروه أن حالتها «ميئوس منها» و«إذا كان زوجها يود زيارتها وهي لا تزال على قيد الحياة، فعليه أن يستقل أول طائرة.» كذلك كان شاكرافارتي قلقًا حيال إنديرا التي وجدها «في حالة مزرية»، والهلع يساروها على والدتها.

غادر شاكرافارتي مباشرة إلى لندن كي يستشير أجاثا هاريسون، وهي ناشطة اجتماعية من أعضاء جمعية الكويكرز في الخمسين من عمرها زارت الهند مرتين، وانضمت تحت تأثير غاندي وشكلت بناء على طلبه مجموعة المصالحة الهندية للعمل في إنجلترا من أجل استقلال الهند، ومن ثم، بعث شاكرافارتي وأجاثا هاريسون برقية إلى دكتور ستيفان في بادن فيلر وطلبا منه أن يعلم نائب الملك في دلهي بمدى خطورة حالة كامالا، ثم كتبا خطابًا عاجلًا إلى وزارة الهند في لندن،[18] وبعد عدة أيام تلقت أجاثا هاريسون خطابًا من إنديرا (التي لم تكن قد قابلتها بعد) تقول فيه إن دكتور ستيفان قد بعث برقية إلى نائب الملك ورئيس وزارة الهند في لندن ولورد زيتلاند

ووالدها، وقالت إن كامالا لم تكن أحسن حالًا: «لا تزال تعاني الحرارة المرتفعة، وغير قادرة على تناول أي طعام مما يجعلها أكثر ضعفًا.»[19]

بعد قراءة خطاب إنديرا كتبت أجاثا إلى المهاتما غاندي عبرت فيه عن قلقها بشأن كامالا وإنديرا ثم قررت الذهاب بنفسها إلى بادن فيلر لترى هل بإمكانها أن تقدم أي شيء لهما، وكانت النتيجة أنها وجدت كامالا «مريضة على نحو ميئوس منه وضعيفة بشدة» ووجدت إنديرا «شخصًا مثيرًا للشفقة — مع صغر سنها — كبيرة بتجربة المعاناة فيما يفوق عمرها.»[20] تأثرت أجاثا كثيرًا بالمزيج الغريب في شخصية إنديرا الذي يجمع بين الوحدة والاعتماد على النفس، وتكونت بين السيدتين — واحدة إنجليزية غير متزوجة في أواسط العمر والأخرى مراهقة هندية قلقة — رابطة متينة استمرت طويلًا.

عندما تلقى نهرو برقية دكتور ستيفان في سجن ألمورا كتب في مذكرته في السجن: «إذن هذه هي النهاية.» وفي ٤ سبتمبر/أيلول أطلقت حكومة الهند سراحه قبل انقضاء فترة عقوبته مراعاة لظروفه، إذ غادر نهرو بعدها على الفور ليبدأ رحلته الجوية إلى أوروبا؛ من دلهي إلى كراتشي، ثم بغداد والقاهرة، ثم مستقلًّا طائرة بحرية من الإسكندرية إلى بريونديزي حيث استقل قطارًا إلى بازل، وفي بازل التقى بسوباس تشاندرا بوس، حيث ركبا معًا إلى بادن فيلر، ووصلا في ساعة مبكرة من صباح يوم ٩ سبتمبر/أيلول، فقط بعد خمسة أيام من مغادرة نهرو لسجن ألمورا.

كتب نهرو إلى أخته نان بانديت قائلًا: «لقد راعني رؤية كامالا، فقد تغيرت كثيرًا إلى الأسوأ.» منذ آخر مرة ودعها في بهوالي منذ أربعة أشهر، أما الآن فكانت كامالا تعاني ارتشاحًا بلوريًّا، وكانت حرارتها تصل إلى ١٠٤,٥ درجة فهرنهايت (٤٠,٢ درجة مئوية)، كانت شبه محمومة ومصابة بالغثيان وغير قادرة على تناول أي طعام، وبعد رؤية لزوجته كانت لنهرو محادثة طويلة مع دكتور ستيفان التي «كانت أبعد ما تكون عن التفاؤل.»[21]

كان اجتماع شمل نهرو وإنديرا من جديد هو البلسم لأعصابه المدمرة بعد إطلاق سراحه المفاجئ من السجن، وانتقاله إلى أوروبا، وصدمة رؤية حالة كامالا، وهَدّأ اجتماع شملهما من روع إنديرا، ففي اليوم التالي وجدت

أجاثا هاريسون نهرو وإنديرا واقفين معًا بالخارج في الهواء الطلق: «كانت إنديرا متشبثة بذراعه، ومن حين لآخر تمسح برأسها على كتفه ويبدو أن بعضًا من «السنين» التي لاحظتها [عليها] قد انسابت بعيدًا وأصبحت شخصًا مختلفًا.»[22]

لأكثر من شهر بعد وصول نهرو إلى بادن فيلر ظلت كاملا مريضة بشدة، وفي أواخر سبتمبر/أيلول ارتفعت حرارتها إلى ١٠٦ درجة فهرنهايت (٤١,١ درجة مئوية)، وبدأ دكتور ستيفان في إصدار تقارير عن حالتها الصحية لوكالة أنباء رويترز التي كانت بدورها ترسلها إلى الهند، واستدعي إخصائي في مرض السل من فرايبورغ قال: «إنه مع خطورة الحالة فهناك فرصة للتعافي.» ولكن، كما لاحظ نهرو في أحد خطاباته إلى أخته، بالرغم من بارقة الأمل التي أتى بها جلبت بعضًا من «الراحة ... لم يأخذنا الأمر بعيدًا.»[23]

وفي كل صباح كان نهرو وإنديرا يقطعان المسافة من بنسيون إيرهاردت إلى المصحة في جو من الكآبة، كانت كاملا معظم الوقت في غاية الضعف لدرجة لا تجعلها قادرة على التحدث، لذلك كان نهرو يقرأ لها ولإنديرا بصوت عال رواية «الأرض الطيبة» للروائية الأمريكية بيرل بك، ثم كان الأب والابنة يعودان كل إلى غرفته في البنسيون، وكل إلى أفكاره المتشائمة. حاول نهرو أن يقوم بمراجعات لسيرته الذاتية، ولكنه وجد نفسه يفكر مليًّا بكاملا وزواجهما، لقد بدأت صورة كاملا تتشكل في عقله بجانب رؤيته للهند، فلم تعد مجرد فرد، لقد أصبحت «رمزًا للمرأة الهندية نفسها ... تشوبها أفكاري حول الهند على نحو غريب ... محيرة للغاية ومليئة بالغموض.»[24]

في أواخر أكتوبر/تشرين الأول كتب نهرو لصديق له أن صحة كاملا انتقلت فجأة في «منعطف إلى التحسن» «ليس ملحوظًا» ولكنه ظل سببًا للراحة، كان التوتر الذي صاحب مرض كاملا قد استنفد قواهما وبناء على هذا الهدوء الجزئي، قررا زيارة لندن في نهاية الشهر في رحلة قصيرة نظمتها أجاثا هاريسون وزيارة كلية سومرفيل في أكسفورد أيضًا، وما إن وصلا إلى محطة فيكتوريا حتى وجدا حفل استقبال يضم أجاثا وبرتراند رسل وهوراس ألكسندر وعضو البرلمان العمالي إلين ويلكينسون وكريشنا مينون

(الذي كان قد أتى مباشرة إلى المحطة من مستشفى سانت بانكراس حيث كان يُعالج من انهيار عصبي) وتظهر إنديرا في إحدى صور استقبالهم في فيكتوريا شاحبة بعينين غائرتين ممسكة بباقة ضخمة من الأزهار وتحاول رسم ابتسامة على شفتيها.

أقام الاثنان في فندق مونتريال المُطل على قوس الرخام ثم بدآ على الفور في مباشرة مجموعة من التجمعات واللقاءات السياسية، وفي كل مكان ذهبا إليه كان الناس يحتفلون بنهرو، أو كما وصف هو في خطاب لنان بانديت: «كان الناس على مختلف أشكالهم يلتفون حولي محاولين التودد لي.»[25] وبرغم وقتهم المحدود استطاع نهرو وإنديرا أن يشاهدا أربع مسرحيات هي: «روميو وجوليت»، و«١٠٦٦ وكل ذلك» 1066 and All That، «الليل آت لا محالة» Night Must Fall، و«الحب أثناء تلقي إعانة البطالة» Love on the doles بالإضافة إلى نسخة جديدة من فيلم «حلم ليلة صيف» قام ببطولته جيمس كاجني وأوليفيا دي هافيلاند.

وفي ٥ نوفمبر/تشرين الثاني ذهبا إلى أوكسفورد حيث كانت لهما مقابلة ودية مع مديرة كلية سومرفيل، هيلين داربيشاير، وعميدة الكلية، فيرا فارنيل، التي ناقشوا فيها تقديم إنديرا لطلب التحاق للسنة الدارسية التالية التي ستبدأ في أكتوبر/تشرين الأول عام ١٩٣٦، وها هي مشكلة امتحان الالتحاق تلقي بظلالها ثانية، ثم قررت المديرة والعميدة في كلمات اجتماع اللجنة الدراسية الذي استغرق وقتًا قصيرًا في اليوم التالي أنه «نظرًا لمرض والدتها الخطير في سويسرا فإن الآنسة نهرو لن يكون بمقدورها أن تفي بالشروط التي يجب على الطلاب الهنود أن يكونوا مؤهلين بها في الهند للالتحاق بالدرجة التعليمية الأعلى، واتفق على أن يُسمح للآنسة نهرو بالدخول للامتحان [الالتحاق] في مارس/آذار ١٩٣٧ وستؤدي في الوقت نفسه [أي بدءا من أكتوبر/تشرين الثاني ١٩٣٦] الامتحان العام الخاص باللغات الحديثة والتاريخ.»[26] بمعنى آخر كانت هيلين داربيشاير تود تيسير لوائح الدخول لإنديرا، أو على نحو أكثر دقة لابنة جواهرلال نهرو.

ومع أن أبواب كلية سومرفيل قد فتحت ذراعيها لها فقد ظلت إنديرا متخوفة من امتحان الالتحاق، خاصة جزأه المتعلق باللغة اللاتينية، وكذلك

كان نهرو. هذا بالإضافة إلى أن نهرو كان قلقًا من احتمال أن تدفع إنديرا ضريبة مرض كامالا من دراستها إذا حاولت أن تستعد للامتحان في ذلك الجو الحزين المشحون في بادن فيلر، واقترح أن تعود إنديرا إلى مدرسة ايكول نوفيل في سويسرا — مكان تحبه — للاستعداد لامتحان الالتحاق بسومرفيل.

من ثم عادت إنديرا ثانية إلى مدرسة مدام هيمرلين في بيكس بعد وقت قصير من عودتهما إلى بادن فيلر في آخر نوفمبر/تشرين الثاني. من الناحية النظرية كانت تلك فكرة جيدة، ولكن إنديرا ما لبثت أن شعرت «بالغربة» هناك لأنها كانت أكبر عمرًا بكثير من الطلاب الآخرين وأصغر بكثير من المعلمين، وكان من الطبيعي بعد سفرها وعيشها وحيدة في ألمانيا وسويسرا أن تجد الحياة في المدرسة مضجرة. كان يومها مقسمًا إلى فترات للدروس والأنشطة الأخرى، ولم يكن هناك الكثير من وقت الفراغ لكتابة الخطابات أو القراءة أو التنزه المنفرد, وكانت تستاء مما تعتبرها ساعات ضائعة في الدروس الإلزامية الخاصة بالغناء والرسم والحياكة وأشغال الإبرة، ولكن حالتها تحسنت على نحو طفيف عندما انهمرت الثلوج في ديسمبر/كانون الأول وأصبح بمقدورها ممارسة رياضة التزلج من جديد، على نحو أقل اتقانًا بعد فترة انقطاع عن ممارستها بلغت تسع سنين. أما ما كان أكثر إبهاجًا لها فهي أخبار فيروز التي عبر فيها عن أنه يأمل أن يصل إلى أوروبا قبل نهاية العام وأنه سيذهب مباشرة إلى بادن فيلر لرؤية أسرة نهرو قبل الذهاب إلى لندن.

في الوقت نفسه، هناك في المصحة، كانت حالة كامالا قد ازدادت سوءًا على نحو خطير، فقد عاد إلى صدرها الارتشاح البلوري، بالإضافة إلي ارتفاع حرارتها وإصابتها بحالة أشبه بالهذيان، أزال الأطباء السائل من رئتيها عن طريق مضخة ماصة، ولكن العملية لم تُحدث تأثيرًا كبيرًا. قضى نهرو معظم الأيام نهارًا وليلًا بجوارها، وفي المساء يجلس حتى وقت متأخر في النُّزُل يراجع سيرته الذاتية التي تعهد كريشنا مينون — الذي لم يكن فقط يُدير الرابطة الهندية في لندن ولكن كان أيضًا رئيس تحرير دار بودلي هيد للنشر — بنشرها من خلال دار النشر.

وفي ٢١ ديسمبر/كانون الأول وصلت إنديرا من بيكس إلى بادن فيلر لقضاء عيد الميلاد مع والديها، وقد صدمها مرأى والدتها بهذا الضعف والمرض، وكتبت في يأس إلى مديرة مدرستها، مدام هيميرلين، في بيكس أن «أمي ... تقريبًا في غير وعيها، فهي تتعرف على أي شخص بصعوبة وتتحدث في ألم كبير ومن الصعب علينا أن نفهم ما تقول، فكلماتها غير واضحة بالمرة. لم تأكل أو تشرب أي يوم في اليومين الأخيرين غير ملعقتين صغيرتين من عصير أو شاي، ولا يمكنك أن تُجبريها حتى لا تقع في خطر الاختناق. لا يوجد ما يمكن عمله سوى الدعاء.»[27] وفي يوم عيد الميلاد كتب نهرو لصديقه القديم سيد محمود في لهجة تشع كآبة: «يبدو المستقبل مظلمًا، [فكامالا] ضعيفة وهزيلة على نحو مرعب وإذا لم يكن باستطاعتها اكتساب القوة فلن يكون بمقدورها مقاومة المرض.»[28] كان نهرو وإنديرا يتساءلان كم من الأيام قد تبقى لكامالا، بالنسبة لنهرو، وربما أيضًا لإنديرا، «كان مشهد الشتاء الهادئ» في الغابة السوداء «بعباءته البيضاء من الثلوج يبدو ... وكأنه هدوء الموت البارد.»[29]

كان لدى نهرو سيرته الذاتية لمراجعتها، وكان أيضًا يبقى على اتصاله بالتطورات السياسية هناك في الهند، ولكن إنديرا لم يكن هناك ما يشتت انتباهها من ترقب ما بدا في ذلك الوقت الموت نهاية والدتها المحتومة، ومن ثم حثها نهرو على الذهاب للتزلج، ولكن إنديرا اعترضت لأنها لا تريد ترك كامالا، صمم نهرو، وبعد ذلك تلقت إنديرا خطابًا في السر من فرانك أوبردورف. ومع اعتراضها الأول على ترك والدتها كتبت إنديرا الآن إلى السيدة هيميرلين في مدرسة ايكول نوفيل وطلبت منها أن تبعث إليها معدات التزلج الخاصة بها (التي كانت قد تركتها في المدرسة) إلى بادن فيلر. ومع حث نهرو المستمر لها على الذهاب للتزلج لبعض الأيام رتبت إنديرا سرًّا للقاء فرانك أوبردورف في وينجن، منتجع في جانجفراو في سويسرا.

غادرت إنديرا بادن فيلر في ٢٧ ديسمبر/كانون الأول، وبعد يومين ظهر فيروز غاندي في بادن فيلر دونما سابق إنذار، مما سبب الدهشة لكامالا ونهرو. في ٣١ ديسمبر/كانون الأول تبع فيروز إنديرا في وينجن، وليس من الواضح ما حدث بينهما بعد لقائهما في وينجن بعد سبعة أشهر

من الانفصال، وهل قابل فيروز منافسه الخفي (أم أنه لم يعرف حتى بوجود أوبردورف)؟ وهل كانت هناك مواجهة — أو انفجار — مع إنديرا؟ وهل كان هناك ما انكسر بينهما أو تقرر على نحو وثيق؟ كل ما هو معروف بدقة أن فيروز غادر وينجن في الليلة نفسها، عشية رأس السنة، وأنه ذهب إلى بادن فيلر وبقي هناك بدلًا من الذهاب إلى لندن، كما كانت خطته الأساسية.[30]

حاولت كامالا بعد وصول فيروز غير المتوقع إلى بادن فيلر واتباعه لإنديرا إلى وينجن أن تناقش مستقبل إنديرا مع نهرو، وهي محادثة تمت في حضور نامبيار الذي حضر إلى بادن فيلر لزيارة كامالا ورؤية نهرو في أوائل يناير/كانون الثاني ١٩٣٦، وحسبما قال «نانو» أخبرت كامالا زوجها أنها قلقة للغاية حول علاقة إنديرا بفيروز وقالت إنها لا تريد أن تتزوج إنديرا فيروز لأنها متأكدة من أنه شخصية غير مستقرة، وكانت كامالا تعتقد أن فيروز سيدخل في أي وظيفة ويُحقق مكانة تدعم إنديرا، حاول نهرو تهدئتها وطرد مخاوفها، ولكن عندما غادر الغرفة التفتت كامالا إلى نانو قائلة: «لن تستمع إنديرا لأحد سواي؛ فأنا أستطيع أن أبعدها بلطف عن فيروز، ولكن نهايتي محتمة، وجواهر لن يرشد إندو، بل سوف … يسمح لها بارتكاب خطأ حياتها.»[31]

لم هو «خطأ حياتها؟» بالطبع كانت كامالا تعرف فيروز أكثر من نهرو (وربما أكثر من إنديرا)، وكانت لها فكرة أفضل عن شخصيته، ولكن لا يوجد أي دليل على أنها أظهرت أي تحفظ عليه قبل هذه الثورة. وبالطبع أيضًا كانت كامالا تستطيع أن تتوقع اعتراض العائلة والنطاق الاجتماعي على زواج «مختلط» بين كشميرية من طائفة البراهمة ورجل بارسي مجوسي.

وأيًّا كان السبب أو الأسباب خلف قلقها الشديد حول علاقة إنديرا وفيروز، لم ينس نهرو، مع عدم مبالاته الظاهرية في ذلك الوقت، استغاثة كامالا.[32]

استيقظت إنديرا في بيكس في صباح يوم أحد في يناير/كانون الثاني ١٩٣٦، وهي تشعر، كما عبرت لوالدها، «باختلاج غريب في قلبي.» لم تستطع أن

تحدد ما إذا كان «يدل على الفرحة أم الحزن» ولكنها «قررت أنه من الأفضل دائمًا افتراض أنه شعور بالفرحة.» فبعد السبات الذي كانت تعيشه، في بحر من المسئولية لشهور وحيدة، كان شعور قوي بالحيوية الشديدة يغمرها نوع من الابتهاج واليقظة القوية تولد داخلها، ربما هو نتاج من مشاهد الموت والحب في حياتها: «أستلقي في الفراش حتى التاسعة»، هكذا كتبت إنديرا، «أفكر في جميع ما كان في الماضي وما ستجلبه السنون. أفكر فيك وفي أمي. شعرت بهدوء غريب … ومنذ ذلك الحين وبقي داخلي هذا الشعور. أحب كل شيء — حتى رياح الجنوب الفظيعة — وأشعر بسعادة وتفاؤل كبير نحو كل الأشياء.»[33]

ومما لا شك فيه أن ميلاد هذه المشاعر من السعادة والهدوء كان نابعًا من وصول فيروز غاندي إلى أوروبا، ولكن اكتشاف هذا المخزون من الأمل والحيوية في ذلك الوقت العصيب كان سبيلًا أيضًا لكشف موطن من مواطن قوة شخصيتها، ففي حقيقة الأمر أصبحت قدرتها على بعث روحها من جديد — أو بدقة أكبر من وجهة نظرها الشعور بأنها تستعيد نفسها من جديد — نموذجًا مستمرًّا لشخصيتها أنقذها في أكثر الظروف صعوبة فيما تلا ذلك من السنين، ومع أنها كانت غالبًا تظهر هشة وضعيفة، كان جوهرًا قويًّا مرنًا يقبع داخلها، فلا تنهار أبدًا.

مع ذلك كان هناك القليل في الأيام الأولى لعام ١٩٣٦ مما يبعث على البهجة لإنديرا، وتقريبًا لم يكن هناك أي مما يدعو للتفاؤل، فلم يعد باستطاعة فيروز تأجيل ذهابه إلى لندن أكثر من ذلك، وبدأ نهرو في الحديث حول العودة إلى الهند، في الوقت نفسه كان حالة كامالا المرضية تنذر بالخطر، وحالتها النفسية تهبط مع صعود حالة ابنتها، ومع أن كامالا لم تكن في حالة تسمح بالحركة فقد صرحت عن رغبتها في مغادرة بادن فيلر والذهاب إلى سويسرا. لقد أصبحت الغابة السوداء مكانًا مخيفًا لها هي الأخرى، خاصة بعد موت أحد المرضى الذي كان قد أصبح صديقها، وهو رجل أيرلندي شاب بعث لها الأزهار وزارها وكان في حالة صحية أفضل بكثير مما كانت عليه كامالا حتى انهارت حالته فجأة وتوفي.

لكن حركة كامالا كانت تُمثل خطورة طبية وكذلك كانت تعد في وقت غير مناسب، إذ إن نهرو، الذي كانت زيارته لباريس مرتبة في ذلك الوقت،

لن تكون باستطاعته الإشراف على عملية النقل بنفسه. ومع ذلك غلب رأي كامالا، ربما بسبب إصرارها على رغبتها بأن تكون قريبة من إنديرا في بيكس، رحل نهرو إلى باريس وفي ٣١ يناير/كانون الثاني، انطلقت كامالا وممرضتها أنيتا ومادان أتال بعربة الإسعاف إلى عيادة سيلفانا في لوزان، التي تبعد أقل من ساعة عن إنديرا التي ذهبت لزيارة والدتها في اليوم التالي. في ذلك الوقت شق فيروز طريقه إلى لندن ولكن خلال أيام كان هو الآخر في لوزان، عاد نهرو من لندن إلى سويسرا ليلة عيد زواجه العشرين هو وكامالا في ٨ فبراير/شباط ١٩٣٦.

وبدأت رحلة الكفاح الأخيرة؛ في لندن كان نهرو قد عرف أنه قد انتخب ليكون رئيسًا جديدًا لحزب المؤتمر، ومع عودة نهرو ثانية مع كامالا إلى لوزان كان ممزقًا بين اختيار البقاء معها ورفض رئاسة الحزب أو تركها والعودة للهند وقت اجتماع حزب المؤتمر السنوي، لكن كامالا حثته على الذهاب قائلة إن بإمكانه دائمًا العودة إلى سويسرا، وعلى غير رغبة منه حجز نهرو تذكرة سفر إلى الهند يوم ٢٨ فبراير/شباط. بعد ذلك، وبعد أن تم التنظيم لكل شيء، وجد نهرو أن «كامالا لم تكن تحب فكرة تركي لها تمامًا، ومع ذلك لم تكن لتسألني أن أغير من خططي؟»[34]

لم تكن إنديرا هي الأخرى تريده أن يذهب، وكانت تزور والديها (وفيروز) في عطلة نهاية كل أسبوع في لوزان وكتبت لهما في ١١ فبراير/شباط، «إنه لمن الجميل رؤيتكما أنتما الاثنين ... وأعتقد أن أسبوع فترة طويلة للغاية للانتظار [لأراكما مجددًا] ... لقد اكتسبت كل الصفات السيئة للطفل الوحيد وأشعر أنني أعتمد عليكما كثيرًا. ولا أعرف ما سأفعل عندما أكون وحيدة تمامًا.»[35] ذهبت إنديرا في عطلة الأسبوع التالي وكذلك في ٢٤ فبراير/شباط في زيارة أطول لوداع والدها الذي كان لا يزال سفره مقررًا في الثامن والعشرين.

كان جو الأسرة في إطاره المعهود ولكنه كان موحشًا؛ فها هي مأساة نهرو المتمثلة في الواجب السياسي وقت الحرب والحاجات الشخصية، صراع دائمًا ما انتصر فيه الواجب، بعد وصول إنديرا بوقت قصير في الرابع والعشرين من فبراير/شباط بدا وكأن كامالا تسحب نفسها عمن حولها،

إنديرا ونهرو وفيروز؛ فقد أصبحت بعيدة ومنعزلة ولم تكن تستجيب إليهم إلا فيما ندر. كان الشيء الوحيد الذي رفع من معنوياتها قليلًا هو خطاب من مرشدها الروحي في كالكتا السوامي (المرشد الديني) ابهيانانداجي الذي قرأه نهرو لها، كتب نهرو للسوامي عما فعله خطابه إذ «منحها الهدوء والسعادة ونسيان الألم لوهلة ... ولكن جسدها، بعد هذا الكفاح الرهيب الطويل الذي خاضه، بدا وكأنه قد استنفد كل قواه وينهار ... ولا أحد يعلم ما هي قادرة على فعله الآن، ولكن في الواقع تبدد الأمل.»[36]

ارتفعت حرارة كامالا أكثر فأكثر، وبدأت في الهلوسة مصممة على أن شخصًا ما يناديها، وبناء على نصيحة أطبائها ألغى نهرو رحلته، ولكن الأوان كان قد فات.

ماتت كامالا في تمام الساعة الخامسة من صباح يوم ٢٨ فبراير/شباط، نفس اليوم الذي كان نهرو يخطط فيه للرحيل، كان كل من إنديرا ونهرو بجوارها لحظة وفاتها، وفيروز أيضًا، الذي كان وجوده حاسمًا في أصعب لحظة في حياة إنديرا؛ فقد عملت مشاركته لها في وفاة والدتها وحزنها الشخصي العميق على خلق قدر كبير من الألفة والثقة بينهما، وبعد هذا الحدث بأعوام كثيرة قالت إنديرا إن فيروز «كان دائمًا موجودًا من أجلي.» كان هذا سببًا قويًّا للوقوع في هواه، وسببًا أدعى للموافقة على الزواج به، فقد اختفى كل من في حياة إنديرا، بمن فيهم كامالا، فبعد وقت قصير سيكون والدها قد رحل، ولكنها لن «تُترك وحيدة تمامًا»، إذ شكل فيروز جزءًا دائمًا من حياتها.

في عصر يوم الثامن والعشرين أبرق نهرو لأجاثا هاريسون في لندن يقول: «ماتت كامالا هذا الصباح. نهرو.» وبدورها أبلغت أجاثا الصحف البريطانية والشخصيات السياسية القوية، وأصدقاء نهرو في بريطانيا، ثم في نهاية اليوم الطويل كتبت إليه: «أرجوك حادثني إذا كان هناك أي شيء [أستطيع القيام به] فأنت ... تعلم أن إنديرا لها أصدقاء هنا.»[37] كان هذا وعدها بأن تعتني بابنته في أوروبا.

بعد يومين من وفاة كامالا أحرقت جثتها في محرقة لوزان، عاد فيروز إلى لندن وذهبت إنديرا ونهرو إلى مونترو لقضاء العديد من «الأيام السوداء»،

كما وصفها نهرو، قبل سفره إلى الهند، كان نهرو «محطمًا»، «لم يكن يستطيع التفكير على نحو سليم.»[38] وتبدد تفاؤل إنديرا وأملها، كان عام تقريبًا قد مر منذ مغادرتها بيتها إلى الغابة السوداء وكانت هذه هي نهاية تلك الرحلة؛ في منتجع ساحر مليء بالحيوية وكأنه يسخر من حزنها. منذ تسعة أعوام، كانوا هناك مع كامالا، وطاردت إنديرا أشباحهم السعيدة حينها. وفي ٥ مارس/آذار، افترقت هي ونهرو — دونما حديث حول ميعاد لقائهما القادم — في محطة مونترو؛ حيث استقلت إنديرا القطار إلى بيكس وحدها.

في اليوم التالي بدأ نهرو رحلته الجوية إلى الهند مع جرة تحوي رماد كامالا، وشعور بأن «أحلامنا الوردية قد ماتت هي الأخرى وتحولت إلى رماد.»[39] وعندما هبطت الطائرة في بغداد بعث برسالة إلى ناشره في بودلي هيد في لندن، الذي كان يعد لنشر سيرته الذاتية، لم تكن هذه الرسالة سوى برقية قصيرة تحمل الكلمات التي ستتصدر سيرته الذاتية وهي إهداء لكتابه قال فيها «إلى كامالا التي لم تعد معنا.»